موسوعة المدينة التاريخية

١

يثرب

قبل الإسلام

دكتور

محمد السيد الوكيل



بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة المدينة التاريخية

١

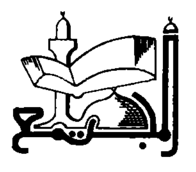
يثرب

قبل الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الناشر



دار المجتمع للنشر والتوزيع

جدة: ميدان الجامعة ص. ب. ٨٠٥٢ جدة ٢١٤٨٢ - ت. ٦٨٩١٤١٧

الخبر: ش الأمير نايف ص. ب. ٢٣٢١ الخبر ٣١٩٥٢ - ت. ٨٩٤١١٣٦

المقَــدّمَة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد.

فإن للمدينة المنوّرة في نفوس المسلمين منزلة لا تضارعها منزلة، ولها في القلوب حباً لا يعدلـه حب، والحق أنها جديرة بتلك المنزلة، خليقة بهذا الحب.

ولقد اكتسبت هذه القرية من قرى شبه الجزيرة العربية تلك المنزلة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام تأكدت منزلتها، وتغلغت في القلوب محبتها.

أحب العرب في الجاهلية المدينة، واتخذوها محطاً يستريحون فيه من بعد الشقة وعناء السفر، وكانت المدينة تبادلهم هذا الحب، فيجـدون في رحابها الهدوء بعد الاضطراب، وفي بساتينها الطعام والماء، بعد الجوع والعطش، ويجدون في أهلها أهلاً بدلاً من الذين فارقوهم، وهم يشدون الرحالَ للضرب في الأرض يبتغون من فضل الله، فلا غرابة إذن أن تكون للمدينة منزلة في نفوس الناس ومحبة في قلوبهم.

واستهل الإسلام حيـاته غـريباً في البلد الـذي نبت فيه، وعـاش المسلمون مضطهدين في مهبط الوحي، وهاجروا إلى الحبشة فوجدوا فيها الراحة بعد العناء، والاطمئنان بعد القلق ولكنهم لم يجدوا فيها التـربة

الصالحة لاحتضان الدعوة الجديدة، ولا الأرض الصلبة التي يستطيع الدعاة الوقوف عليها.

وكانت الهجرة إلى المدينة، فآوت ونصرت، وبذلت وضحت، وقدمت وآثرت، ووجد فيها المسلمون كل ما تطلعت إليه نفوسهم، وتمنته قلوبهم، واتخذها رسول الله ـ ﷺ ـ عاصمة للدولة الإسلامية، فأصبحت بذلك وطن المسلمين الحقيقي، يشعرون فيه بالأمن الذي طالما نشدوه، ويحسون في رحابه بالطمأنينة التي طال حرمانهم منها، ويجدون فيه مع ضيق العيش رخاء وسعة بين إخوانهم.

تعلقت القلوب بالمدينة لأنها الأم التي ضمت إلى صدرها المشردين في حنان ورفق ولأنها الوطن الذين آوى إليه المطرودون فاستقبلهم بالترحيب والإكرام، فكان من حق المدينة على كل مسلم أن يشيد بمآثرها، وأن يسطر مفاخرها، وأن يخلد ذكراها في العالمين.

لقد منحت المدينة للإنسانية حقوقها التي ضيعها طغيان الطاغين، وأهدرتها مظالم الجبارين، فأعادت للإنسان كرامته، وأهدت إليه حريته، ووقفت دولتها في جوار المستضعفين حتى عزوا، وحدَّت من سلطة الطغاة المتجبرين حتى ذلوا، ونعم الناس في ظلها بالعدل السياسي والاجتماعي في وقت لم يكن للعدل فيه مكان حتى بين صفحات الكتب.

إن هذا التاريخ المجيد للمدينة أثار في نفسي رغبة الوقوف عليه من مصادره الموثوقة، وجئت إلى البحث عنه في مظانه الدقيقة، فأخذت أجمع كل ما استطعت جمعه من المراجع والمصادر التي تناول أصحابها تاريخ المدينة ـ وهي كثيرة لا تحصى ـ ودققت فيها النظر فإذا هي تحوي ألواناً شتى، كل سفر يضم بين صفحاته ما لا يجود به غيره، أو يحوي بين دفَّتيه ما يكمل موضوعاً تعرض له سواه.

ووجدت في تلك الكتب نتفاً متناثرة لو ضمت إلى بعضها لأصبحت موضوعاً واضح اللمحات، غزير النفحات، يمكن أن يتناول جانباً من جوانب الحياة المختلفة التي عاشتها المدينة في تلك الحقبة من الزمان.

لقد كانت المدينة عاصمة لأول دولة قامت على أرض الجزيرة، لها نظم سياسية تدبر بها شؤونها، وأوضاع اجتماعية تنظم بها حياتها، ومنهج اقتصادي يضبط معاملاتها، إنها دولة اكتملت فيها كل معالم الدولة على النحو الذي نعرفه الآن، وفيها حكومة اتسمت بكل سمات الحكومة التي تسير دفة الأمور في البلاد.

عندئذٍ انقدحت في ذهني فكرة البحث في النظم التي قامت عليها دولة الإسلام الأولى سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وفي نفس الوقت أدركت أن حسن هذه النظم وروعتها، وتفوقها ودقتها لا يمكن أن يلمسه الباحث، أو يقف على حقيقته القارىء إلا إذا وضع إلى جوار النظم التي سبقته في تلك البيئة، وطبقت على الناس أنفسهم فتكلمت عن النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت قائمة في المدينة قبل قيام دولة الإسلام.

ولست أدعي أنني ابتكرت هذه ابتكاراً، ولا أقول إنني أوجدتها من العدم بعد أن لم تكن، ولكني جمعتها من ثنايا الكتب ونسقتها على النحو الذي أبرزتها فيه، ونظمتها في إطار واحد فخرجت في صورة مكتملة بعد أن كانت نتفاً وشذرات مبعثرة هنا وهناك.

وقد اتبعت في دراستي للموضوعات السابقة النهج الآتي:

١ ـ إذا أجمع المؤرخون على رواية أثبتها، ما لم تكن مخالفة لصريح العقل أو النقل أو الأحداث التاريخية الموثوقة، فعندئذٍ أعلق عليها بما يوضح رأيي فيها من حيث القبول أو الردّ.

٢ ـ إذا اختلفت الروايات، بحثت عن مصادرها، وأخذت بالأوثق ولو خالفت رأي الأكثرين.

٣ ـ إذا تعارضت الروايات في موضوع واحد ناقشتها، وأثبت منها ما يوافق الوقائع التاريخية الصحيحة، أو ما يوافق قواعد البحث العلمي الدقيق.

٤ ـ إذا انفرد مؤرخ برواية، وعارض آخرون سلكت فيها منهج الترجيح

والتوثيق، أما إذا لم يعارض غيره ناقشتها على ضوء الأحداث التاريخية، ثم أثبت ما يترجح لي بعد المناقشة.

وكثيراً ما كانت تظهر لي علة في حدث من الأحداث أو حكمة في أمر من الأمور فأبينها، وأحاول إظهارها حتى يرى القارىء فيها روعة الحادث، أو يأخذ منها عبرة التاريخ.

وكم وقفت على آراء قصرت في التعبير، أو جانبت الصواب في التفكير، فأظهرت عورهـا، وكشفت مستورها، وأثبت وجه الحق الذي بدا لي فيها مؤيداً بما يرجحه ويقويه.

هذا إلى جانب استنتاجات بمقارنة الأحداث، وتحليلات استوجبتها الوقائع وقد أدليت فيها بدلوي راجياً أن أكون قد وفقت فيما استنتجت، ونجحت فيما حللت، وأن أكون قد فتحت بذلك باباً مغلقاً يلجه من يعاود البحث، ويصل منه إلى غاية القصد، إذ ليس المراد الاستئثار، وإنما القصد الوصول إلى الحقائق العلمية خالية من الشوائب والأباطيل، وهي كثيرة دست في تاريخنا دسّاً، وأقحمت بين صحائفه إقحاماً.

ولهذا كان طريق المحدثين، في تقصي حقائق التاريخ هو أضمن الطرق لاستخلاص الصواب، وكشف الزيف والاضطراب، وإثبات الحقائق وإزاحة الأباطيل.

وقد يكون الطريق شاقاً ولكنه مع ذلك هو الطريق الوحيد لتمحيص الروايات وكتابة التاريخ خالياً من الزيف والتشويه.

وإني وإن لم أستطع سلوك هذا الطريق في كل ما أوردته من الروايات إلا أني أقترح أن يكون هذا هو سبيل الباحثين في وقائع تاريخنا الإسلامي إذ ليس التاريخ دون غيره من المواد التي تحري فيها العلماء تحقيق الروايات بأسانيدها، وبينوا صالحها من فاسدها.

أرجو أن يقع هذا الاقتراح من نفوس أساتذتنا الأفاضل موقع القبول وأن يحتل مكانه من مواقع التنفيذ حتى يخرج إلى حيز الوجود.

وإني لأشعر في قرارة نفسي أني لم أوفِ الموضوع حقه، لا لأني قصرت في جهد أطيقه، ولا لأني ضننت بوقت أستطيع تقديمه، فالله ـ سبحانه ـ يعلم أني ما ضننت بوقت، ولا قصرت في جهد، ولكن لأني أشعر أن الموضوع لا يزال قابلاً للمعالجة والاهتمام، ولا تزال الفرصة سانحة لمن يأنس في نفسه القدرة على المعالجة والمعاناة.

ولعل غيري يملك من الجهد ما لا أملك، وعنده من الوقت ما لم يتح لي، فيأتي في البحث بما لم أستطع الإتيان به، أو يوفق فيه إلى ما لم أوفق إليه، وعندئذٍ تبرز الأفكار الجديدة وتستنبط العبر المفيدة، وتكون الدراسة أدق وأشمل، فتكمل الجوانب التي لم تستكمل صورتها، وتتضح الوجوه التي خفيت بعض معالمها.

وإنني أعتقد أن الباحث مهما أخلص في بحثه، ومهما توفرت له الأسباب الموصلة إلى قصده لا بدّ أن يفوته في الموضوع أمور يستدركها غيره، ويسعى إلى تحقيقها من يوفق للانتباه لها.

ولهذا فإني التمس المعذرة عن التقصير، وأرجو العفو عن الـزلل والخطأ غير المقصود والله حسبنا ونعم الوكيل، وهـو نعم المولى ونعم النصير.

دكتور
محمد السيد الوكيل



تمهيد

نشأة يثرب وتسميتها

يقول ياقوت: وكان أول من زرع بالمدينة، واتخذ بها النخل، وعمر بها الدور والآطام، واتخذ بها الضياع، العماليق، وهم بنو عملاق بن أرفخشذ ابن سام بن نوح ـ عليه السلام[1] ـ. ويقول العصامي إن عبيلا هم أول من سكنها (وكان يثرب بن قامة بن مهلئل بن إرم بن عبيل نزل بالمدينة فسميت باسمه، فهلك أولئك ببعض غوائل الدهر، وأقصدتهم سهامه، فقال بعض ولده ممن رثاهم شعراً:

عين جودي على عبيل وهل ... يرجع ما فات فيضها بانسجام
عمَّروا يثربا وليس بها سفر ... ولا سارح ولا ذو سنام
غرسوا لينها ببحر معين ... ثم حفوا الفسيل بالآجام[2]

وهذه الأبيات تدل على أن عبيلا هم أول من عمر هذا المكان بالزرع والدور والآطام، على أن الدكتور جواد علي يرى أن قوماً سكنوها قبل عبيل يقال لهم: (صعل وفالح) وأن النبي داود ـ عليه السلام ـ غزاهم وأخذ منهم أسرى، وهلك أكثرهم، وقبورهم بناحية الجرف[3].

ويقول: إنهم ـ عبيل ـ لحقوا بموضع حيث أختطوا يثرب، وكان الذي

---

(١) معجم البلدان (٤/٤٦١).
(٢) سمط النجوم (١/١٢٨ ـ ١٢٩).
(٣) المفصل (٤/١٢٩) عمدة الأخبار ص ٣٣.

اختطها منهم رجل يقال له: (يثرب بن بائلة بن مهلهل بن عبيل)[1].

ويرى الدكتور جواد أن العماليق سكنوها بعد عبيل حيث يقول: ثم إن قسماً من العماليق انحدروا إلى يثرب، فأخرجوا منها عبيلا[2].

ويروي السمهودي قصة في أول عمارة الأرض بعد الطوفان فيقول: أسند الكلبي عن ابن عباس أن مخرج الناس من السفينة نزلوا طرف بابل، وكانوا ثمانين نفساً، فسمى الموضع سوق الثمانين، قال: وطول بابل مسيرة عشرة أيام وإثني عشر فرسخاً، فمكثوا بها حتى كثروا، وصار ملكهم نمرود ابن كنعان بن حام، فلما كفروا بلبلوا ـ تبلبلت ألسنتهم ـ فتفرقت ألسنتهم على اثنين وسبعين لساناً، ففهم الله العربية منهم عمليق وطسم بـن لوذ بـن سام، وعادا وعبيلا بـن عوض بن أرم بن سام، وثمود وجديس ابني جائق بن إرم ابن سام، وقنطور بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، فنزلت عبيل يثرب. ويثرب اسم ابن عبيل، ثم أخرجوا منها، فنزلوا الجحفة، فجاءهم سيل أجحفهم فيها، فلهذا سميت الجحفة.

ثم قال: قال أبو القاسم الزجاجي: أول من سكن المدينة عند التفرق، يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام ابن نوح ـ عليه السلام ـ وبه سميت يثرب[3].

ونستطيع بعد هذا أن نقول إنه ليست لدى أي باحث نصوص يستطيع الاعتماد عليها في إثبات أول من اختط يثرب وأنشأها وإنما هي روايات ذكرها الإخباريون، يمكن على ضوئها القول بأن هذه الأجناس من البشر سكنتها في الأزمان الغابرة ولكن لا يمكننا بالتحديد أن نجزم بمن سكنها منهم أولاً.

وإذا استطعنا أن نعرف الأزمان التي كان فيها كل فريق منهم نستطيع أن نحدد من منهم الذي سبق إليها واختطها. والوسائل التي نستطيع بها تحديد

---

(١) المفصل (١/٣٤٣).
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) وفاء الوفا (١/١٥٦).

ذلك غير موجودة الآن، حيث لا توجد كتابات قديمة، ولا حفريات منظمة ترشدنا إلى ذلك.

يقول الأستاذ الشريف: وتاريخ يثرب القديم مجهول، فلا توجد مدوّنات يمكن الرجوع إليها، وكذلك لم تقم بها أبحاث أثرية يمكن الاستفادة منها[1].

ويذكر الأستاذ الشريف أيضاً أن اسم يثرب ورد في الكتابة المعينية[2]، ويستدل من هذا على قدمها، وأن المعينيين قد استعمروها لتكون محطة لتجارتهم، لأن مستعمراتهم كانت متصلة على طول الطريق التجاري الممتد إلى تخوم الشام. ومهما كان زمن الدولة المعينية، فقد حاول كثير من المؤرخين تحديده وحصره في فترة معلومة، وإن اختلفت أقوالهم في ذلك.

ولكن إذا اعتمدنا روايات المؤرخين العرب المسلمين فإننا نلاحظ أن عبيلا والعماليق أقدم عهداً من هؤلاء، حيث يذكر المؤرخون عبيلا والعماليق من طبقة العرب البائدة، فهم على ذلك أقدم من المعينيين.

ونلاحظ أن الدكتور جواد: يتناول طبقات العرب حسب تقسيم المؤرخين لها بشيء كبير من الحذر، وعندما يتعرض للعرب البائدة يحاول أن ينفيها مستدلاً على ذلك بأن التوراة لم تتعرض لذكر أبناء لاوذ بن سام ابن نوح ولا لذكر حفدة إرم بن سام بن نوح، ويتناول الموضوع بأسلوب ساخر فيقول: (ولا نجد لـ «لوذ» أي «لاوذ») ولداً في التوراة، فأولاده المذكورون هم هدية من أهل الأخبار قدمت إليه، أما (إرم) وهو (آرم) في التوراة، فإن له في التوراة من الأولاد (عوض) و (حول) و (ماش) و (كثير) ولم تذكر التوراة ولداً لهؤلاء الأربعة، فالأولاد الذين ذكرهم أهل الأخبار على أنهم ولد (عوض) و (كثير) و (عاثر) و (كاثر) هم هبة من الأخباريين قدموها إلى هذين الأخوين[3].

---

(١) مكة والمدينة ص ٢٨٩.

(٢) نفس المرجع ص ٢٩٠.

(٣) المفصل (١/٢٩٧).

والذي يفهم من إنكار الولد للاوذ بن سام ونفي الحفدة لإرم بن سام هو إنكار العرب البائدة لأنهم كما ذكر المؤرخون من نسل لاوذ وإرم ابني سام.

والحقيقة أن النفس لا تميل إلى نفي ذلك اعتماداً على أن التوراة لم تذكر للأول ولداً وللثاني أحفاداً، لأن التوراة الموجودة الآن بيد اليهود محرفة ومبدلة، ولا يستبعد أن يكون اليهود قد تعمدوا حذف ذلك ليخفوا وراء نسب العرب ويضيعوه لما بينهما من العداوة والبغضاء، شأنهم في ذلك شأن التحريفات التي أحدثوها في التوراة.

وهنا يطرح سؤال لا بدّ منه، وهو فمن أين للمؤرخين المسلمين رفع هذا النسب إلى لاوذ وإرم بـن نوح ـ عليه السلام ـ؟ والجواب على ذلك، أن الذين تعرضوا لهذا الموضوع، هم علماء من أهل الكتاب كوهب بن منبه وكعب الأحبار وابن جريج والعرب قد نقلوه عنهم، ولعل هؤلاء قد نقلوا ذلك عن أسلافهم الذين اطلعوا على ذلك في التوراة والإنجيل قبل حذفه، أو لعلهم هم قد قرأوه في نسخ لم يحذف ذلك منها. إذ لا يعقل أن يجمع مؤرخو العرب والمسلمين على إثبات ذلك من غير أن يشذ منهم واحد ينفيه، وفيهم المحققون الذين شهد لهم بالإنصاف والعقل والتدقيق في الرواية.

وعلى هذا نستطيع أن نقول ـ ترجيحاً لا قطعاً ـ بأن أول من اختط المدينة قوم من عبيل، وأن الذي اختطها منهم رجل يسمى (يثرب بن باثلة ابن مهلهل بن عبيل) فسميت الأرض التي اختطها باسمه[1].

موقعها:

تعتبر مدينة يثرب من حيث موقعها مركزاً لدائرة يتراوح نصف قطرها بين ٤٢٥ ـ ٥٤٠ كم وليس هذا التراوح كبيراً بالنسبة لمساحة الجزيرة التي تبلغ ثلاثة ملايين كيلو متر مربع ولا بالنسبة للمسافات الشاسعة التي تقع عليها المدن[2].

---

(١) وفاء الوفاء (١٥٦/١) المفصل (٣٤٣/١) عمدة الأخبار ص ٣٣ سمط النجوم (١٢٨/١).
(٢) مجلة الخفجي العدد الثامن المجلد السادس.

وإذا كانت يثرب هي مركز الدائرة، فإن البلاد التي تقع على محيطها هي ما يأتي:

(١) مكة المكرمة وتقع إلى الجنوب من يثرب على مسافة ٤٩٧ كم.
(٢) حائل وتقع إلى الشمال من يثرب على مسافة ٤٥٠ كم.
(٣) بريدة وتقع إلى الشرق من يثرب على مسافة ٥٤٠ كم.
(٤) جدة وتقع إلى الجنوب الغربي من يثرب على مسافة ٤٢٥ كم.
(٥) الوجه وتقع إلى الشمال الغربي من يثرب على مسافة ٤٩٠ كم.

ونلاحظ أن هذه المدن هي أهم المدن في الجزيرة العربية، لأن مكة المكرمة هي البلد الديني المقدس من قديم الزمان وحائل من المدن المشهورة بجبليها أجأ وسلمى وهي مسكن حاتم الطائي، وقربها من حدود العراق جعل لها منزلة تجارية كبيرة. وأما بريدة فهي عاصمة إمارة القصيم وهي منطقة زراعية مشهورة لتوفر المياه ووجود الأرض الصالحة للزراعة. وأما جدة والوجه فهما ميناءان مشهوران على البحر الأحمر، ولهما أهمية كبرى بالنسبة لتجارة الجزيرة مع غيرها من الدول. ويثرب بهذا الموقع الممتاز تعتبر منطلقاً ذا أهمية عظيمة، يمكن الاتصال منها بأي من هذه المدن المذكورة وهي مدينة حجازية مرموقة من قديم الزمان تقع على خط طول ٣٩,٣٦° شرقاً، ودائرة عرض ٢٤ر٢٨° شمالاً، وهي من حيث حجمها تكون على النصف من مكة المكرمة، كما تقع على الطريق التجاري بين اليمن والشام.

وصفها:

قامت يثرب على أرض خصبة كثيرة المياه لذا كثرت بها الزراعة، وعرفت بكثرة نخيلها ووفرة آبارها ويعتمد أهلها في ري الأرض وسقي الزرع وشرب الإنسان والحيوان على الآبار[١]. وتكتنف يثرب من جهتيها الشرقية والغربية حرتان، والحرة الأرض ذات الحجارة النخرة، وتمتاز بلونها الأسود كأنها محروقة بالنار[٢]. وتعرف الحرة الغربية بحرة الوبرة، وهي تبدأ من ذي

---

(١) معجم البلدان (٤/٤٥٨ - ٤٥٩).
(٢) المنجد مادة حرر.

الحليفة (آبار علي) ميقات أهل المدينة الآن، وفي نهاية هذه الحرة من جهة الشمال يقع بئر رومة، وهي البئر التي كانت مملوكة لأحد اليهود. وكان يبيع ماءها على المسلمين، حتى حث النبي -ﷺ- على شرائها، فاشتراها عثمان ابن عفان - رضي الله عنه - وجعلها سبيلا (صدقة) للمسلمين، ودفع لليهودي ثمنها عشرين ألف درهم(١).

وتمتدّ هذه الحرة من الجنوب قبالة قباء وتنتهي إلى الشمال عند بئر رومة المذكور. وأما الحرة الشرقية فتعرف بحرة واقم، وهو حصن لبني عبد الأشهل من الأوس سميت الحرة به(٢) وكان يقيم في هذه الحرة أهم القبائل اليهودية، كبني النضير، وبني قريظة؛ وبعض العشائر اليهودية.

كذلك كانت تسكنها أهم بطون الأوس - بنو عبد الأشهل، وبنو حارثة وبنو معاوية، وغيرهم - وقد ترك سكان هذه الحرة من اليهود والعرب آثاراً تدل على ما كانوا عليه من التقدم الحضارى والنظام، حيث وجد بها آثار وأطلال لمصانع وصهاريج للمياه(٣).

وتمتد الحرة الشرقية من الجنوب جهة عوالي المدينة والعريض إلى الشمال حيث تنتهي عند جبل أحد. وهاتان الحرتان حصنان طبيعيان ليثرب من الجهتين المذكورتين، ومن جهة الجنوب تقع واحة قباء على بعد ميلين من يثرب تقريباً، وينحدر من قباء واديان هما وادي بطحان ووادي رانوناء، ويتجهان إلى الشمال حيث يتصلان بوادي قناة الواقع في جنوب أحد، وهذه الأودية كلها تلتقي عند مجمع الأودية بقرب رومـة. وفي الجنوب الشرقي يقع وادي مذينيـب ووادي مهزور اللذان استوطنهما اليهود وأقاموا عليهما في عوال المدينة التي كانت تعتبر أخصب بقاع بها. وأودية يثرب كلها تنحدر من الجنوب إلى الشمال وتسير فيها مياه الأمطار بغزارة فتحولها إلى جنات نضرة،

---

(١) في منزل الوحي لهيكل ص ٦١٣.
(٢) مكة والمدينة ص ٢٨٨.
(٣) في منزل الوحي ص ٦١٠.

ومزارع خضرة، وبساتين تنبت أشجار الفاكهة والنخيل[1]. وفي الشمال الشرقي ليثرب يقع جبل أحد وسمي بذلك لتفرده وعدم اتصاله بجبال أخرى[2] كذلك يقع جبل سلع في الشمال الغربي ليثرب حيث يجري وادي بطحان ويلتقي به وادي قناة.

يقول الدكتور جواد: ويظهر من وصف أهل الأخبار ليثرب، أنها كانت تشبه مدينة (الحيرة) بالعراق، من حيث خلوها من سور، ومن تكونها من (قصور)، وهي بيوت السادة ومعاقل المدينة ومواضع دفاعها آناء الشدة وأوقات الحروب، وقد عرفت ـ هذه القصور ـ بـ (أطم) و (آطام) عند أهل يثرب، وذكر أن الأطم، كل حصن بني بحجارة أو كل بيت مربع مسطح، وورد (الأطوم) القصور حصون لأهل المدينة، والأبنية المرتفعة كالحصون[3] ويمتاز جو يثرب بالجفاف معظم أيام العام، وهو عموماً أفضل من جو مكة، وألطف منه، ولم يعان أهل يثرب ما عاناه أهل مكة من قلة الماء حتى بعد حفر (بئر زمزم) لأن الماء في يثرب متوفر وقريب من سطح الأرض ويمكن الوصول إليه بسهولة عن طريق حفر الآبار التي كانت عامة في كل بيت من بيوت يثرب.

وكان لهذه الميزات أثر كبير في حياة السكان، حيث أمكنهم إنشاء البساتين وتخطيط الحدائق ومكن ذلك السكان من إيجاد أماكن للنزهة يخرجون إليها، ويستمتعون بها، مما أثر في طباعهم وأخلاقهم فكانوا ألين عريكة، وأشرح صدراً من أهل البيت الحرام[4].

وتعتبر المنطقة الواقعة بين يثرب وقباء أخصب المناطق، حيث تكثر فيها البساتين التي تغذي يثرب بجل خضرها وفاكهتها، وهي لهذا أيضاً كانت منتزه أهل يثرب ومصحتها في مختلف العصور، فكان الناس يخرجون إليها

---

(١) في منزل الوحي ص ٦١٠.
(٢) مكة والمدينة ص ٢٨٨.
(٣) المفصل (١٣٢/٤).
(٤) نفس المرجع والصفحة.

للتريض، ويذهب إليها المرضى لقضاء فترة النقاهة واستعادة النشاط والقوة[1].

مركز يثرب في الجزيرة العربية:

يستفاد مما ذكرناه عن موقع يثرب ووصفها العام أن لها مركزاً هاماً في الجزيرة العربية فهي من جهة تتصل بالمدن المهمة كمكة وجدة وحائل وبريدة وينبع والوجه، وهذه المدن ذات أهمية كبيرة في الجزيرة العربية إما لمركزها الديني أو التجاري أو الزراعي، وأن اتصالات يثرب وعلاقاتها بهذه المدن جعل منها مركز التقاء ترد إليه خيراتها الوفيرة سواء المجلوبة إليها من الخارجة، أو الناتجة في نفس البلد. على أن يثرب لتوسطها الطريق تقريباً بين اليمن والشام جعلها محطة للتجار، يحطون فيها رحالهم، ويستريحون فيها من عناء السفر، وبالتالي فإن جو يثرب الهادىء اللطيف، ومياهها الغزيرة العذبة، ونخيلها الباسق المثمر، وبساتينها الفيحاء النضرة، وفاكهتها اللذيذة الحلوة، كل ذلك جعل التجار يفضلونها على غيرها من البلاد التي يجتازونها في طريقهم، فهم يقطعون مسيرتهم عندها للأسترواح وليتزودوا من خيراتها بما يعينهم على وعثاء السفر، وطول الطريق، وبعد المشقة.

كما أن هذا الموقع ليثرب يسر لأهلها سبل التجارة فكانوا يخرجون إلى الشام بما تنتجه بلادهم فيبيعونه هناك، ويشترون من خيرات البلاد الشامية ما يحتاجون إليه في بلادهم. وكان اليهود ـ كعادتهم ـ هم أصحاب اليد الطولى في هذا المضمار، لأن الحروب الطويلة والكثيرة بين الأوس والخزرج وميلهم إلى شن الحروب لأتفه الأسباب شغلهم عن زراعة الأرض وفلاحتها، كما صرفهم عن الاتجار والاشتغال بالتجارة، وتفرغ لذلك اليهود فكانوا هم أهل الزرع والضرع، وقاموا بالأعمال التجارية الهامة.

ولعل حرص اليهود على مركزهم التجاري والزراعي في يثرب هو الذي دفعهم دائماً إلى تحريك العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج ليظلوا

---

(١) مكة والمدينة ص ٢٨٨.

مشغولين بالحروب والغارات، وليخلو لليهود الجو فيستغلوا هذه الموارد وحدهم دون منازع ولا شريك.

ومن هذا نستطيع أن نقول إن مركز يثرب التجاري والزراعي كان هاماً جداً، ومما يدل على أهميته توافد الأجناس المختلفة على سكناها، حتى أن بعضهم كانوا يتقاتلون على ذلك، ويطرد الغالب المغلوب ويحل محله، كما حدث ذلك بين عبيل والعماليق وكذلك بين الأوس والخزرج وبين اليهود على ما سنعرفه بعد.

كما كان ليثرب مركز سياسي، بحيث يتمكن المسيطر عليها من السيطرة على طريق القوافل المارة من الجنوب إلى الشمال ولو عبرت عن طريق الساحل، لأن المسيطر على المدينة يمكنه السيطرة على طريق الساحل بسهولة.

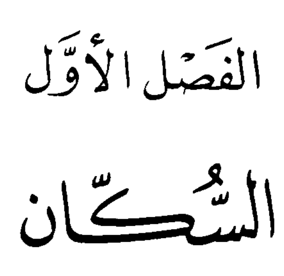
وقد أدرك هذه الحقيقة الملك (نبو نيد) فإنه قد استولى على تيماء في حدود سنة (٥٥٢ ـ ٥٥١) ق. م، وزحف منها على فدك، وخيبر، ويثرب.

يقول الدكتور جواد: (والظاهر أن الذي حمله على التوغل في الجنوب، رغبته في السيطرة على أخطر طريق برية للتجارة تربط بلاد الشام بالعربية الجنوبية، وهي طريق قديمة مسلوكة، تسلكها القوافل التجارية المحملة بأنفس التجارات المطلوبة في ذلك العهد، ثم السيطرة على البحر الأحمر، . . . ومن يدري؟ فلعل اختيار (تيماء) مقراً له، وتجوله في الأرضين الواقعة بينها وبين (يثرب) كان لهذا السبب، أي لتنفيذ تلك الفكرة الخطيرة، فكرة السيطرة على جزيرة العرب[1].

ومن هذا العرض يتضح لنا أهمية مركز يثرب في الجزيرة العربية، سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية، أو من الناحية السياسية.

---

(١) المفصل (١/٦٦٥).


الفَصل الأوَّل
السُّكّان



السُّكّان

تعاقب على أرض يثرب كثير من السكان، عرف بعضهم وتكلم عنه كثير من المؤرخين، وبعضهم لا زال مجهولاً ذكر بعض المؤرخين أسماءهم، دون أن يكتبوا أو يذكروا عنهم شيئاً لا من حيث الأصل، ولا من حيث طريقة تعايشهم واتصالهم بغيرهم ممن جاورهم في جزيرة العرب، ولا من حيث الأحوال الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانوا يتعاملون بها، سواء كان ذلك فيما بينهم أو مع غيرهم، ونذكر منهم.

١ ـ صعل وفالج

فهناك شبه إجماع من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ يثرب على أن أول من سكنها بعد غرق قوم نوح قوم يقال لهم: صعل وفالج، وأن نبي الله داود ـ عليه السلام ـ غزاهم وأخذ منهم أسرى.

وجدت ذلك في أخبار المدينة لابن زبالة المتوفي في أواخر القرن الثاني الهجري، كما وجدته في عمدة الأخبار للعباس المتوفي في القرن العاشر الهجري، ونصت عليه كتب أرخت بين هذين المصدرين، كأخبار مدينة الرسول لابن النجار المتوفي عام ٥٧٣ هـ. ووفاء الوفا للسمهودي المتوفي عام ٩١١ هجرية ـ تحقيق الخبر ـ. والذي يلفت النظر في النص السابق أن الذي غزاهم هو نبي الله داود ـ عليه السلام ـ ومعلوم أن داود من أنبياء بني إسرائيل وأنه كان بعد موسى ـ عليه السلام ـ وعلى دينه.

ثم إننا نرى هذه الكتب نفسها تنص على أن العماليق كانوا يسكنون

يثرب وأن نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ أرسل إليهم جيشاً غزاهم وأخرجهم من يثرب.

فابن زبالة يروي عن عروة بن الزبير فيقول: (كـان العماليق قد انتشروا في البلاد، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله، وعتوا عتواً كبيراً، فلما أظهر الله موسى ـ عليه السلام ـ على فرعون، وطىء الشام وأهلك من بها، يعني من الكنعانيين ـ وقيل: بعث إليهم بعثاً فأهلك من كان بها منهم، ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز للعماليق، وأمرهم ألا يستبقوا أحداً منهم بلغ الحلم، فقدموا عليهم فأظهرهم الله فقتلوهم[1].

وابن النجار يقول: (إن موسى ـ عليه السلام ـ لما أظهره الله على فرعون، وأهلكه وجنوده، وطىء الشام وأهلك من بها، وبعث بعثاً من اليهود إلى الحجاز، وأمرهم ألا يستبقوا من العماليق أحداً بلغ الحلم، فقدموا عليهم فقتلوهم)[2].

والعباس يقول: (وكانت العماليق قد انتشرت في البلاد، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله، وعتوا عتواً كبيراً، فبعث إليهم موسى ـ عليه السلام ـ جنداً من بني إسرائيل فقتلوهم بالحجاز وأفنوهم)[3].

وأما السهيلي فيروي الموضوع عن أبي الفرج الأصفهاني فيقول: (إن السبب في كون اليهود بالمدينة ـ وهي وسط أرض العرب ـ أنَّ بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بنوا إسرائيل ذلك إلى موسى، فوجه إليهم جيشاً[4]. . .

فكيف يكون أول من سكن المدينة بعد الطوفان هم (صعل وفالج) في الوقت الذي نرى فيه أن العماليق كانوا يسكنونها وأن موسى أرسل إليهم جيشاً

(١) أخبار المدينة (مخطوط).
(٢) أخبار مدينة الرسول ص ١٢ ـ ١٣.
(٣) عمدة الأخبار ص ٣٤.
(٤) الروض الأنف (٤/٢٩٠).

حاربهم وقتلهم؟ والمعلوم أن موسى كانت رسالته قبل داود ـ عليهما السلام ـ بحوالي تسعمائة سنة.

والغريب أن الدكتور جواد علي يتناول الموضوع وينسبه إلى أهل الأخبار، دون أن ينبه على هذا الخطأ. فيقول: (ويذكر بعض أهل الأخبار أن أقدم من سكن يثرب في سالف الزمان قوم يقال لهم: (صعل وفالج) فغزاهم نبي الله داود وأخذ منهم أسرى، وهلك أكثرهم، وقبورهم بناحية الجرف، وسكنها العماليق، فأرسل عليهم النبي (موسى) جيشاً انتصر عليهم، وعلى من كان ساكناً منهم بـ (تيماء)، فقتلوهم، وكان ذلك في عهد ملكهم (الأرقم ابن أبي الأرقم ولم يترك الإسرائيليون منهم أحداً، وسكن اليهود في مواضعهم).

والحق أني لا أجد لهذه الروايات سنداً تعتمد عليه، مهما تضافر عليها المؤرخون، لأن موسى ـ قطعاً ـ كان قبل داود وبالتالي لا بدّ أن يكون العماليق قد سكنوها قبل (صعل وفالج) إذا صح أن الذي غزاهم وأخرجهم هو داود ـ عليه السلام ـ ولم أرَ مِنَ المؤرخين من تنبه لهذا سوى السمهودي، ويبدوا أنه لم يتنبه للخطأ، بل تنبه فقط إلى أن داود كان بعد موسى ـ عليهما السلام ـ حيث ذكر ذلك ولم يشر إلى خطأ التقديم بشيء، فإنه بعد أن ذكر أن أول من سكن المدينة (صعل وفالج) مسنداً ذلك لابن زبالة قال: قلت: وداود بعد موسى ـ عليهما السلام ـ وكان يدعو إلى شريعته.

ونحن لا نستطيع أن نقول مع القائلين بأن أول من سكن يثرب بعد غرق قوم نوح هم (صعل وفالج) لما ثبت من خطأ هذا الرأي، وإن أجمع عليه المؤرخون.

٢ ـ عبيل

ولكنا نقول: إن أول من سكنها واختطها هو (يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل).

ويثرب هذا هو الذي سميت يثرب باسمه، وعلى هذا يكون أول من

سكنها هم قوم من عبيل، ولكن من عبيل هذا؟

يقول ابن سعد: (عاد وعبيل ابنا عوض بن إرم بن سام بن نوح)[1] ويقول العصامي: (عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام)[2] ويروي السمهودي عن الكلبي الذي أسند الخبر إلى ابن عباس (أن عادا وعبيلا ابنا عوض بن إرم بن سام[3] وإلى هنا يقف المؤرخون، فلا يذكرون شيئاً عن عبيل إلا نتفاً قصيرة وسريعة لا تشفي صدر من يبحث عن حقيقتهم ولا تشبع رغبة المستقصي، من ذلك ما ذكره بعض المؤرخين من أن العماليق قد أغاروا على يثرب، فأخرجوا منها عبيلا، وذهب هؤلاء إلى موضع وأقاموا فيه، فجاء سيل عارم فاجتحفهم، فذهب بهم وهلكوا، وسمي الموضع (بالجحفة)[4]. على أن عبيلا نفسه لم يسكن يثرب، ولكن الذي اختطها وسكنها منهم هو الجيل الرابع، فقد اجمع المؤرخون الذين تعرضوا لذكر ذلك على أن الذي اختط يثرب هو (يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم ابن عبيل) مع اختلاف في الأسماء ويذكرون أن هذا الجيل من عبيل هم الذين عمروا يثرب، واتخذوا بها الدور، والآبار والبساتين، ويروون في ذلك شعراً:

عين جودي على عبيل وهل	يرجع ما فات فيضها بانسجام
عمروا يثربا وليس بها	سفر ولا سارح ولا ذو سنام
غرسوا لينها ببحر معين	ثم حفوا الفسيل بالآجام[5]

وهذا هو كل ما نستطيع أن نقوله عن عبيل، فهم من أبناء سام بن نوح - عليه السلام - وهم من العرب البائدة الذين بادوا في سالف الأزمان، ويذكر العصامي، حديث تبلبل الألسنة، وسببه، واختلاف الناس في لغة التخاطب بعد أن كانوا على لسان واحد، ثم يقول: (وانحازت طائفة منهم ألهمها الله

---

(١) الطبقات جـ ١ ق ١ ص ١٩.
(٢) سمط النجوم (١/١٢٨).
(٣) وفاء الوفا (١/١٥٦).
(٤) المفصل (١/٣٤٣)، عمدة الأخبار ص ٣٣، شمط النجوم ١/١٢٨، معجم البلدان ٣/٦٢.
(٥) سمط النجوم ١/١٢٨.

العربية، فتكلموا بها، فأولئك الذين يقال لهم العرب: وهم العرباء من خصوص بن سام بن نوح، فمنهم، عاد وعبيل، وثمود وجديس، وطسم وعمليق[1].

وما عدا ذلك، فلا نعرف عنهم شيئاً، فنحن لا نعرف عن النظام الداخلي لهم، ولا عن وضعهم الاجتماعي. ولا نعرف كيف كانت صلتهم بغيرهم ممن عاصرهم، وعاشرهم شيئاً، كل ما نستطيع أن نقول به أخذاً مما أورده السمهودي والعصامي من الشعر الذي رثوا به أنهم كانوا يعتمدون على الزراعة في حياتهم الاقتصادية فالسمهودي يروي قول الشاعر:

غـرسـوا لينهـا بمجرى معين ثم حفـوا النخيـل بـالآجـام

والعصامي يروي نفس البيت مع اختلاف في بعض الكلمات، فيقول:

غـرسـوا لينهـا ببحـر معـين ثم حفـوا الفسيـل بـالآجـام

يقول الدكتور جواد علي: (وعبيل مثل أميم، لا نعرف من أمرهم غير نتف ذكرها الأخباريون الذين زعموا أنهم إخوان عاد بن عوض، أو إخوان عوض ابن إرم وأنهم لحقوا بموضع (يثرب) حيث اختطوا (يثرب) وكان الذي اختطها منهم رجل يقال له: (يثرب بن باثلة بن مهلهل بن عبيل) ثم أن قسماً من العماليق انحدروا إلى يثرب فأخرجوا منها عبيلا، فنزلوا موضع الجحفة، فأقبل سيل فاجتحفهم، فذهب بهم، فسميت الجحفة[2].

٣ ـ العماليق

وممن سكن المدينة بعد عبيل العماليق، وهم أولاد عمليق بن لاوذ ابن سام بن نوح[3] أو هم بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح ـ عليه

(١) المصدر نفسه ص ١٣٢/١٣١.
(٢) المفصل (٣٤٣/١).
(٣) معجم البلدان (٤٦١/٤).

السلام[1] - على اختلاف بين المؤرخين في نسبهم، ولكنهم يلتقون جميعاً عند سام بن نوح.

والعماليق عرب خلص من العرب البائدة، ويقال أنهم أول من تكلم باللسان العربي حين ارتحلوا من بابل حتى قيل لهم: (العرب العاربة)[2] ويبدو أنهم كانوا ضخام الأجسام، كما يدل عليه الإسم.

يقول الأستاذ فؤاد حمزة: (العمالقة قبائل عربية بائدة، يضرب بأفرادها المثل بكبر الأجسام)[3] ويكاد يتفق المؤرخون أن العمالقة كانوا منتشرين في أنحاء الجزيرة المختلفة بل وجاوزوها إلى الشام حتى قالوا: إن جبابرة الشام - الكنعانيين - من العماليق، وفراعنة مصر كذلك من العماليق.

يقول الطبري: (عمليق أبو العماليق كلهم، وهم أمم تفرقت في البلاد، وكان أهل المشرق، وأهل عمان، وأهل الحجاز، وأهل الشام، وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، ومنهم كانت الفراعنة بمصر، وكان أهل البحرين وأهل عمان منهم أمة يسمون (جاسم) وكان ساكنوا المدينة منهم بنو هيف، وسعد بن هزان وبنو مطر، وبنو الأرزق منهم، وأهل نجد منهم، وبديل وراحل وغفار، وأهل تيماء منهم، وكذلك ملك الحجاز منهم[4].

وزعم ياقوت أنهم أول من زرع بالمدينة، واتخذ بها النخل، وعمر بها الدور والآطام واتخذ بها الضياع[5] ولا نسلم مع ياقوت بصحة هذا القول، حيث ثبت أنهم لما دخلوا يثرب وجدوا فيها عبيلاً فأخرجوهم منها، وسكنوا في مساكنهم. ويقول ياقوت: (وكان ساكنوا المدينة منهم بنو هيف وسعد ابن هفان، وبنو مطرويل، وكان بنجد منهم بنو بديل بن راحل وأهل تيماء

---

(١) المفصل (ص ٣٤٥).
(٢) الطبري (١/٢٠٧ - ٢٠٨).
(٣) قلب جزيرة العرب ص ٢٢٤.
(٤) تاريخ الأمم (١/١٠٣).
(٥) معجم البلدان (٤/٤٦١).

ونواحيها، وكان منهم ملك الحجاز الأرقم بن أبي الأرقم[1].

ويبدو أن حياة العماليق لم تكن حياة استقرار، بل كانت حياة كر وفر، ومعارك وخصومات، فقد استعبدوا، أقباط مصر، وحكموا الوجه البحري فترة طويلة، كما دخلوا مع الإسرائيليين في معارك عديدة، فكانوا هم أول من قابل بني إسرائيل عقب خروجهم من مصر، وأغاروا على بلادهم حتى أقلقوهم، وتمكنوا من احتلال (أريحا وغزة)[2]. ولقد دخل ملك الإسرائيليين ـ شاؤول، في معارك مع العماليق، حيث جهز جيشاً من اليهود وغزا به ديار العمالقة ودمر أكثرها ومع ذلك ظل العمالقة مصدر قلق لملوك إسرائيل، وقاعدة لغزو أرض اليهود حتى زمن الملك داود، ثم كانت نهايتهم على يد قبيلة شمعون التي أبادتهم عن آخرهم[3].

هذا هو كل ما نعرفه عن العماليق ولا نستطيع من خلال هذه المعرفة السطحية أن نتعرف على أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. ولكننا نستطيع أن نفهم من دخولهم مصر واستعبادهم للأقباط فيها[4] أنهم لم يكونوا يدينون بديانة أهل مصر ـ عبادة الشمس أو العجل أو بعض الفراعنة ـ كما نستطيع أن نؤكد أنهم ليسوا يهوداً، وإلا لما أعتدوا على اليهود في ديارهم، وأقلقوهم، حتى اضطر اليهود أن يرفعوا أمرهم لموسى ـ عليه السلام ـ وبالتالي لما جهز لهم موسى جيشاً يقاتلهم، وظل يقاتلهم حتى أبادهم، واحتل الإسرائيليون يثرب التي كانوا يقيمون فيها وأقاموا بها[5].

ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نحدد الديانة التي كانوا يؤمنون بها، لأنه يحتمل أن يكونوا وثنيين حيث كانت إقامتهم الأصلية في العراق، وأهل العراق كانوا يعبدون النجوم والقمر والشمس، وفريق آخر كان يعبد الأصنام،

---

(١) معجم البلدان (٤/٤٦١).

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٢٦.

(٣) قلب جزيرة العرب ص ٢٢٦.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٧.

(٥) الروض الأنف (٤/٢٩٠).

لأن ذلك كان في عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان خروجهم من العراق في عهد نمروذ، قال ابن خلدون: (كانت مواطن العمالقة تهامة من أرض الحجاز، فنزلوها أيام خروجهم من العراق أمام النماردة من بني حام)[1] كما يحتمل أن تكون لهم ديانة أخرى ـ إذ لا يمكن القطع بشيء من ذلك كما لا يمكن القطع بأحوالهم الأخرى.

والعجيب أن التوراة لم تذكر أصلهم ولا نسبهم، ولم تتعرض لهم، ولعل ذلك محاولة لطمس حقيقة العماليق، والسكوت عليهم حتى يضيع تاريخهم، والسبب في ذلك أن العماليق دوخوا الإسرائيليين، واعتدوا عليهم، وغزوا ديارهم واحتلوا أريحا وغزة، وكبدوهم خسائر فادحة، وأدخلوا الرعب في نفوسهم.

والتوراة وإن لم تتعرض لأصلهم ونسبهم ولكنها ذكرتهم وذكرت ما كان منهم، بصورة حاقدة غاضبة، تدل على مقدار غيظهم منهم، وتحريضهم عليهم، يقول الدكتور جواد علي (ويتجلى هذا الحقد في الآيات التي قالها النبي (صمويل) لشاؤول أول ملك ظهر عند العبرانيين، قالها لهم باسم إسرائيل: (إياي أرسل الرب لمسحك ملكاً على شعب إسرائيل والآن فاسمع صوت كلام الرب، هكذا يقول رب الجنود، إني افتقدت ما عمل عمليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر، فالآن اذهب واضرب عمليق، واحرمه كل ماله، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً) وهذا الحقد هو الذي جعلهم يخرجونهم من قائمة النسب التي تربطهم بالساميين)[2].

ويبدو انهم ـ العماليق ـ كانوا يعتمدون في معيشتهم في يثرب على الرعي والزراعة ونستدل لذلك بأمرين **أولاً**: تَخَصُّب الأرض هناك، وكثرة مياهها، **وثانياً**: للنص الذي ورد في التوراة من الأمر بقتل بقرهم وغنمهم، وإبلهم وحميرهم.

---

(١) ابن خلدون (٢/٢٧).

(٢) المفصل (١/٣٤٧).

٤ ـ اليهود

لقد سكن اليهود يثرب من قديم الزمان وأقاموا بها حتى دخلها الإسلام وقد رويت روايات كثيرة ذكرها المؤرخون في سبب دخول اليهود المدينة، واتخاذها مقراً لهم، نذكرها هنا كما ذكرها المؤرخون، ثم نناقشها في ضوء الأحداث التاريخية في ذلك الزمان، فنثبت منها مايتفق والواقع التاريخي، وننفي ما لا يكون كذلك.

الأولى: ذكر المؤرخون أن أول سكنى اليهود الحجاز ويثرب، كان في عهد موسى ـ عليه السلام ـ ومن هؤلاء ابن زبالة، وابن النجار، والسهيلي وياقوت، وغيرهم.

وكلهم متفقون تقريباً على أن العماليق كانوا يسكنون يثرب، وأنهم بغوا وطغوا، وعتوا عتواً كبيراً، وأن موسى ـ عليه السلام ـ بعث بعثاً من بني إسرائيل، فقاتلوهم، حتى أفنوهم وأقاموا في يثرب منذ ذلك الوقت، ونكتفي برواية ابن زبالة التي تقص هذا المعنى. حيث يقول: (كانت العماليق قد انتشروا في البلاد، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله وعتوا عتواً كبيراً، فلما أظهر الله موسى ـ عليه السلام ـ على فرعون، وطىء الشام وأهلك من بها، يعني من الكنعانيين ـ وقيل بعث إليهم بعثاً، فأهلك من كان بها منهم، ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز للعماليق، وأمرهم ألا يستبقوا أحداً منهم بلغ الحلم، فقدموا عليهم، فأظهرهم الله، فقتلوهم، حتى انتهوا إلى ملكهم الأرقم بن أبي الأرقم فقتلوه وأصابوا ابناً له ـ وكان شاباً من أحسن الناس ـ فضنوا به عن القتل، وقالوا: نستحييه حتى نقدم به على نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ فيرى فيه رأيه، فأقبلوا وهو معهم، فقبض الله موسى قبل قدوم الجيش، فلما سمع بهم الناس تلقوهم، فسألوهم، فأخبروهم بالفتح وقالوا: لم نستبق منهم إلا هذا الفتى، فإنا لم نرَ شاباً أحسن منه، فتركناه حتى نقدم على نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ فيرى فيه رأيه، فقالت لهم بنو إسرائيل: إن هذه لمعصية منكم لما خالفتم أمر نبيّكم، لا والله لا تدخلون علينا بلادنا أبداً، فقال الجيش: ما بلد إذ منعتم بلادكم بخير من البلد الذي خرجتم

منه، وكان الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد الله، وأظهره ماءً، قال: وكان هذا أول سكنى اليهود بالحجاز بعد العماليق[1].

ويروي الزبير بن بكار عن محمد بن الحسن بن زبالة، ويسنده هذا إلى جابر بن عبد الله مرفوعاً (أقبل موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ حاجين، فمرا بالمدينة، فخافا من يهود فخرجا مستخفيين، فنزلا لحدا، فغشى هارون الموت، فقام موسى، فحضر له، ولحده، ثم قال: يا أخي إنك تموت، فقام هارون فدخل لحده فقبض، فحفى عليه موسى التراب)[2].

ويعلق السمهودي على هذا فيقول وإسناد بن شبة لا بأس به، غير أن فيه رجلاً لم يسم، وسماه ابن زبالة، وذلك المسمى لا بأس به أيضاً، لكن ابن زبالة لا يعتمد عليه في ذلك، ثم قال: (وهو دالٍ على أن اليهود نزلوا المدينة في زمن موسى ـ عليه السلام ـ وطالت مدتهم بها في حياته، حتى وقع منهم ما يقتضي خوفه منهم عند مروره[3].

وأما السهيلي، فإنه يذكر السبب الذي من أجله بعث موسى ـ عليه السلام ـ هذا البعث، فيقول: (إن السبب في كون اليهود بالمدينة ـ وهي وسط أرض العرب ـ أن بني إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة، فشكت بني إسرائيل ذلك إلى موسى، فوجه إليهم جيشاً. . . الخ)[4].

وهذه الروايات مجتمعة تدل على ما يأتي:

١ ـ إن العماليق كانوا يسكنون الحجاز معاصرين لموسى ـ عليه السلام ـ.
٢ ـ وأنهم كانوا يغيرون على بلاد الإسرائيليين، ويعتدون عليهم.
٣ ـ إن بني إسرائيل شكوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ اعتداء العماليق عليهم.

(١) أخبار المدينة (مخطوط).
(٢) عمدة الأخبار ص ٣٥.
(٣) وفاء الوفا (١/١٦٢).
(٤) الروض الأنف (٤/٢٩٠).

٤ ـ وإن موسى أرسل جيشاً قاتل العماليق، وأفناهم عن آخرهم.
٥ ـ وإن بني إسرائيل سكنوا يثرب بعد قتل العماليق، لما منعهم قومهم من دخول بلادهم.

أما الأمران الأولان فلا خلاف عليهما وأما الثلاثة الباقية فهي التي فيها المناقشة بين المؤرخين.

فالسهيلي يعقب بعد ذكر القصة مستبعداً أن يكون بنو إسرائيل قد دخلوا يثرب والحجاز في عهد موسى عليه السلام. ثم قال: وأصح من ذلك ما ذكره الطبري أن نزول بني إسرائيل بالحجاز كان حين وطىء «بختنصر» بلادهم بالشام وخرب بيت المقدس[1].

وأرى أن السهيلي عندما استبعد دخول بني إسرائيل الحجاز في زمن موسى ـ عليه السلام ـ لم يعتمد على دليل يمكن أن يقنع في الموضوع، واكتفى ببعد العهد فقط، وذلك لا يكفي في تأييد الدعوى.

وإننا لنرى ابن خلدون يقرر أن مواطن العماليق تهامة من أرض الحجاز وأنهم نزلوها لما اضطهدهم النماردة في العراق، ولم يزالوا مقيمين فيها ـ تهامة ـ إلى أن جاء إسماعيل ـ صلوات الله عليه ـ وآمن به من آمن منهم، واطرد فيهم الملك، حتى أخرجتهم جُرْهُم من الحرم، فنزل بعضهم بمكان يثرب.

وقد ورد في التوراة أن أول من قابل بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر قبيلة العماليق[2] والذي يفهم من هذا أن هذه المعارك الطاحنة التي دارت بين العماليق وبين الإسرائيليين قديمة، وأنها كانت في عهد موسى ـ عليه السلام ـ حيث كان خروجهم من مصر على يد موسى، وإذا كان العمالقة موجودين في هذا التاريخ، وإذا كان العماليق قد دخلوا في معارك مريرة مع بني إسرائيل، فما الذي يمنع أن يشكوا بنو إسرائيل لموسى فعل

(١) الروض الأنف (٤/ ٢٩٠).
(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٢٦.

العمالقة؟ وما الذي يمنع أن يكون موسى أراد تأديبهم، وكفهم عن قومه، فأرسل إليهم هذا الجيش ليحاربهم ويكفهم؟.

لا مانع إذن أن يكون إخراج العماليق من يثرب حدث في عهد موسى، وأن يكون الإسرائيليون قد استوطنوا المدينة من ذلك الحين.

الثانية: وهي رواية رزين عن أبي المنذر الشرقي قال: سمعت حديث تأسيس المدينة من سليمان بن عبيد الله بن حنظلة الفسيل قال: وسمعت أيضاً بعض ذلك من رجل من قريش عن أبي عبيدة بـن عبد الله بن عمار ابن ياسر، قال: فجمعت حديثهما، لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه، قالا: بلغنا أنه لما حج موسى ـ صلوات الله عليه ـ حج معه أناس من بني إسرائيل فلما كان في انصرافهم آتوا على المدينة، فرأوا موضعها صفة بلد نبي يجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين فاتـورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به فنزلوا في موضع سوق بني قينقاع، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم فكانوا أول من سكن موضع المدينة[١].

وهذه الرواية تدل على أن اليهود سكنوا المدينة في عهد (موسى) إلا أنها لا تقول بالمعارك التي دارت بين اليهود والعماليق قبل دخول المدينة، وتنص على أن الذي رغبهم في سكنها هو أنهم وجدوا صفتها صفة بلد النبي العربي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، فرغبوا في أن يعيشوا فيها حتى أذا ظهر آمنوا به، وانتصروا على أعدائهم.

وأما قوله في هذه الرواية: (فكانوا أول من سكن موضع المدينة) فالمراد أول من سكنها من اليهود، حيث قد ثبت أن عبيلا والعماليق كانوا قد سكنوها قبل اليهود.

ويقول ابن النجار: (إن اليهود كانوا يجدون في التوراة أن نبياً يهاجر من العرب إلى بلد فيه نخل بين حرتين فأقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد.

(١) وفاء الوفا (١/١٥٧).

فنزلت طائفة بتيماء وتوطنوا نخلاً، ومضت طائفة، فلما رأوا خيبر ظنوا أنها البلدة التي يهاجر إليها، فأقام بعضهم بها، ومضى أكثرهم وأشرفهم، فلما رأوا يثرب سبخة وحرة ونخلاً قالوا: هذا البلد الذي يكون له مهاجر النبي، فنزلوه)[١].

وهذه الرواية كسابقتها توضح أن اليهود قصدوا يثرب لأنها البلدة التي سيهاجر إليها النبي العربي، ولكنها لم توضح، في عهد من كانت تلك الهجرة إلى يثرب؟ وإن وضحت الجهة التي هاجروا منها وهي بلاد الشام، وذكر الجهة، يؤدي إلى احتمال أنها كانت في عهد موسى عليه السلام أو بعده، حيث لم يستوطن اليهود بلاد الشام إلا بعد خروجهم من مصر في عهد موسى ـ عليه السلام ـ. والذي يغلب على الظن هنا أن هذه الرحلة إلى يثرب كانت بعد موسى، وفي عهد شمعون الذي كان قبل داود ـ عليه السلام ـ أي في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وقد ذكر المؤرخون أنه كان في ذلك العهد هجرة لليهود من الشام إلى الحجاز وأطلقوا عليها (هجرة قبائل شمعون)[٢]. والذي يرجح هذا الرأي عندي أن الرواية التي بين أيدينا لم تذكر موسى ـ عليه السلام ـ وفي نفس الوقت لم تشر إلى العماليق. مما يرجح أنها كانت في فترة خلت فيها يثرب من العماليق، وإنما كان القضاء على العماليق قضاءً تاماً على يد قبيلة شمعون التي أفنتهم واحتلت ديارهم[٣].

الثالثة: ويروي السمهودي رواية أخرى ويسند الرواية إلى بعض أهل السير الذين أسندوها إلى أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: (بلغني أن بني إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بختنصر عليهم، وفرقتهم وذلتهم، تفرقوا وكانوا يجدون محمداً ﷺ منعوتاً في كتابهم، وأنه يظهر في بعض هذه القرى العربية في قرية ذات نخل ولما خرجوا من أرض الشام كانوا

(١) أخبار مدينة الرسول ص ١٣.
(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٥٨.
(٣) نفس المرجع ص ٢٢٦.

يعبرون كل قرية من تلك القرى بين الشام واليمن يجدون نعتها نعت يثرب، فينزل بها طائفة منهم، ويرجون أن يلقوا محمداً فيتبعونه، حتى نزل من بني هارون ممن حمل التوراة بيثرب منهم طائفة فمات أولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمد ـ ﷺ ـ أنه جاء، ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء فأدركه من أدركه من أبنائهم فكفروا به وهم يعرفونه: أي حسداً للأنصار حيث سبقوهم إليه)[1].

وتوضح الرواية هنا الزمن الذي كانت فيه تلك الهجرة، والسبب الحقيقي لها، أن هذه الهجرة وقعت في عهد بختنصر، وفي أيام الغزو البابلي لفلسطين حيث أوقع بختنصر بالإسرائيليين، وأنزل بهم هزائم منكرة وخرب بلادهم، ودمر هيكلهم، وأسر أكثرهم وساقهم إلى بابل، وقد نشأ عن ذلك أن تفرق بنو إسرائيل في البلاد ورأى بعضهم أن يتوجه إلى يثرب، لأنها كانت مذكورة في التوراة ومعلوم أنها ستكون مهاجر نبي يبعث في آخر الزمان، فالسبب الحقيقي هنا هو الضغط البابلي على اليهود الذي اضطرهم إلى التفكير في ترك بلادهم واستيطان شمال الحجاز[2].

الرابعة: يقول ياقوت: (إن الروم ظهروا على الشام، فقتلوا من بني إسرائيل خلقاً كثيراً فخرج بنو قريظة والنضير وهدل هاربين من الشام يريدون الحجاز الذي فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم، فلما فصلوا من الشام، وجه ملك الروم في طلبهم من يردهم، فأعجزوا رسله، وفاتوهم، وانتهى رسل الروم إلى ثمد بين الشام والحجاز فماتوا عنده عطشاً، فسمي الموضع ثمد الروم، فهو معروف بذلك إلى اليوم)[3].

ونلاحظ أن هذه الرواية تختلف في سببها، وزمنها عن سابقتها، فأما سببها فهو الهزيمة التي مني بها اليهود على يد الروم، والخسائر الفادحة التي أصابتهم في الأموال والأرواح، مما جعل بني إسرائيل يفكرون في اللجوء

(١) وفاء الوفا (١/١٦٠/١٦١).
(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٥٨.
(٣) معجم البلدان (٤/٤٦٢).

إلى الحجاز ليعيشوا مع اليهود الذين كانوا يسكنون هذه البلاد.

وأما زمنها فقد كان في عهد الرومان في القرن الميلادي الأول، وعلى يد القائد الروماني هيلس الذي أمر بإغراق عدد كبير من اليهود في بحيرة لوط في عام ٧٠ من الميلاد[1].

عدد هجرات اليهود

يميل كثير من المؤرخين إلى أن الهجرات اليهودية إلى جزيرة العرب ثلاث:

الأولى: هجرة قبائل شمعون في أواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

الثانية: الهجرة أمام الزحف البابلي على القدس في أوائل القرن السادس قبل الميلاد.

الثالثة: الهجرة أمام الغزو الروماني في القرن الأول الميلادي عام ٧٠ من الميلاد.

وهذه الهجرات الثلاث يوافق عليها جميع المؤرخين، ولا ينكرون شيئاً منها، وإنما الخلاف بينهم في هجرة اليهود أيام موسى ـ عليه السلام ـ وهي التي يعتبرها القائلون بها أول دخول بني إسرائيل إلى جزيرة العرب، على أن بعض المؤرخين لا يقول بذلك، ويستبعد أن يكون الإسرائيليون قد دخلوا جزيرة العرب في عهد موسى، ولم أجد لهم دليلاً كما قدمت يستندون عليه في إنكارهم لهذه الهجرة إلا ما قال السهيلي من بعد العهد بعصر موسى ـ عليه السلام ـ وهو لا يصلح دليلاً أمام الروايات التي قالت بالهجرة، وأمام ذكر التوراة ـ كتاب الإسرائيليين المقدس ـ للمعارك الدامية والعنيفة التي كانت بينهم وبين العماليق سكان الجزيرة في هذا الزمان، وهي التي يعتبرها المؤرخون السبب في غزو العماليق ودخول اليهود إلى جزيرة العرب.

---

(١) قلب جزيرة العرب ص ٢٥٩.

وحيث لا يوجد دليل يمكن الاعتماد عليه في ترجيح عدم الهجرة، فإننا نستطيع أن نثبت هجرة رابعة، وإن كانت هي الأولى في الحقيقة، وهي هجرة اليهود في عهد موسى ـ عليه السلام ـ وبعد نجاتهم من ظلم فرعون.

وعلى هذا يمكن القول بأن هجرات بني إسرائيل إلى جزيرة العرب كانت أربع هجرات، وفي أربع مراحل على النحو الآتي:

الأولى: في عهد موسى ـ عليه السلام ـ سواء كانت بغزو العماليق، وإخراجهم من يثرب، وسكن اليهود فيها، أو كانت بتخلف بعض من حج مع موسى ليقيموا في البلد الذي بشرتهم التوراة بأنها ستكون مهاجر نبيّ آخر الزمان.

ويبدو أن إقامة بني إسرائيل في يثرب هذه المرة، وفي البلدان المجاورة لها لم تدم، حيث يروي أن العماليق ثاروا على اليهود الذين ساكنوهم الحجاز، وشددوا الضغط عليهم، حتى استنجدوا بموسى ـ عليه السلام[1] .

والذي يرجح هذا عندي سكوت بعض المؤرخين عن ذكر تلك الهجرة[2]، وإن كان ذلك لا يدل على عدم حصولها[3]، لاحتمال أنها لم تبلغهم، وذكر بعضهم لها مع التعليق عليها باستبعاد حصولها، وذلك أيضاً لا ينفيها لعدم وجود الأدلة التي يعتمد عليها في نفي تلك الهجرة.

ويفهم من هذا توفيقاً بين الروايات أن هذه الهجرة حصلت بالفعل، ولكنها لم تدم، لهذا أهملها بعض المؤرخين، والذي أرجحه في ترتيب هذه الهجرة أنها وقعت على النحو الآتي:

الأولى: تخلف بعض من حج مع موسى عليه السلام وسكنوا يثرب وظلوا بها حتى اشتد العداء بينهم وبين العماليق، فاستغاث بنو إسرائيل

(١) المدينة بين الماضي والحاضر ص ١٥.
(٢) ممن سكت عن ذكرها الطبري.
(٣) مثل السهيلي وابن خلدون.

بموسى، فأرسل جيشاً قاتل العماليق، وقتل كل من بلغ الحلم منهم، ثم عادوا إلى بلادهم وعند عدم السماح لهم بدخول بلادهم وعودتهم إلى الحجاز، يكونون قد سكنوا مواطن أخرى غير يثرب.

الثانية: هجرة قبائل شمعون، وهذه كانت بعد القضاء على العماليق، واحتلال البلاد التي كانوا يسكنونها، وكانت هذه الهجرة من فلسطين إلى شمال الحجاز وفي نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد تقريباً.

وهذه الهجرة هي المذكورة في رواية ابن النجار (وهم ـ أي اليهود ـ يجدون في التوراة أن نبياً يهاجر من العرب إلى بلد فيه نخل بين حرتين، فأقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد، فنزل طائفة بتيماء، وتوطنوا نخلا، ومضت طائفة، فلما رأوا خيبر ظنوا أنها البلدة التي يهاجر إليها، فأقام بعضهم بها، ومضى أكثرهم وأشرفهم، فلما رأوا يثرب سبخة وحرة ونخلاً قالوا: هذا البلد الذي يكون مهاجر النبي إليه فنزلوه)[1].

والذي يؤكد هذا، ويرجح أن هذه الرواية تشير إلى تلك الهجرة، خلوها من ذكر العماليق حيث كانوا قد قضي عليهم على يد هذه القبائل (وكانت آخرتهم على يد قبيلة شمعون التي قتلتهم عن آخرهم، واستولت على ديارهم)[2].

كما أنها تدل على اطمئنان بني إسرائيل عند دخولهم جزيرة العرب، فكانوا يرتادون ويختارون، الأماكن التي نزلوا بها مما يدل على عدم وجود معارضة لهم عند دخولهم، ولم يكن لهم ذلك إلا بعد القضاء على العماليق عدوهم اللدود. كذلك لم تشر الرواية إلى الضغط البابلي أو الروماني اللذين كانا سبباً في الهجرتين الآتيتين. لهذا كله يترجح لدينا أن هذه الرواية خاصة بتلك الهجرة.

الثالثة: الهجرة أمام الغزو البابلي المدمر الذي خرب بيت المقدس،

---

(١) أخبار مدينة الرسول ص ١٣.

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٢٦.

وحطم الهيكل وقتل عدداً غير قليل من الإسرائيليين وأسر مثلهم، وكان ذلك في عهد بختنصر الذي حكم بابل من سنة ٦٠٤ ـ ٥٦١ ق. م. وهذه الهجرة ذكرها كثير من المؤرخين بل ويعتبرها بعضهم أول دخول بني إسرائيل إلى الجزيرة العربية.

الرابعة: الهجرة أمام العدوان الروماني الذي دمر مقدسات اليهود واحتل بلادهم وكان على يد القائد الروماني إقليطس في عام ٧٠ من الميلاد. وهذه الهجرة مشهورة شهرة سابقتها، وذكرها كثير من المؤرخين، والرواية التي ذكرتها ذكرت بوضوح أن بني إسرائيل خرجوا من بلادهم يطلبون الحجاز هاربين من بطش الروم، ليسكنوا مع من كان بالحجاز من بني إسرائيل.

لماذا الهجرة إلى جزيرة العرب؟

المعروف عند المفسرين أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ وإسرائيل معناها عبد الله، وعلى هذا يكون بنو إسرائيل هم ذرية يعقوب ـ عليه السلام ـ.

وقد كان يعقوب يسكن بادية فلسطين وظل مقيماً بها، حتى ذهب إلى مصر تلبية لدعوة يوسف ـ عليه السلام ـ عندئذٍ ذهب وأهل بيته جميعاً، فأقاموا بمصر حتى خرجوا منها في عهد موسى ـ عليه السلام ـ.

يقول ابن جرير: (حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: كان منزل يعقوب وولده فيما ذكر لي بعض أهل العلم، بالعربات من أرض فلسطين، ثغور الشام)[١].

وقال الشوكاني: (وقد أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: دخل يعقوب مصر في ملك يوسف وهو ابن مائة وثلاثين سنة، وعاش في ملكه ثلاثين سنة)[٢].

---

(١) تفسير الطبري (٢٧٥/١٦).

(٢) فتح القدير (٥٧/٣).

ولما طغى فرعون، واستعبد بني إسرائيل، فقتل أبناءهم واستحيا نساءهم، أرسل الله إليهم موسى ـ عليه السلام ـ ليخرجهم من مصر، ويخلصهم من فرعون، فجعل الله لهم طريقاً في البحر يبسا، ونجى الله موسى وبني إسرائيل معه، وأغرق فرعون وقومه فكانت إقامة بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر في أرض سيناء، ثم أمرهم موسى ـ عليه السلام ـ أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم دخولها، ولكنهم جبنوا وخافوا من سكانها الجبارين، وقالوا: لن ندخلها أبداً ما داموا فيها[1]، عندئذٍ حرم الله عليهم دخول مدينة الجبارين، وعاقبهم فحكم عليهم بالضياع في التيهِ أربعين سنة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾[2].

يقول ابن كثير: (دخل بنو إسرائيل البرية عند سيناء في الشهر الثالث من خروجهم من مصر، وكان خروجهم في أول السنة التي شرعت لهم، وهي أول فصل الربيع، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف)[3].

ثم كانت إقامة بني إسرائيل بعد انقضاء فترة التيه في مدينة الجبارين في أرض الشام والناظر إلى موقع الأرض التي كان يقطنها بنو إسرائيل يرى أنها كانت محاطة بالأعداء فالبابليون إلى الشرق من بلاد الشام، والأشوريون إلى الشمال منها، والبحر إلى الغرب، ولم يكن هناك طريق مفتوح سوى الجنوب ـ أي إلى شبه جزيرة العرب ـ.

فكانوا في الهجرة الأولى يطلبون الحجاز ويثرب بالذات، رغبة في سكنى المدينة التي يهاجر إليها الرسول محمد ـ ﷺ ـ أما في الهجرات التي وقعت تحت ضغط، فلم يكن بد من جزيرة العرب، حيث لا سبيل إلى مكان آخر يلجأون إليه.

يقول البلاذري: (لما هدم بختنصر بيت المقدس، وأجلى من أجلى،

---

(١) المائدة: ٢٤.

(٢) المائدة: ٢٦.

(٣) البداية والنهاية (١/ ٢٨٠).

وسبى من سبى من بني إسرائيل، لحق قوم منهم بناحية الحجاز فنزلوا وادي القرى، وتيماء ويثرب)[1].

ثم إن جزيرة العرب كان يسيطر عليها النظام القبلي الحر الذي يمكن لليهود أن يعيشوا في رحابه آمنين، وبخاصة إذا حالفوا إحدى القبائل، ونزلوا إلى جوارها.

كما كانت جزيرة العرب بطبيعتها الصحراوية بعيدة عن متناول أيدي أي قوات نظامية، حيث تعوق الرمال سير القوات وتحول بينها وبين التوغل في هذه البلاد.

لا شك أن هذه المزايا تشجع الذين ينشدون الأمن والاستقرار على التوجه إلى هذه البلاد واتخاذها مقراً يجدون فيه راحتهم وطمأنينتهم. وإني أعتقد أن بني إسرائيل لم يكن لهم بدّ من التوجه إلى جزيرة العرب، حتى ولو لم يكن لها هذه المزايا، لأنهم كانوا مضطرين إلى ترك بلادهم تحت الضغوط التي فرضت عليهم الهجرة، والفرار من بلادهم، حيث لم يكن لهم في هذه الفترة مكان يأوون إليه كما ذكرت، فالبحر من أمامهم، والبابليون من خلفهم والأشوريون من فوقهم فأين يفرون إذن؟

لا بدّ أن يكون الفرار إلى الجنوب إلى جزيرة العرب وعليهم أن يوجدوا فيها الظروف المناسبة إذا لم تكن موجودة، وقد كان.

منازل بني إسرائيل في يثرب:

إن أهم ما دعا الإسرائيليين إلى الإقامة في يثرب واتخاذها وطناً يسكنونه، ومأوى يفيئون إليه، هي بشرى التوراة لهم بنبوءة محمد ـ ﷺ ـ وإنه سيهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين، لم يكن الإسرائيليون يعتقدون أنها المدينة وإنما كانوا يأملون ذلك في كل بلد يتصف بهذه الصفة، ولهذا نزل بعضهم بتيماء، ونزل بعضهم بخيبر، ونزل بعضهم بوادي القرى، ونزل

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٩.

الآخرون بيثرب، وكل هذه المناطق ينطبق عليها الوصف، وكل هؤلاء النزلاء كانوا يعتقدون بأنهم بنزولهم تلك البلدة قد أصابوا الهدف. وكان الذين أصابوا الهدف، ووفقوا في القصد هم ساكني يثرب، وكانوا قبائل مختلفة، فمنهم بنو النضير ومنهم بنو قينقاع ومنهم بنو قريظة وكانت تجاورهم وتعيش معهم بطون مختلفة أيضاً من اليهود.

وإننا لنلاحظ أن هؤلاء قد انتشروا في يثرب، ولم يقيموا جميعاً في منطقة واحدة منها فقد استوطن بعضهم وادي مذينيب ـ وهو وادٍ من أودية المدينة ـ واستوطن بعضهم وادي مهزور وهو وادٍ أيضاً من أودية المدينة ـ ونزل الآخرون بموضع سوق سمي باسمهم. فأما الذين استوطنوا مذينيب هم بنو النضير[1] وأما الذين أقاموا بمهزور فهم بنو قريظة[2] وأما أصحاب موقع السوق فهم بنو قينقاع وسمي الموقع بسوق بني قينقاع[3]. وكأنهم أرادوا بهذا الانتشار في المدينة أموراً قد خططوا لها من قديم الزمان نجملها فيما يلي:

١ ـ **الناحية السياسية**: لقد أفادهم تفرقهم هذا من الناحية السياسية فائدة كبيرة، حيث كانوا لا يظهرون بمظهر المتكتلين أمام السكان الأصليين، وعندئذٍ لا تثور ثائرتهم، ولا يتحرشون بهم، فيعيشون آمنين على مستقبلهم، غير متعرضين للفتن والقلاقل، كما أن تفرقهم هذا مكنهم من محالفة قبائل متعددة، الأمر الذي لا يتيسر لهم لو كانوا كتلة واحدة ولقد مكنهم تحالفهم مع القبائل من حرية الحركة والعمل، فبنوا الآطام، وشيدوا الحصون، واتخذوا البساتين، ونشطوا في الأسواق مما كان له أكبر الأثر في الناحيتين العسكرية والاقتصادية كما سنبينه بعد.

وكما أن انتشارهم هذا مكنهم من محالفة قبائل متعددة، فقد أوجد لهم نفوذاً هائلاً، تسلطوا بواسطته على مقاليد الأمور في يثرب، حتى آل إليهم

---

(١) أخبار المدينة ص ١٤.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) وفاء الوفاء (١/١٥٧).

أمرها بعد دخولهم إليها بزمن غير طويل وفي نفس الوقت جنبهم ضربة شديدة من عدوهم، حيث لا يستطيع أن يضرب في أنحاء مختلفة في وقت واحد. ولقد اعتمد اليهود في سياستهم على مبدأ إثارة الأحقاد - فرق تسد - حتى يشتغل عدوهم بنفسه ولا يفكر فيهم، وهذا ما حصل، فبدأوا يكثرون ويقلّ عدوهم، ويسيطرون ويضعف جارهم، حتى ملكوا وتسلطوا.

٢ - **الناحية العسكرية**: إن انتشار اليهود في أنحاء يثرب جعلهم في وضع المحاصر لها، وهذا هو الذي يلفت نظر الرجل العسكري عندما يرى خارطة يثرب والأماكن التي سكنها اليهود منها فإننا نلاحظ أن بني النضير نزلوا بأسفل المدينة بين حرة وأقم - الشرقية - وبين مجمع الأسيال مما يلي زغابة[١] وهذه المنطقة تمتد من شرق المدينة الحالية حتى مزرعة الحكومة في شمال المدينة، ثم تتجه غرباً إلى جبل سلع حيث يكون مجمع السيول والتقاؤها، وهو المكان الذي أطلق عليه قديماً اسم يثرب.

وأما بنو قريظة فقد نزلوا بأعلى المدينة، في المنطقة المعروفة الآن بالعوالي، وتمتد منازلهم من الحرة الشرقية إلى قباء إلى جنوبي المسجد الآن وهذا المنزل يقع في الجنوب الشرقي من المدينة، في أقصى منطقة العوالي[٢].

يقول ابن النجار: (وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هدل... فتبعوا آثارهم - فنزلوا بالعلية)[٣].

وأما بنو قينقاع فقد نزلوا في وسط يثرب بين العالية والسافلة، هناك عند منتهى جسر بطحان مما يلي العالية[٤] وقد كانت منازل بني قينقاع محصورة بين الحرة الغربية من الغرب، وحرة مشربة أم إبراهيم من الشرق، كما كانت بين قباء من الجنوب وبين قربان من الشمال.

---

(١) أخبار مدينة الرسول ص ١٤.
(٢) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٥٣٩.
(٣) أخبار مدينة الرسول ص ٤.
(٤) وفاء الوفاء (١/ ١٦٤).

وهكذا أحاط اليهود بيثرب وبقبائلهم الثلاث من أعلاها حيث كان بنو قريظة، ومن أسفلها حيث نزل بنو النضير وفيما حولها من الشرق إلى الغرب كما كان بنو قينقاع.

يقول ابن النجار: (فنزل النضير بمن معه بطحان، فركحوا منها حيث شاءوا يسكن جميعهم زهرة وهي محل بين الحرة ـ يعني الحرة الشرقية ـ وبين السافلة مما يلي القف، وكانت لهم بالسافلة ونزل جمهورهم بمكان يقال له، يثرب بمجتمع السيول (سيل بطحان والعقيق وسيل قناة مما يلي زغابة)[1].

ويقول ابن زبالة: (وسيل مهزور ومصدره حرة شوران ـ أي الحرة الشرقية ـ وهو يصيب في أموال بني قريظة، ثم يأتي بالمدينة فيشقها)[2] والذي يفهم من هذه العبارة أن بني قريظة كانوا يسكنون في الجنوب أي في أعلى المدينة لأن سيل مهزور وهو يأتي من الجنوب الشرقي[3] يمر بهم أولاً ثم ينزل إلى المدينة فيشقها.

لا خلاف بين المؤرخين في أن قريظة نزلت على وادي مهزور في الجنوب الشرقي في أقصى العوالي، ولكن الخلاف بينهم في منزل بني النضير فقد ذكر بعضهم أنهم نزلوا بالسافلة في شمال المدينة، وذكر بعض أخر أنهم نزلوا بالعالية على وادي مذينيب في الجنوب الشرقي أيضاً في موالي المدينة.

ولعل نزول بني النضير بالسافلة في شمال يثرب كان أول قدومهم إليها، ثم عدلوا عن هذا المنزل، وذهبوا إلى الجنوب في عوالي يثرب، وقد ذهب إلى هذا الرأي المجد الفيروز آبادي حيث يروي عن أبي عبيدة فيقول: (إن اليهود لما نزلوا بالمدينة نزلوا بالسافلة فاستوبؤوها، فبعثوا رائداً إلى العالية فرأى بطحان ومهزوراً يهبطان من حرة، ينصب منهما مياه عذبة، فرجع،

---

(١) أخبار مدينة الرسول ص ١٤.

(٢) أخبار المدينة مخطوط.

(٣) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٥٣٨.

فقال: وجدت بلداً طيباً، وأودية تنصب إلى حرة عذبة، فتحولوا فنزل بنو النضير على بطحان، وقريظة على مهزور[1] وإننا لنلاحظ أنهم بنوا الحصون، وسكنوا الآطام في كل مكان حلوا به من جهات يثرب حتى بلغت آطامهم تسعة وخمسين أطماً[2].

على أننا يجب أن نفهم أن تحول بني النضير من السافلة إلى العالية ونزولهم في الجنوب الشرقي ليثرب كان نتيجة بحثهم عن الأماكن الصالحة للإقامة، ولم يكن مجرد تحول لا هدف له، بل كان تحقيقاً لهدفهم الاقتصادي الذي اعتقد أنهم يفضلونه على الهدف العسكري. ولقد كانت نتيجة تلك السيطرة على الوضع الاقتصادي في يثرب ما حققوه من الغلبة عليها، والتحكم والتسلط على السكان، حتى أصبحوا أصحاب الكلمة العليا فيها كما يتضح فيما يأتي:

الناحية الاقتصادية:

لم تكن للناحية العسكرية عند اليهود في يثرب الأهمية التي كانت للناحيتين السياسية والاقتصادية ذلك لأن اليهود بفطرتهم لا يميلون إلى الحرب، ولا يؤيدون أي اتجاه إليها ما داموا سيشاركون فيها، فهم دائماً يؤثرون السلامة، ويفضلون العافية، ويلتمسون الهدوء والاستقرار، ولا يشاركون في حرب إلا وهم مكرهون. أما إذا كان غيرهم هم الذين يصطلون بها ويتلظون بنارها، فهم أول من يسعرها، وينفخ في جمرها، ويصب فوقها النفط والقطران حتى لا تخبو نارها، أو يبرد أوارها.

لهذا لم يكن بدعاً أن يجنح اليهود إلى الاستيلاء على الموارد الاقتصادية التي تمكنهم من التسلط، والتحكم في أرزاق الناس دون معاناة أي جهد عسكري. وإذا ألحت البطون في طلب الطعام عجزت الأيدي عن حمل السلاح، وإذا امتدت الأيدي لطلب المال، تعطل الذهن عن التفكير في الحرام والحلال، وبهذا وحده، يكون اليهود هم سادة الموقف، فلا داعي حينئذٍ للكفاح، ولا مبرر لحمل السلاح.

---

(١) المغانم المطابة (ص ٣٩٨).

(٢) أخبار مدينة الرسول ص ١٤.

ومن أجل هذا نزل اليهود أخصب مناطق المدينة زراعياً وأجودها تجارياً، حيث نزل النضير في الحرة الشرقية على وادي مذينيب، وهو أخصب الأمكنة وأغزر الأودية، بحيث تمكن اليهود من استثمار الأرض واتخاذ البساتين، يقول ابن النجار: (فنزل بنو النضير على مذينيب واتخذوا عليه الأموال)[1] ونزل بنو قريظة على مهزور، وهو لا يقل عن مذينيب خصوبة وغزارة، وكان بنو قريظة أول من حفر به الآبار، وغرس الأشجار، يقول ابن النجار: (ونزل قريظة وهدل على مهزور واتخذوا عليه الأموال ـ البساتين ـ وكانوا أول من احتفر بها الآبار واغترس)[1].

وأما بنو قينقاع فكانوا صناعاً وأحدثوا سوقاً في يثرب عرف باسمهم وكان منزلهم (بزهرة) يقول ابن زبالة: (فكان جميعهم بزهرة، وكانت لهم الأموال بالسافلة)[2] ويصف ابن النجار زهرة فيقول: (وكانت زهرة من أعظم قرى المدينة، قيل كان فيها ثلاثمائة صانع من اليهود)[3].

ويذكر الفيروز آبادي أن هذا السوق يسمى حباشة كثمامة فيقول في مادة حبش: (وكثمامة الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة وسوق تهامة القديم، وسوق أخرى كانت لبني قينقاع)[4].

وبذلك استطاع اليهود في يثرب أن يسيطروا على الناحية الزراعية والتجارية والصناعية وكانت لهم اليد العليا في اقتصاد هـذه البقعة من الأرض، كما استطاعوا سابقاً التغلغل في سياسة البلد فحركوا أهله بما يحقق مصالحهم ويخدم أغراضهم.

ومع ذلك فإننا نلاحظ رغم هذه السيطرة الاقتصادية والتفوق السياسي، أن العرب لم يدخلوا في دين اليهود، ولم يحرص اليهود على ذلك فلماذا؟

(١) أخبار مدينة الرسول ص ١٤.
(٢) أخبار المدينة.
(٣) أخبار مدينة الرسول ص ١٢.
(٤) القاموس المحيط (٢/٢٦٧).

إن اليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، ويعتقدون أنهم شعب الله المختار، وهم حريصون على أن يحتكروا ذلك الحب لأنفسهم، ويقصروا هذه الخيرية على ذواتهم وبني جلدتهم، لهذا لم يحالوا نشر دينهم، ولم يقبلوا مشاركة غيرهم لهم في ديانتهم، يقول لفنسون: (ولا شك أنه كان في مقدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الديني بين العرب حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النيّة على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة، ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الإسرائيلية لم تمل بوجه عام إلى إرغام الأمم على اعتناق دينها، وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود)[1].

ولقد صرح العهد القديم في الإصحاح الرابع عشر بذلك، حيث جاء فيه، وقد كان اليهود يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار من بين شعوب الأرض ولا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزات لشعب آخر ليس منهم.

جنسية يهود الحجاز:

للمؤرخين في جنسية اليهود الذين سكنوا شمال جزيرة العرب رأيان، أحدهما يقول: إنهم قبائل عربية اعتنقت اليهودية، ويرى هؤلاء أن بني النضير وبني قريظة فخذان من قبيلة جذام، وهي قبيلة اشتهرت باعتناق الديانة النصرانية، ومن أشهر أفخاذها (لخم)، فبني النضير وبنو قريظة إذن في الأصل عرب تهودوا، وسكنوا أماكن فسموا بها، فالنضير سموا بذلك لأنهم سكنوا جبلاً يعرف بالنضير[2]. وقريظة كذلك سكنوا جبلاً يعرف بقريظة فسموا باسمه[3].

والثاني يقول: أنهم إسرائيليون نزحوا إلى جزيرة العرب، وعلى الرأي الثاني جمهور مؤرخي العرب، وليس لليعقوبي صاحب الرأي الأول دليل إلا

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٧٣.
(٢) تاريخ العقوبي (٢/٤٩).
(٣) نفسه ص ٥٢.

الأسماء العربية المحضة التي سميت بها القبائل اليهودية، ولكن إسرائيل ولفنسون يتعقب هذا التدليل بما يضعفه ويوهنه، حيث أن اليهود كانوا قد تركوا النسبة إلى قبائلهم، وأخذوا يتسمون بأسماء الأماكن التي سكنوها، والبلاد التي أقاموا بها حتى كان يعرف فلان بالأرشليمي، وفلان بالحبروني[1]

وأما أدلة أصحاب الرأي الثاني فكثيرة وقوية نجملها فيما يأتي:

١ - مخاطبة القرآن الكريم لليهود الحاضرين في زمن رسول الله ﷺ - بصفة العموم، وتذكيرهم بما حدث من أسلافهم في الماضي البعيد، وربطه بالواقع الحديث، فالله - تبارك وتعالى - يخاطب يهود يثرب، فيقول: ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتيَ التي أنعمتُ عليكم، وأني فضلتكُمْ على العالمين، واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعةٌ ولا يؤخذُ منها عدلٌ، ولا هم يُنصرُون، وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونَكُم سوءَ العذاب يُذبِحون أبناءكم ويَستحْيُونَ نِسَاءكُم، وَفي ذَلِكم بلاءٌ مِن رَبِّكُمْ عظيم ﴾[2].

ونحن نلاحظ في عرض هذه الآيات أنها تخاطب يهود يثرب، ثم عرضت لليهود في زمن موسى دون أن يشعر القارىء بانتقال من موضع إلى موضع، وكأن الكلام كله متصل بيهود يثرب، ودون أن يشعر كذلك بالمدة الزمنية الهائلة التي بين زمني موسى ومحمد - عليهما السلام - وهي فترة لا تقل عن ألفين وأربعمائة عام. ذلك لأن المخاطبين هم أبناء السابقين فالالتحام قوي، والنسب متصل والنبوة تحل محل الأبوة، لهذا لم يكن غريباً أن يذكرهم بنعمته على آبائهم، لأنها ولا شك نعمة عليهم.

من هذا يتضح أن يهود يثرب هم أبناء إسرائيل، نزحوا إلى بلاد العرب، وأقاموا بها، وليست الرابطة بينهم وبين اليهود في العالم رابطة الدين فقط، وإنما هي رابطة الدين والنسب، ورابطة الأبوة والنبوة.

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٥.

(٢) البقرة: ٤٧ - ٤٩.

٢ ـ مخاطبتهم بلفظ بني إسرائيل، والمعروف أن إسرائيل هو يعقوب ـ عليه السلام ـ ويعقوب لم يسكن جزيرة العرب، ولم يكن عربي الأصل، وذلك يدل على أن اليهود ليسوا عرباً تهودوا، وإنما هم طارئون على بلاد العرب. ويجدر بنا أن ننبه إلى أنه ليس في الحجاز قبائل عربية يهودية الدين، وأن العرب الذين تهودوا في الحجاز لم يكونوا سوى أفراد، ولم يكونوا جماعة قبلية محسوسة[(١)].

٣ ـ عدم ذكر النسابين العرب القبائل اليهودية بين الأنساب العربية، مما يدل دلالة واضحة على أن اليهود ليسوا عرباً إذ لو كانوا عرباً لما قبلوا أن ينتسبوا إلى غير قبائلهم، والمعلوم أن العرب كانوا يأنفون من الانتساب إلى غير قبائلهم بل كانوا يحرصون حرصاً شديداً على المحافظة على أنسابهم، والافتخار بها.

وفي نفس الوقت نرى النسابين قد ذكروا القبائل العربية التي تهودت في اليمن، والقبائل العربية التي تنصرت في الشام، وردوها إلى نسبها العربي الصحيح، ولو كان يهود يثرب والحجاز عرباً تهودوا لذكرهم النسابون، وردوهم إلى قبائلهم كذلك وإننا لنلاحظ أن اليهود لم ينسبوا أنفسهم إلى العرب، بل حرصوا على المحافظة على نسبهم ببني إسرائيل، فكان بنو قينقاع ينتسبون إلى يوسف ـ عليه السلام ـ وينقل السمهودي عن ابن حجر، أنهم من ذرية يوسف الصديق ـ عليه السلام[(٢)] ـ كما يعرف بنو النضير وبنو قريظة (بالكاهنين) وهما ينتسبان إلى كاهن بن هارون أخي موسى عليه السلام[(٣)].

٤ ـ للتشابه الكبير بينهم وبين اليهود السابقين على عصرهم في الجانب الأخلاقي، فإننا نلاحظ مواقف واحدة، لولا اختلاف الزمان والمكان والأحداث، لما استطاع أحد أن يفرق بينها، فقد كانت عداوتهم لأنبيائهم

---

(١) مكة والمدينة ص ٢٩٩.

(٢) وفاء الوفا (١/١٦٤).

(٣) الأغاني (١٩/٩٤/٩٥).

ورسلهم السابقين على محمد ـ ﷺ ـ ظاهرة خلقية بارزة، امتدت إلى عصر رسول الله محمد ـ ﷺ ـ وقتلهم الأنبياء بغير حق نتيجة حتمية لتلك العداوة، ولم تقف عند عصر معين، ولكنها امتدت حتى حاولوا قتل رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت غزوة بن النضير بسبب ذلك، والجبن الذي استحكم في قلوبهم حتى قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ ﴿ إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها. . . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ﴾[1]. هو نفسه الجبن الذي أشار إليه القرآن في غزوة النضير ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾[2].

والغدر الذي لازمهم، ونقض العهود الذي كان صفة خلقيـة لهم وإخراج الرسل وطلبهم المعجزات ثم كفرهم بها وتكذيبهـم لمن أتى بها ونقضهم الشرائع وتحريفهم الكلام إلى غير ذلك مما لم يخل منه جيل منهم، كل ذلك يدل على أن يهود يثرب من ذرية اليهود الإسرائيليين ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾[3].

ولا يخفى أن التشابه في السلوك والأخلاق، وأن التزام نوع خاص من التقاليد والعادات من أكبر الأدلة على وجود ترابط وثيق ونسب قوي، وصلة متينة بين أولئك المتشابهين والملتزمين بعضهم وبعض، وأن الآيات الكريمة التي وردت في سورة البقرة من ٨٣ ـ ١٠٥ لتدل بوضوح على مدى التشابه الحاصل بين يهود موسى ـ عليه السلام ـ وبين يهود يثرب في الأخلاق التي أشرنا إليها.

وبهذا يمكن القطع بأن يهود يثرب وشمال الجزيرة كانوا إسرائيليين نازحين، ولم يوكونوا عربا قاطنين.

٥ ـ بناية الحصون والآطام، ويستدل بذلك المؤرخون على أن اليهود

---

(١) المائدة: ٢٢/٢٤.

(٢) الحشر: ١٤.

(٣) آل عمران: ٣٤١.

ليسوا عرباً، ولا من أصل عربي، إذ لو كانوا عرباً لكانت لهم في قبائلهم عزوة ينتصرون بها على أعدائهم ولكان لهم من قبائلهم نصير يعتزون به ويستنصرونه، ويقول أصحاب ذلك الرأي: إنما بنى اليهود هذه الحصون، وتلك الآطام ليلتجئوا إليها إذا حزبهم أمر، أو أصابهم مكروه، ولو كانوا من أصل عربي لتحصنوا بقبائلهم، وآووا إلى فئتهم.

ومما يؤيد هذا أنه لم تكن لليهود في المدينة وفي أقاليم الحجاز عصبية قبلية بين العرب وإنما كانت صلاتهم بالقبائل العربية صلة حلف، ومصالح مشتركة، ولذلك لم يجدوا من قبائل العرب من يقف إلى جانبهم بدافع العصبية حين حاربهم النبي وطرد بعضهم من المدينة وقضى على بعضهم الآخر، بل إنهم حين خرجوا من المدينة لم يلجأوا إلى قبائل العرب ينزلون عليها استناداً إلى رابطة القربى، وإنما لجأوا إلى إخوانهم في خيبر وتيماء ووادي القرى ثم رحلوا إلى الشام[١].

على كل ما تقدم يستند المؤرخون في أن يهود يثرب يرجعون إلى أصل غير عربي، وإنْ وجدت لهم أسماء عربية وإنْ صاهروا بعض العرب.

لغة اليهود في يثرب:

إن اليهود في يثرب قد أقاموا بين ظهراني عرب لا يعرفون سوى العربية لغة يتكلمون بها، لهذا كان من الضروري أن يتعلموا تلك اللغة، وأن يعتمدوها لغة التخاطب حتى يمكنهم التعايش مع السكان الأصليين للمنطقة التي اتخذوها دار مقام لهم، ومن المرجح أن هذه اللغة لم تخل من رطانة عبرية، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراستهم فكان من الضروري أن يدخل في عربيتهم بعض العبرية[٢].

ولا شك أن اليهود كانت لهم معابد يقيمون فيها شعائر دينهم، وكانت

---

(١) مكة والمدينة ص ٣٠٢.

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٢٠.

لهم أماكن يتدارسون فيها علوم دينهم وما يصلحهم في دنياهم[1]، وكان لهم علماء عرفوا بالأحبار والربانيين، أشارت إليهم الآية الكريمة ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم، وأكلهم السحت، لبئس ما كانوا يصنعون ﴾[2].

ولا شك في أن لغة اليهود في معابدهم ومدارسهم، وتخاطبهم مع أهليهم وذويهم، كانت هي اللغة العبرية، ولهذا كان لا يمكن التخلص منها كلية، بل كان من الضروري خلط العربية بشيء من العبرية، شأنهم في ذلك شأن كل صاحب لغة يقصد التكلم بغير لغته الأصلية. ومما يؤكد أنه كان لليهود لغتهم التي يتخاطبون بها دون العربية، ما صح من أمرِ رسول الله - ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لغة يهود، حتى لا يحرِّفوا كتبه إليهم[3].

والذي يظهر لي وأرجحه أن اليهود كانت لهم لغتهم الخاصة التي يتعاملون بها ويكاتبون غيرهم بها، كما كانت لهم لغة يخاطبون بها غير اليهود، ويتعاملون معهم على أساسها.

ولهذا أمر الرسول - ﷺ - زيد بن ثابت أن يتعلم لغتهم الخاصة حتى إذا كتب إليهم أو كتبوا إليه لا يستطيعون التحريف والتبديل، وأما لغة التخاطب فكانت هي اللغة العربية، ومما يؤيد ذلك ما حدث يوم غزوة بني قريظة حين قدم رسول الله - ﷺ - علي بن أبي طالب برايته، فلما دنا من الحصون سمع مقالة قبيحة لرسول الله - ﷺ - فرجع حتى لقي رسول الله بالطريق، فقال له: لا عليك إلا تدنو منهم قال الرسول: «لم؟ أظنك سمعت منهم أذى لي؟» قال: نعم يا رسول الله.

قال - ﷺ -: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلما دنا رسول الله من

---

(١) تفسير الطبري (٢/٣٨١).

(٢) المائدة: ٦٣.

(٣) رواه البخاري.

حصونهم قال: «يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقصته؟» قالوا: (يا أبا القاسم ما كنت جهولاً)[1].

إن ذلك الحوار بين رسول الله ﷺ وبين اليهود يدل على أن اليهود كانوا يجيدون العربية كلغة تخاطب يتعاملون بها مع الناس، كما كان منهم الشعراء المجيدون كالسموأل بن عاديا صاحب القصيدة المشهورة التي منها.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ومنهم سماك اليهودي الذي روى له ابن هشام كثيراً من الشعر الجيد في رثاء بني النضير، وما جرى لهم[2].

بعدما عرفنا كل ذلك عن اليهود، فإننا نلاحظ أن هناك سؤالاً يفرض نفسه، وبالإجابة عنه يتم الكلام عن اليهود كسكان ليثرب، ذلكم السؤال هو: هل كان بيثرب سكان من العرب عندما نزلها اليهود؟

يقول إسرائيل ولفنسون: إنها لم تكن آهلة بكثير من السكان العرب، وإنما كان البدو ينتجعون إليها، ثم يرتحلون عنها[3].

ويقول السمهودي: (إنه ممن كان من العرب مع يهود قبل الأوس والخزرج بنو أنيف حي من بلى، ويقال إنهم بقية العماليق، وبنو مريد حي من بلى، وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم، وبنو الجذماء حي من اليمن)[4]. ونحن لا نستطيع الأخذ برأي ولفنسون لأمور:

١ - إن يثرب كانت في ذلك الزمان محطة يقف عندها المتجهون إلى بلاد الشام بالتجارة، كما يقف عندها القادمون من بلاد الشام، ولا يمكن أن تكون قرية في هذا الزمان بهذه المنزلة ثم لا تكون مأهولة بالسكان بل

(١) ابن هشام (٢/٢٣٤).
(٢) ابن هشام (   ) ص ١٩٨.
(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٠.
(٤) وفاء الوفا (١/١٦٢).

إنها بموقعها الجغرافي هذا كان لا بدّ أن تستلفت أنظار المارين بها وتغريهم بسكناها، إذا لم يكن بها سكان.

٢ ـ إن موقع يثرب من قديم الزمان كان محاطاً بالقرى الهامة كخيبر وتيماء ووادي القرى، وهذه كانت أماكن استقرار يقطنها قبائل عربية، ولقد بلغت أهميتها أن نقل ملك المعينيين عاصمته إلى تيماء ووصل بجيوشه إلى يثرب، ولا يمكن أن تكون تلك القرى آهلة معمورة ويثرب التي تعتبر واسطة العقد تكون مهجورة لا يسكنها أحد.

٣ ـ إن يثرب منذ عهد قديم منطقة خصبة كثيرة الوديان، وافرة العيون والآبار، ولا يمكن أن تكون منطقة في جزيرة العرب لها هذه الميزات، وتلك الخصائص، ثم يعرض عنها الناس ولا يسكنونها. ولقد ذكر الأستاذ الشريف أن يهود خيبر حالفوا غطفان التي كانت قريبة من هذه الأماكن الخصيبة، واتخذوا منها حامياً يدافع عنهم، ويجيرهم على من يريد الاعتداء عليهم[١].

كل هذا يؤيد ما نقله السمهودي، ويرد ما ذكره ولفنسون، ويكون ذلك دليلاً على أن يثرب كانت معمورة آهلة بالسكان، وأنهم لم يستعمروا يثرب بالسهولة التي تصورها مؤرخهم إسرائيل ولفنسون، بل نستطيع أن نستنتج أن اليهود قد لاقوا صعوبة وشدة عند نزولهم بالمدينة كسكان يريدون استيطانها والإقامة فيها.

إن اتخاذ اليهود للآطام، وبناءهم الحصون لدليل على عدم اطمئنانهم، وخوفهم من مهاجمة القبائل العربية لهم مما يؤيد أن استعمار اليهود لهذه المناطق لم يكن هيناً سهلاً، وأننا لنستطيع أن نستنتج من ذلك أن هجرات اليهود إلى هذه الأماكن لم تكن بدفعات كبيرة، ولكنها بدأت بأعداد قليلة ومتتابعة وأن عددهم ظل يكثر شيئاً فشيئاً حتى غلبوا على هذه المناطق[٢].

---

(١) مكة والمدينة ص ٣٠٨.

(٢) مكة والمدينة ص ٣٠٩.

٥ ـ العرب

عرفنا فيما سبق أنه قد سكن يثرب قبل اليهود جموع من العماليق، وأن اليهود قد نزلوا على طوائف من العرب كانوا ساكنين بها وكان بعضهم من العماليق، وحديثنا هنا سيكون عن الأوس والخزرج خاصة، لأنهم هم الذين نزلوا يثرب، وكان بها اليهود، وكانوا أصحاب الحول والطول في ذلك الزمان.

الأوس والخزرج؟

الأوس والخزرج إبنا حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء، بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول، بن مازن بن الأزد بن الغوث[١].

وهما من أهل اليمن وأخوان لأب واحد هو حارثة بن ثعلبة المذكور، وهما أحد فروع الأزد اليمنية، وأمهما (قيلة) بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء، وإلى أمهم انتسبوا فعرفوا بأبناء (قيلة)[٢]. وانقسم كل من الأوس والخزرج إلى خمسة بطون، وانقسمت هذه البطون إلى بطون أصغر منها وإلى عشائر وفخوذ حتى بلغت أقسام القبيلتين أكثر من أربعين بطناً[٣].

بطون الأوس الكبرى:

لم يلد الأوس إلا ولداً واحداً هو مالك بن الأوس ومن مالك هذا تفرقت قبائل الأوس وبطونها ولما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو الوفاة، اجتمع عليه قومه، فقالوا: قد حضر من أمر الله ما ترى، وقد كنا نأمرك في شبابك أن تتزوج فتاة، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين وليس لك ولد غير مالك، فقال: لن يهلك هالك، ترك مثل مالك، إن الذي يخرج النار من الرينة قادر أن يجعل لمالك نسلاً، ورجالاً بسلاً، وكل إلى موت ثم

---

(١) معجم البلدان (٤/٣٨٥).

(٢) المعارف ص ١١٠.

(٣) مكة والمدينة ص ٣٠٩.

أقبل على مالك فقال: أي بني، المنية ولا الدنية[1].

وقد كان ما توقعة الأوس فولد لمالك خمسة أبناء هم بطون الأوس الكبرى، وتفرعت منهم بطون نشير إليها بإيجاز.

١ ـ عمرو بن مالك بن الأوس، وهم (النبيت) ومنه البطون الآتية:

أ ـ بنو ظفر، واسم ظفر كعب بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك.

ب ـ بنو حارثة بن الحارث وهم النبيت من الأوس.

جـ ـ بنو عبد الأشهل وهم رهط سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ وزاد ابن حزم في جمهرة الأنساب بني زغوراء، وعمرو والحريش. وكانت مساكن البطون الثلاثة في شمال الحرة الشرقية، شمال بني قريظة، وأما العشائر الثلاث التي ذكرها ابن حزم فسكنت راتجاً، وراتج اسم حصن سمي به المكان في شمال المدينة في المنطقة المعروفة الآن بالمصانع[2].

٢ ـ عوف بن مالك بن الأوس، ومنه البطون الآتية:

أ ـ عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس وهم أهل قباء.

ب ـ وبنوا جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك.

جـ ـ بنو زيد بن مالك بن عوف، ومنهم أمية وصنبيعة وعبيد.

د ـ بنو السميعة (لوذان) بن عمرو بن عوف، يقول السمهودي: وكان بنو السميعة يدعون في الجاهلية ببني الصماء فسماهم النبي بني السميعة.

هـ ـ وبنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف.

وقد سكنوا جميعاً في جنوب المدينة في قباء ما عدا بني معاوية الذين سكنوا شرقي بقيع الغرقد وأمية الذين سكنوا إلى الجنوب منهم[3].

---

(١) وفاء الوفا (١/١٧٦).

(٢) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٣٥٨.

(٣) مكة والمدينة ص ٣١٠.

٣ ـ مرة بن مالك بن الأوس ومنه البطون الآتية:
أ ـ بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك.
ب ـ بنو أمية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك.
جـ ـ بنو عطية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك.

وهؤلاء هم المعروفون بالجعادرة لقصر في قامتهم[١] أولاً فهم كانوا إذا أجاروا جاراً قالوا له: جعدر حيث شئت أي أذهب حيث شئت، فلا بأس علي)[٢]. وكانت منازلهم عند ملتقى وادِيَيْ بطحان ورانوناء بالقرب من قباء[٣] وقد ذكر ابن حزم في الجمهرة بطناً رابعاً هم بنو سعد بن مرة، وقال أنهم سكنوا راتجا على طرف الحرة الشرقية، وهو الطرف الشمالي للحرة المذكورة، وهو المعروف الآن بالمصانع كما ذكرت سابقاً.

٤ ـ امرؤ القيس بن مالك بن الأوس ومنه البطون الآتية:
أ ـ بنو واقف، وواقف هو مالك بن امرىء القيس بن مالك ابن الأوس.
ب ـ السمل وهو ابن امرىء القيس بن مالك بن الأوس وهم رهط سعد بن خيثمة.

حقول السمهودي: وكان بين السلم وواقف كلام، فلطم واقف ـ وهو الأكبر ـ عين السلم ـ وكان شرساً ـ فحلف لا يساكنه فنزل السلم على بني عمر بن عوف، فلم يزل ولده فيهم (ومن بقيتهم سعد بن خيثمة بن الحارث)[٤] وكان تحالف السلم مع بني عمرو ابن عوف سبباً في إسلامهم المبكر قبل الهجرة وبعدها[٥].

(١) نفسه ص ٣١١.
(٢) وفاء الوفا (١/١٩٧).
(٣) مكة والمدينة ص ٣١١.
(٤) وفاء الوفا (١/١٩٦).
(٥) مكة والمدينة ص ٣١١.

وذكر ابن حزم أن بني السلم انقرضوا جميعاً، وقد بلغ عدد المقاتلين منهم في الجاهلية ألف مقاتل[1] وقد سكن بنو واقف بالعوالي بالقرب من مسجد الفضيح بين منازل قريظة والنضير وكان معهم السلم حتى فارقهم ونزل على بني عمرو بن عوف كما قدمنا.

٥ ـ جشم بن مالك بن الأوس ومنه بطن واحدة وهم بنو خطمة، وخطمة هو عبد الله بن جشم بن مالك بن الأوس، وكان بنو خطمة متفرقين في آطامهم، لم يكن في قصبة دارهم منهم أحد، فلما جاء الإسلام اتخذوا مسجدهم وابتنى رجل منهم عند المسجد بيتاً يسكنه فكانوا يسألون عنه كل غداة مخافة أن يكون السبع عدا عليه، ثم كثروا في الدار حتى كان يقال لهم غزة، تشبيهاً بغزة الشام من كثرة أهلها[2].

وكانت مساكن بني خطمة بالعوالي بين مسجد الفضيح وبين قباء، وكانوا مجاورين لبني أمية من جهة الجنوب[3]. ولكن السمهودي يروي عن المطري، فيقول: (منازل بن خطمة لا يعرف مكانها اليوم، إلا أن الأظهر أنهم كانوا بالعوالي شرقي مسجد الشمس الفصيح) لأن تلك النواحي كلها ديار الأوس[4]. وذكر السمهودي نقلاً عن رزين عن الشرقي أنه قال: (فولد الأوس مالكاً، ومن مالك قبائل الأوس كلها، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة، ويقال لهم أوس الله)[5].

وإطلاق أوس الله على ثلاثة من أولاد مالك بن الأوس، وهم ـ عمرو وعوف ومرة ـ ليس صحيحاً لأن المعروف عند المؤرخين أن الذين يعرفون بأوس الله هم بنو وائل وبنو أمية أبناء زيد بن قيس بن عامر بن مرة

(١) الجمهرة ص ٣٤٥.
(٢) وفاء الوفا (١/١٩٨).
(٣) مكة والمدينة ص ٣١٠.
(٤) وفاء الوفا (١/١٩٨).
(٥) نفسه ١٩٧.

ابن مالك بن الأوس وبنو واقف بن أمرىء القيس بن مالك بن الأوس وخطمة بن جشم بن مالك بن الأوس، هؤلاء جميعاً هم المعروفون بأوس الله.

روى ابن هشام عن ابن إسحاق في قصته إسلام سعد بن معاذ، وإسلام قومه بإسلامه قال: قالا: يعني أسعد بن زرارة، ومصعب ابن عمير، فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة ووائل وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلف ـ صيفي ـ وكان شاعراً لهم قائداً، يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، ومضى بدر وأُحُد والخندق)[1].

ويقول الأستاذ الشريف: (والجعادرة ـ بنو وائل وبنو أمية وبنو عطية أبناء زيد بن قيس ـ وواقف وخطمة كانوا يسمون (أوس الله) وقد تأخر إسلام هذه البطون، فلم تسلم إلا بعد الخندق)[2].

بطون الخزرج الكبرى:

بطون الخزرج الكبرى خمسة، حيث ولد للخزرج بن حارثة خمسة أبناء، فكانوا هم بطون الخزرج الكبرى، وتفرع من كل بطن منهم بطون أصغر منها، وسنذكر البطون الكبرى ونشير إلى ما تفرع منها بإيجاز.

١ ـ عمرو بن الخزرج بن حارثة، وقد خلف عمرو ابنه ثعلبة الذي خلف النجار المعروف يتيم اللات بن ثعلبة، سمي النجار لأنه ضرب رجلاً

---

(١) مكة والمدينة ص ٣١١.

(٢) ابن هشام (١/٤٣٧ ـ ٤٣٨).

اسمه العنز بقدوم فنجرة[1] أو لأنه اختتن بقدوم[2] وقد خلف النجار أربعة أبطن.

أ - مالك بن النجار بن ثعلبة بن الخزرج.
ب - عدي بن النجار بن ثعلبة بن الخزرج.
جـ - مازن بن النجار بن ثعلبة بن الخزرج.
د - دينار بن النجار بين ثعلبة بن الخزرج.

وقد سكنت هذه البطون كلها المنطقة الوسطى من المدينة - أي حول مسجد رسول الله - ﷺ - ففي منطقة المسجد سكن بنو مالك، وفي غربي المسجد سكن بنو عدي، وفي جنوبه سكن بنو مازن، وإلى الجنوب منهم سكن بنو دينار.

٢ - عوف بن الخزرج بن حارثة، ومنه البطون الآتية:

أ - سالم بن عمرو بن عوف بن الخزرج.
ب - غنم بن عمرو بن عوف بن الخزرج.
جـ - عنز بن عمرو بن عوف بن الخزرج.

وهؤلاء هم المسمون بالقواقل، قال ابن قتيبة: كان يقال في الجاهلية للرجل إذا استجار بيثرب قوقل في هذا الجبل، ثم قد أمنت[3] أو لأنهم كانوا إذا أجاروا شخصاً دفعوا إليه سهماً، وقالوا له: (قوقل به حيث شئت) أي تنقل به حيث شئت لا تخش أحداً[4] وذكر بن هشام من هؤلاء عبادة بن الصامت - رضي الله عنه[5] -.

د - بنو الحيلى، واسمه مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن عمرو ابن عوف بن الخزرج، وهم رهط عبد الله بـن أبي بـن سلول كبير المنافقين، وقال ابن هشام: الحلبي؛ سالم بـن غنم بن عوف،

---

(١) الجمهرة ص ٣٤٦.
(٢) المعارف ص ١١٠.
(٣) المعارف ص ١٠٩.
(٤) مكة والمدينة ص ٣١٢.
(٥) ابن هشام (١/٤٣١).

وإنما سمي الحبلي لعظم بطنه[1] ويذكر بن حزم أن الحبلي هو سالم والد مالك، واشتهر به مالك دون بنيه وذكر بن حزم بطناً آخر وهو قطن بن عوف وقال: وأولاد قطن بعمان أقاموا فيها، فليسوا من الأنصار[2] ولعل إهمال بعض المؤرخين لهذا البطن وعدم ذكرهم، لكونهم ليسوا من الأنصار. وقد سكن بنو عوف بن الخزرج طرف الحرة الغربية الواقع غربي وادي رانوناء الذي به مسجد الجمعة ما عدا بني الحبلي فقد سكنوا بين قباء ووادي بطحان.

٣ ـ جشم بن الخزرج بن حارثة وتفرعت منه البطون الآتية:

أ ـ غضب بن جشم بن الخزرج ومنه بنو بياضة، وبنو زريق، وبنو حبيب، ومن بني بياضة زيد بن الدثنة وعبد الله بن جابر.

ب ـ تزيد بن جشم بن الخزرج ومن تزيد تفرع بنو سلمة ومنهم بنو حرام، وبنو عدي وبنو عبيد.

وقد ذكر بن حزم أن من بني تزيد عمرو بن الجموح والحباب ابن المنذر بن الجموح صاحب الرأي يوم بدر، ومعاذ ابن جبل ثم قال: وانقرض عقب معاذ وأخيه وابن عمها[3] وقد سكن بنو سلمة وفروعهم المنطقة الشمالية الغربية الممتدة من سلع إلى وادي العقيق عند مسجد القبلتين، أما بنو بياضة، وبنو زريق، وبنو حبيب فقد سكنوا جنوبي المدينة على وادي بطحان.

٤ ـ كعب بن الخزرج بن حارثة، وتفرع منه بطن واحد، هم:

أ ـ بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج بن حارثة، ومن ساعدة تفرع بطون هي:

١ ـ بنو قشبة (عامر) بن الخزرج بن ساعدة.

٢ ـ بنو أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة.

---

(١) نفسه ص ٤٦٥.

(٢) الجمهرة ص ٣٥٣.

(٣) الجمهرة ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

ومن طريف سعد بن عبادة بن دليم، وأبو أسيد مالك بن ربيعة وهو آخر من مات من أهل بدر[1].

٣ ـ بنو عمرو بن الخزرج بن ساعدة.

٤ ـ بنو ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة.

وقد سكنوا جميعهم المكان المعروف بسقيفة بني ساعدة، أو قرية بني ساعدة ويقول السمهودي ناقلاً عن المطري: قرية بني ساعدة عند بئر بضاعة، والبئر وسط بيوتهم[2]. وحدد كثير من المؤرخين المنطقة بأنها شمال المصلى ـ مسجد الغمامة الآن وتمتد إلى الشمال حتى تصل بيت سعد بن عبادة المعروف بجرار سعد وهو في نهاية سوق المدينة من الشمال، ورجح هذا الرأي السمهودي[3] وقد حددت الحكاية التركية بيت سعد المعروف بجرار سعد ـ وهي جرار كان يسقي فيها الماء ـ حددته ببناء سبيل يقع شمال مستشفى الملك الآن[4].

٥ ـ الحارث بن الخزرج بن حارثة، وهم المسمون بالحارث بدون بني، وتفرع منه البطون الآتية:

أ ـ جشم بن الحارث بن الخزرج بن حارثة.

ب ـ زيد بن الحارث بن الخزرج بن حارثة وهو المعروف بزيد مناة. وهذان هما المعروفان بالتوأمين.

جـ ـ بنو خدرة وخدارة ابناً عوف بن الحارث بن الخزرج ومنهم أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ.

د ـ بنو صخر بن الحارث بن الخزرج.

وزاد بن حزم ابناً للحارث سماه الخزرج بن الحارث بن الخزرج،

---

(١) الجمهرة ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٢) وفاء الوفا (٢٠٨/١).

(٣) نفسه ص ٢٠٩.

(٤) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٩٠.

وذكر أنه ولد له كعب، وولد لكعب أبناء منهم الذي أشار إليه بجردش، وقال فيه: ودخل جردش في غسان، فليس من الأنصار[1]. وقد ذكرهم الأستاذ الشريف ضمن بطون بلحارث الأصلية حيث يقول: بنو مالك الأغر بن كعب ابن الخزرج الأصغر بن الحارث[2] ومن بني الحارث: سعد بن الربيع، زيد بن خارجه، عبد الله بن رواحة. وقد سكن بنو الحارث بن الخزرج المعروفون ببلحارث سكنوا شرقي وادي بطحان بالعوالي، وأما بنو جشم وزيد أبناء الحارث بن الخزرج فقد سكنوا السُنْح ـ بالضم والسكون ـ وهو في الأصل اسم لآطم سميت به المنطقة وهذه المنطقة تقع اليوم شمالي ملعب إدارة تعليم المدينة المنوّرة.

وهي على بعد ميل تقريباً من مسجد الرسول ـ ﷺ ـ وكانت دار أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ في هذا المكان المعروف بالسنح.

وأما بنو خدرة وخدارة ابنا عوف بن الحارث بن الخزرج فقد سكنوا في شمال سوق المدينة، وهو المكان المعروف بجرار سعد بن عبادة الواقع جنوب ثنية الوداع الشمالية وعلى بعد مائة وخمسين متراً منها تقريباً شمال المستشفى.

ونلاحظ من عرضنا السابق لمنازل الأوس والخزرج أن الأوس قد نزلوا بالأماكن الخصبة الغنية بالزراعة حيث نزلوا في الحرة الشرقية وقباء، وملتقى وادي رانوناء وبطحاء والعوالي وهم بذلك يكونون قد جاوروا القبائل اليهودية الكبيرة ذات العدد الوفير، ونزلوا في مناطق الأودية الغنية، فقد جاوروا قريظة والنضير.

وأما الخزرج فقد سكنوا في مناطق أقل خصوبة وغنى، حيث كانت منازلهم أكثرها في وسط المدينة والقليل منها في الحرة الغربية وأقل من هذا القليل سكنوا العوالي، وهي مناطق بعيدة عن الأودية التي تجلب الخصب

---

(١) الجمهرة ص ٣٦١.

(٢) مكة والمدينة ص ٣١٢.

والرخاء ويكونون كذلك قد جاوروا بني قينقاع القبيلة اليهودية الصناعية، وبعض العشائر اليهودية القليلة العدد[1].

ولقد كان لهذا الجوار وهذه المنازل أثر كبير في العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين اليهود والعرب من جهة، وبين العرب بعضهم وبعض من جهة أخرى، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

اليمن قبل الهجرة

عرفنا أن الأوس والخزرج من أزد اليمن، فلماذا هاجروا وتركوا بلادهم؟

إن بلاد اليمن كانت في ذلك الزمان من أغنى البلاد بخيراتها، حيث الماء وفير والخير كثير، والأرض خصبة، والموقع ممتاز، ولقد ذكر الله ـ تبارك وتعالى ـ ذلك في القرآن العظيم حيث قال: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان، عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور﴾[2].

يقول الشوكاني: وهذه المساكن التي كانت لهم، هي التي يقال لها مأرب، وبينها وبين صنعاء ثلاث ليالٍ، ثم قال: والآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيها وعلى رأسها المكتل، فيمتلىء من أنواع الفواكة التي تتساقط من غير أن تمسها بيدها[3].

وبلاد اليمن تشمل الزاوية الغربية الجنوبية من الجزيرة، وقد عرفت قديماً بالخصب والغنى وأشهر مدنها صنعاء، وكانت مقر ملوك اليمن قديماً، وبقربها قصر غمدان الشهير، وفي جنوبها الشرقي مدينة مأرب مسكن سبأ،

(١) مكة والمدينة ص ٣١٢.
(٢) سبأ: ١٥.
(٣) فتح القدير (٤/ ٣٢٠).

ومن مدن اليمن كذلك نجران وعدن، وكان لسكان اليمن قديماً علاقات بالهند والشرق الأدنى[1].

هذه البلاد ذات الخيرات المشهورة بالخصب والغنى ـ الممتازة بهذا الموقع على البحر الأحمر، لا بدّ أن يكون أهلها في غنى عن الرحلة والهجرة، فإذا حصل وهاجر أهلها، فلا بدّ وأن يكون هناك أسباب دعت إلى تلك الهجرة، إذ لا يعقل أن يترك أقوام أوطانهم وهي لا تضن عليهم بمحصول، ولا تبخل عليهم بمكنون، وهي تعطيهم حياة حرة طليقة يتمتعون فيها بكامل حقوقهم، ويمارسون أقصى ما يمكن أن يمارسه إنسان من أنواع النشاط. لقد كانت هذه حال بلاد اليمن في تلك الفترة من الزمان وكان هذا هو وضع سكانها الذين يعيشون فيها، نعم لقد كانت حالة البلاد تدعو إلى الاستقرار، فأقام أهلها وادعين، وكان الرخاء يشدهم إلى التمسك بأوطانهم فلم يبرحوها مودعين، وظل أمرهم كذلك حتى فسد حالهم، وكفروا بنعمة الله التي أنعمها عليهم، حتى كان أن طلبوا الشقاوة لأنفسهم ظالمين معتدين، فجعلهم الله عبرة للناس، وفرقهم في البلدان، ولقد حكى الله ـ عز وجل ـ ذلك عنهم في القرآن الكريم فقال: ﴿ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين، ذواتي أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور؟ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة، وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين، فقالوا: ربنا، باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم، فجعلناهم أحاديث، ومزقناهم كل ممزق، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[2].

فتفرقوا في البلدان، فنزلت خزاعة تهامة، ونزل الأزد عمان، وغسان الشام، والأوس والخزرج المدينة ولكن هل كان ذلك هو سبب الهجرة وحده؟ أم أن هناك أسباباً أخرى انضمت إلى هذا السبب فجعلت الهجرة حتماً لا مفر منه، وضرورة لا يمكن العدول عنها، أغلب الظن أن هناك أسباباً

---

(١) فجر الإسلام ص ٣.

(٢) سبأ: ١٦ ـ ١٩.

أخرى هي التي فرضت الهجرة على أهل البلاد، فودعوا بلادهم راحلين، وخرجوا منها يطلبون القرار المكين.

أسباب الهجرة:

إن الدارس لأحوال بلاد اليمن الواقف على أوضاعها في الفترة التي سبقت هجرة أهلها إلى الأصقاع المختلفة من الدنيا، يلاحظ أسباباً قوية تلح في طلب الهجرة، وتدعو إلى مفارقة البلاد. وإننا لنلاحظ دائماً أن الأسباب التي تدعو إلى الهجرة لا يمكن أن تكون أسباباً عادية، إذ يصعب على الإنسان مهما كان أن يفارق وطنه، ويودع أرضه لسبب يمكن التغلب عليه، أو يستطيع تلافيه، فإن الوطن عزيز على النفس والأرض التي درج عليها الإنسان غالية نفيسة، إذن فلا بدّ أن تكون هذه الأسباب فوق طاقة الإنسان، خارجة عن قدرته.

ونحن نلاحظ أيضاً أن الأسباب التي كانت وراء كل هجرة من الهجرات البشرية تنحصر في الأوضاع الآتية:

١ ـ أسباب دينية: كهجرة أصحاب العقائد إلى بلاد آمنة يمكنهم فيها ممارسة عقائدهم والقيام بشرائعهم حيث لا يمكنهم ذلك في البلاد التي يوجدون فيها.

٢ ـ أسباب سياسية: حيث تكثر الفوضى ويعم الاضطراب ويصبح الناس غير آمنين على ضروريات الحياة، فيضطر الإنسان إلى البحث عن مكان أمين ينعم فيه بالاستقرار.

٣ ـ أسباب اقتصادية: كالقحط، وانعدام الموارد التي يكتسب الناس منها أرزاقهم، فيتجهون إلى الخصب ويقصدون موارد الكسب، وكرغبة الإنسان في توسيع موارده المالية.

٤ ـ أسباب حربية: كالغزو المفاجىء الذي لا يقوى الناس على احتماله، ولا طاقة لهم بصده، فيتركون بلادهم ويتجهون نحو الأمن والسلام.

ولقد كانت هذه الأسباب مجتمعة، باستثناء السبب الديني، موجودة في اليمن قبل هجرة أهله منه، فقد كانت الفوضى ضاربة أطنابها في نواحيه

المختلفة، حيث كان التناحر والتخاصم على أشده بين الأقيال ـ ملوك اليمن ـ فكانوا يتنازعون السلطة، كل يريد الاستئثار بها والتغلب على خصمه، مما أدى إلى الفوضى وعدم الاستقرار، فلم يعد الناس يأمنون في ظل الفوضى، أو يستقرون في أرجوحة الاضطراب.

يقول الأستاذ الشريف وهو يتكلم عن هجرة قبائل الأزد وأسبابها: (إنها كانت لعوامل متعددة، منها اضطراب أحوال اليمن نتيجة للتنازع السياسي بين الأقيال)[1].

وقد بدأ القحط يزحف بوجهه الكالح على أرض اليمن السعيد التي يرى بعض المؤرخين أنها سميت اليمن من اليمن والخير والبركة، حتى ترجمها الرومان إلى (أريبيا فيلكس) أي العربية الخيرة أو السعيدة دلالة على غنى تلك البلاد ومدى حضارتها[2].

بدأ القحط يزحف نتيجة لإهمال شأن السد الذي كان ينظم حركة الري في البلاد وكانوا يستفيدون بذلك فوائد كثيرة حيث كانوا يتحكمون في تصريف الماء لري الأراضي الزراعية فيعيشون طول العام في رخاء ودعة، كذلك تحولت الطرق التجارية الهامة التي كانت تمر بهم، وكانوا يجنون من ورائها ربحاً وفيراً يضمن لهم الرخاء والسعادة.

تصدع السد فأهملوه، وقلت عنايتهم بمأرب، ونقلوا عاصمتهم إلى ظفار بدلاً من مأرب خوفاً من طغيان السد، فبدأت القبائل تنزح بطوناً لأسباب مختلفة منها القحط وتبدل الطرق التجارية العالمية[3].

ولقد تعرضت اليمن لغزو عسكري متتابع مرة من الفرس وأخرى من الروم، وظلت البلاد ترزح تحت سيطرة الغالب عليها ودخلت في معارك عنيفة مع قوات الحبشة التي كان يساندها قيصر الروم، ولم يتمكن الأحباش

---

(١) مكة والمدينة ص ٣١٥.

(٢) اليمن وحضارة العرب ص ١٤.

(٣) نفسه ص ٦٦.

من الاستقرار في اليمن إلا عام ٣٤٥ ميلادية، حيث تمكن ملك الحبشة (العلى عميدة) بمساعدة قيصر الروم (قسطنطينوس) من الاستيلاء على اليمن وظل الأحباش مسيطرين على اليمن حتى عام ٣٧٤ ميلادية[١].

وفي فوضى هذه المعارك، وبسبب هذه الاضطرابات لم يستطع اليمنيون الإقامة في بلادهم آمنين، فنزحوا عنها يطلبون الاستقرار، فارين من هذا الدمار.

وقد لخص الأستاذ الشريف الأسباب التي أدت إلى هجرة القبائل اليمنية إلى أنحاء مختلفة من الأرض بقوله: (وإذن فإن هجرة القبائل الأزدية كانت متفرقة، وإنها كانت لعوامل متعددة، منها اضطراب أحوال اليمن نتيجة للتنازع السياسي بين الأقيال، وإلحاح الأحباش عليها بالغزو منذ القرن الثالث وإهمال أمر الأرواء مما نتج عنه تصدع السد مرات متكررة مما سبب العسر الاقتصادي لإهمال الزراعة، فأخذت القبائل تهاجر كلما ضاق بها الحال، وكانت الأوس والخزرج ضمن هذه القبائل المهاجرة، وكانت هجرتها متأخرة عن غيرها من بطون الأزد)[٢].

وإن المتمعن في طبيعة العرب، الدارس لصفاتهم وأحوالهم، يرى من خلال ذلك أن الحياة عندهم ليست حياة استقرار وثبات وإنما الغالب عليها حياة التنقل والانتجاع، ويرى كذلك أن أكثر تنقلهم لأجل الماء والكلأ. ولهذا فإنني أرجح أن السبب الأعظم في هجرة قبائل الأزد، ليس هو السبب السياسي، ذلك لأن حياة العرب في اليمن وغيرها ليست حياة دعة وراحة حتى تعكرها الفوضى السياسية، وتقلقهم المنازعات القبلية، فإن حياتهم قائمة على شن الغارات، واقتحام الصعوبات، فلم يكن إذن للتنازع السياسي الحاصل بين الملوك أثر كبير في هجرة أهل اليمن. وليس السبب العسكري أيضاً هو الدافع للهجرة، لأن العربي قد ألف الحرب، فهي ليست غريبة عليه

---

(١) اليمن وحضارة العرب ص ٢٦.

(٢) مكة والمدينة ص ٣١٥ - ٣١٦.

حتى تضطره لهجر بلاده والارتحال عنها، بل إن حياة الكر والفر هي الحياة الحقيقية في نظره، فكيف تضطره إلى مفارقة وطنه، والابتعاد عن بلاده؟.

إذن فالسبب الحقيقي للهجرة هو السبب الاقتصادي الذي تعود العربي من أجله الارتحال، وترك البلاد والأحباب، ولا شك أن انضمام السببين: السياسي والعسكري إليه مما يقويه، ويجعل الإنسان أكثر اهتماماً بالهجرة، حيث اجتمع لديه أكثر من سبب، كل واحد منها كافٍ لتوطين النفس على الهجرة، لولا طبيعة العرب وظروفهم التي يحيونها.

ولعل هذا هو السبب في حصر المؤرخين العرب لأسباب الهجرة في تصدع السد وخرابه يقول ابن هشام: (وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ـ فيما حدثني أبو زيد الأنصاري ـ أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء، فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك، فاعتزم على النقلة من اليمن فكاد قومه، فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به.

فقال عمرو: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي. وعرض أمواله، فقال أشراف من أشراف اليمن: اغتنموا غضبة عمرو، فاشتروا منه أمواله، وانتقل في ولده وولد ولده.

وقالت الأزد: لا نتخلف عن عمرو بن عامر، فباعوا أموالهم، وخرجوا معه... فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام، ونزلت الأوس والخزرج يثرب)[1].

وذهب ابن النجار إلى مثل ما ذهب إليه ابن هشام، وذكر السمهودي وياقوت نفس القصة، وكلهم مجمعون على أن هجرة الأزد من اليمن إلى أنحاء الجزيرة كانت قبل انهدام السد، وكان سببها خوفهم من تصدعه، وما يترتب على ذلك من الدمار والتخريب.

ونحن لا ننكر أن أحد أسباب الهجرة الأكيد هو تصدع السد وما ترتب

---

(١) السيرة النبوية (١/١٣).

عليه من عسر اقتصادي، وضيق في الرزق، ولكننا لا نستطيع أن نصدق أن قوماً كانوا يعيشون في هذا الرخاء، ويتمتعون بهذه الخيـرات آمنين في بلادهم، مستقرين في أوطانهم، ثم يهجرون هذه البلاد الطيبة السعيدة لمجرد توقع أمر قد يحدث وقد لا يحدث.

إن العقل لا يجد مساغاً لهذا الأمر إلا أن يكون الناس قد فقدوا عقولهم، أو وجدوا خيراً من المكان الذي كانوا يسكنون.

وقد يقول قائل: لعلهم رحلوا عندما رأوا بأعينهم الجرذ تنقب السد، وترمي بأحجاره بعيداً وإنها كانت مع صغرها تنقل الحجر الذي لا ينقله خمسون رجلاً عند ابن النجار والسمهودي، ومائة رجل عند ياقوت، فكانت هذه علامات تدل على صدق النبوأة فهاجروا لذلك.

إن قصة الجرذ قصته تظهر عليها ملامح الوضع بغير خفاء، إن العقل لا يتصور أن جرذاً يقلب الصخرة ويرفعها من مكانها في السد، ولو قيل أن الجرذ أكلت الأحجار أو فتتتها أو كانت عاملاً من عوامل تخريبها ما أنكر أحد ذلك وليس في الأمر معجزة لأحد، حتى نصدق بالخوارق، لهذا فإننا نتوقف في قبول الخبر على ما هو عليه.

إن أقصى ما يمكن أن يقبله العقل من ذلك هو أن الجرذ كانت سبباً من أسباب تصدع السد بما أحدثته فيه من ثقوب مكنت الماء من التخلل بين لبناته مما أدى إلى تصدعه في النهاية، عندما جاء السيل فلم يقوَ السد على صده فانهار على أن تصدع السد لم يكن مرة واحدة فقط، بل كان مرات، وفي أزمنة مختلفة كما يدل على ذلك الكتابة التي عثر عليها منقوشة على الأحجار بالخط المسند، يذكر بعض المؤرخين أن أول تصدع للسد كان في عام ١٢٠ ميلادية[١]. وأما النقوش فقد كتب على بعضهـا أن شرحبيـل الحميري أصلح السد عام ٤٥٠ ـ ٤٥١ ميلادية، ويدل نقش آخر على أنه أصلح في عهد أبرهة عام ٥٤٢ ميلادية[٢].

---

(١) سد ص ٣٦.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/١٥٦/١٩٧/٢٠٠.

ويذكر ولفنسون عن جلاسر أن السيل قد حدث من عام ٤٤٧ ـ ٤٥٠ ميلادية(١) على أن هذا التحديد من جلاسر لزمان السيل يجعل رحلة المهاجرين من اليمن قد تمت فعلاً قبل حصول السيل. لأننا لو أخذنا برأي سديو الذي حدد هجرة الأوس والخزرج إلى المدينة بسنة ٣٠٠ ميلادية يكون السيل قد حدث بعد الهجرة بـ ١٤٧ عاماً.

ولو أخذنا برأي الأستاذ الشريف الذي حدد الهجرة تقريباً بأواخر القرن الرابع الميلادي يكون السيل قد وقع بعهد الهجرة بـ ١٠٠ عام تقريباً(٢).

على أن تحديد جلاسر لوقت السيل مبني على أن السد أصلح في عهد شرحبيل الحميري عام ٤٥٠ م فكأن الإصلاح بدأ بعد انتهاء السيل وتحطم السد مباشرة.

ونحن لا ندري على أي أساس حدد سديو زمن هجرة الأوس والخزرج بسنة ٣٠٠ ميلادية، ولهذا فإني أعتقد أن تحديد الأستاذ الشريف زمن الهجرة بأواخر القرن الرابع الميلادي أدق من تحديد سديو، ذلك لأن تحديد الأستاذ الشريف مبني على قاعدة عدد الأجيال والفرق الزمني بين كل جيلين.

ولقد اتخذ الأستاذ الشريف الصحابي (سعد بن عبادة) ـ رضي الله عنه ـ بداية خيط، وصل عن طريقه إلى الخزرج الأكبر بن حارثة، فحصر الأجيال كما ذكرها النسابون فكانت أحد عشر جيلاً وافترض الفرق بين الجيلين خمسا وعشرين سنة فكانت الفترة من سعد إلى الخزرج ٢٧٥ عاماً ولو طرحنا هذه المدة من عام الهجرة النبوية الذي كان سنة ٦٢٢ ميلادية لتبين أن وقت هجرة الأزد كان سنة ٣٤٧ ميلادية تقريباً.

وهجرة الأوس والخزرج على كلا الرأيين كانت قبل السيل بمائة أو بمائة وخمسين عاماً، وعلى هذا لا يمكن الأخذ برأي الأصبهاني الدال على

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٥٣.
(٢) مكة والمدينة ص ٣١٥.

أن هجرة الأوس والخزرج كانت بعد سيل العرم[1] إلا إذا أراد أنها كانت بعد تصدع السد الأول الذي حدث في عام ١٢٠ ميلادية وهو على ما يبدو من كلامه غير مراد له، لأنه نص على سيل العرم.

لقد استبعدنا فيما سبق أن يترك الناس بلادهم وديارهم بما فيها من خيرات لتوقع أمر قد يحدث، وقد لا يحدث، وثبت لنا الآن أن الهجرة كانت قبل سيل العرم، فكيف نوفق بينهما؟

لا شك أن تصدع السد للمرة الأولى وما ترتب عليه من خسائر كان ماثلاً في أذهان الناس إذ لا يمكن أن ينسى مثل هذا الحادث بسهولة، فلما رأى الناس بعد ترميم السد وإصلاحه أن الجرذ بدأ ينخر في بناء السد، ويحدث فيه ثقوباً، توقعوا أن يحدث له ما حدث في المرة الأولى، أو أشد حتى أن السبأيين قد وجهوا عنايتهم إلى ظفار واتخذوا منها عاصمة بدلاً من مأرب التي أصبحت مهددة بالسيول[2].

وخلاصة القول إن السد تصدع مرات ورمم في كل مرة وآخر ترميم له كان في عهد أبرهة الأشرم عام ٥٤٢ م وأن تصدع السد كان سبباً من أقوى أسباب هجرة الأوس والخزرج، وأن انهيار السد كان بسبب سيل قوي فاض بمياه غزيرة، وضاقت عنه المخارج القوية، فحطم السد، وطغت المياه على مدينة مأرب وقصرت أيدي أهلها عن إعادته[3].

الأوس والخزرج في يثرب

تفرقت قبيلة الأزد اليمنية في أنحاء شتى من أرض جزيرة العرب، بعد خروجها من اليمن فنزل فريق منهم ببلاد الشام، وأقام فريق بالعراق، ودخل جماعة مكة، وتوجه الأوس والخزرج إلى يثرب، فدخلوها وكان الغالب على

(١) الأغاني (١٩/٩٥).
(٢) اليمن وحضارة العرب ص ٦٦.
(٣) اليمن وحضارة العرب ص ٦٥.

أرضها اليهود، وإن كان فيها ناس من العرب، قبل الأوس والخزرج وهم بنو أنيف حي من بلى، وبنو فريد حي من بلى أيضاً، وبنو معاوية بن الحارث، وبنو الجذماء وهي حي من اليمن.

إلا أن هؤلاء العرب لم يكن لهم من أمر يثرب شيء، بل كانوا يقيمون في جوار اليهود وظلت الأوضاع على ذلك، حتى دخل الأوس والخزرج يثرب، وكان فيها من اليهود بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو محمر، وبنو زعوراء، وبنو قينقاع، وبنو ثعلبة، وأهل زهرة، وأهل زبالة، وأهل يثرب، وبنو ماعصة، وبنو عكوة[1] وكان البارزون في يثرب من هؤلاء اليهود هم: بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع.

نزل الأوس والخزرج يثرب، فوجدوا الأموال والآطام والنخل في أيدي اليهود، ووجدوا العدد والقوة معهم، فسكنت الأوس والخزرج معهم ما شاء الله، ولكنهم لم ينزلوا في مكان واحد، بل انتشروا في أنحائها المختلفة، في قباء وقربان والحرة الشرقية حتى دنت مساكنهم من أحد وانتشروا في نواحي العقيق، وخالطوا العرب الذين كانوا بيثرب، وظلوا يعملون حتى نمت زراعتهم بعد قلة، واتسعت تجارتهم بعد ضيق.

يقول الأصبهاني: (إن الأوس والخزرج توجهوا بعد هجرتهم إلى المدينة، وحين وردوها نزلوا في خرار، ثم تفرقوا، وكان منهم من لجأ إلى عفاء من الأرض لا ساكن فيه، ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها، فكانوا مع أهلها. فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش، ليسوا بأصحاب زرع ونخل وليس للرجل منهم إلا الإعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات)[2].

وأخذ النزلاء الجدد يتكاثرون، وأخذت أموالهم في النمو والاتساع ويبدو أن الأوس.. والخزرج كانوا يشعرون بقلتهم أمام أعداد اليهود الهائلة ويحسون بفقرهم أمام ثروتهم الطائلة.

---

(١) أخبار مدينة الرسول ص ١٧.

(٢) الأغاني (١٩/٩٥ ـ ٩٦).

وفي نفس الوقت تخوف اليهود من العرب الجدد، وقد رأوهم يتزايد عددهم يوماً بعد يوم وتزدهر أموالهم مع مرور الزمن وبخاصة وقد رأوهم ينافسونهم في الظهر والزرع، ويسابقونهم في التجارة والكسب.

كان هذا الشعور من كلا الفريقين داعياً للتفاهم وتبادل الرأي، فاتفقوا على أن يعقدوا حلفاً يأمن به كل فريق غدر صاحبه، فعقدوا بينهم حلفاً، وعاشوا به أعواماً، وعرف هذا الحلف بالحلف العام[1]. ولكن اليهود غدروا بعهدهم، ونقضوا حلفهم، وأشعلوا نار العداوة بين أبناء العم ليتقوا تجمعهم، ويأمنوا بطشهم، ودارت الحرب بين الأوس والخزرج ضروساً طاحنة، وكانت اليهود تغذيها كلما فترت أو هدأت.

والذي يظهر أن العداوة قد دبت بين اليهود، وتفرقوا شيعاً، حتى استغل الأوس والخزرج هذا الخلاف بين اليهود وحالفت كل جماعة منهم جماعة من اليهود فحالف الأوس قريظة، وحالف الخزرج النضير، وقاتل كل فريق ضد الآخر في معارك طاحنة[2].

الأوس والخزرج يسيطرون على المدينة

إن اليهود كانوا أصحاب الحول والطول والكلمة العليا في يثرب حين نزلها الأوس، وقد عاش الأوس والخزرج على ذلك زمناً، ثم ما لبث الحال أن تغير، وتبدلت الأوضاع، وأصبحت الكلمة للعرب، وعاش اليهود إلى جوارهم حلفاء، ولكن كيف تم ذلك؟

يدرك المؤرخون لذلك سبباً، واعتبره كثيرون منهم هو السبب الحقيقي لإخضاع اليهود لسلطة العرب وغلبتهم على المدينة، وسأذكر السبب كما ذكره المؤرخون غير ملتزم به.

قالوا: كان ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان يقال له: الفيطوان

---

(١) المدينة بين الماضي والحاضر ص ٣٣ ـ ٣٤، وفاء الوفا (١/١٧٨).

(٢) الأغاني (٣/٢٤).

(الفيطون) وكانت اليهود والأوس والخزرج يدينون له، وكانت له فيهم سنّة ألا تزوج امرأة منهم إلا أدخلت عليه قبل زوجها، حتى يكون هو الذي يفتضها، إلى أن زوجت أخت لمالك بن العجلان بن زيد السالمي الخزرجي، فلما كانت الليلة التي تهدى فيها إلى زوجها خرجت على مجلس قومها كاشفة عن ساقها وأخوها مالك في المجلس.

فقال لها: لقد جئت بسوءة بخروجك على قومك وقد كشفت عن ساقيك. قالت: الذي يراد بي الليلة أعظم من ذلك لأنني أدخل على غير زوجي، ثم دخلت إلى منزلها فدخل إليها أخوها، وقد أرمضه قولها. فقال لها: هل عندك من خيمر؟ قالت: نعم فما؟ قال: أدخل معك في جملة النساء على الفطيون، فإذا خرجن من عندك، ودخل عليك ضربته بالسيف حتى يبرد.

قالت: افعل، فتزيّا بزي النساء، وراح معها، فلما خرج النساء من عندها، دخل الفطيون عليها، فشد عليه مالك بن العجلان بالسيف، حتى قتله، وخرج هارباً، حتى قدم الشام، فدخل على ملك من ملوك غسان، يقال له، أبو جبيلة، وفي بعض الروايات أنه قصد اليمن إلى تبع الأصغر ابن حسان فشكا إليه ما كان من الفطيون، وما كان يعمل في نسائهم، وذكر له أنه قتله وهرب، وأنه لا يستطيع الرجوع خوفاً من اليهود، فعاهده أبو جبيلة ألا يقرب امرأة، ولا يمس طيباً، ولا يشرب خمراً حتى يسير إلى المدينة، ويذل من بها من اليهود، وأقبل سائراً من الشام في جمع كثير مظهراً أنه يريد اليمن، حتى قدم المدينة ونزل بذي حرض.

ثم أرسل إلى الأوس والخزرج أنه على المكر باليهود، عازم على قتل رؤسائهم، وأنه يخشى متى علموا بذلك أن يتحصنوا في آطامهم، وأمرهم بكتمان ما أسره إليهم، ثم أرسل إلى وجوه اليهود أن يحضروا طعامه ليحسن إليهم ويصلهم، فأتاه أشرافهم.. ووجوههم، ومع كل واحد منهم خاصته وحشمه، فلما تكاملوا أدخلهم في خيامه ثم قتلهم عن آخرهم، فصارت

الأوس والخزرج من يومئذٍ أعز أهل المدينة، وقمعوا اليهود، وسار ذكرهم وصار لهم الأموال والآطام[1].

وأما الأصبهاني فيقول: إن مالك بن العجلان قد زارهم بالشام، فسأله أبو جبيلة عن حالهم بالمدينة، فشكا إليه سوء وضعهم واضطهاد اليهود لهم، فقال أبو جبيلة: إنا إذا نزلنا في مكان كانت السيادة لنا، فما بالكم، وأخبره بأنه سيحضر إليهم بجيش عظيم، وسيخفي قصده حتى لا يتحصن اليهود بآطامهم، وطلب منه أن يبني مكاناً ويظهر احتفاءه بالملك فيه ثم جاء أبو جبيلة بجيشه، ونزل بذي حرض قريباً من أحد، وطلب الأوس والخزرج وحباهم وأعطاهم، ثم أرسل إلى يهود. وصنع طعاماً، وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم، فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه، وجعل الرجل منهم يأتي بخاصته وحشمه، رجاء أن يحبوهم الملك، وقد جعل في الحيز الذي بناه مالك رجالاً، وأمرهم أن يقتلوا كل من دخل عليهم من اليهود، حتى أتى على وجوههم وأشرافهم[2].

ويتابع ابن النجار الأصبهاني على ما ذكر، وكذلك ياقوت في كلامه عن مأرب لا يذكر قصة الفطيون، وينسب إخراج اليهود من المدينة واستيلاء الأوس والخزرج عليها إلى قوة الأوس والخزرج أنفسهم، فيقول متحدثاً عن ثعلبة العنقاء جد الأوس والخزرج: فلما كبر ولده وقوي ركنه، سار نحو المدينة، وبها ناس كثير من بني إسرائيل متفرقون في نواحيها، فاستوطنوها وأقاموا بها بين قريظة والنضير وخيبر وتيماء ووادي القرى ونزل أكثرهم بالمدينة إلى أن وجد عزة وقوة، فأجلى اليهود عن المدينة، واستخلصها لنفسه وولده، فتفرق من كان بها من اليهود وانضموا إلى إخوانهم الذين كانوا بخيبر وفدك، وتلك النواحي، وأقام ثعلبة وولده بيثرب، فابتنوا فيها الآطام وغرسوا فيها النخل، فهم الأنصار الأوس والخزرج)[3].

---

(١) معجم البلدان (٤/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤) وقد ذكر القصة ابن الأثير (٤٠١ ـ ٤٠٢).

(٢) الأغاني (١٩/٩٦).

(٣) معجم البلدان (٤/٣٨٥).

وأمامنا كما يظهر روايتان تختلفان في الدافع، وتتفقان في المصير، الرواية الأولى تذكر أن الدافع إلى ثورة الأوس والخزرج هو طغيان الفطيون، ومحاولة اعتدائه على أعراضهم مما جعل مالك بن العجلان يقتله ويستنصر بأبناء عمومته في الشام.

والرواية الثانية لا تذكر شيئاً عن الفطيون، ولا تشير إليه وكأنها قصة خرافية، حبكها الاخباريون ونسجوها من خيال محض، فهي تذكر أن مالك ابن العجلان قد زار الغساسنة بالشام زيارة عابرة ولما سأله أبو جبيلة أخبره مالك بوضعهم في المدينة مع اليهود، فغضب أبو جبيلة ودبر هذه المكيدة ليذل يهود، ويرفع من شأن الأوس والخزرج.

والذي يظهر في قصة الفطيون أنها لا تستند على أدلة قوية، ويبدو أن الجانب الجنسي قد أخذ حظه كاملاً في هذا الوقت مما جعل الاخباريين يزجون به في كل مناسبة انتقام معتمدين على غيرة العرب على أعراضهم، وحميتهم للدفاع عنها.

على كل حال نحن نلاحظ في كلا الروايتين أنهما انتهتا بإذلال يهود المدينة وبسط نفوذ الأوس والخزرج عليها ولكن ابن الأثير والأصبهاني يوردان تكملة للبحث، فهما يرويان أن اليهود بعدما فعل أبو جبيلة ما فعله بهم لم يخضعوا للأوس والخزرج، وظلوا على حالهم حتى كادهم مالك نفسه بمثل ما كادهم أبو جبيلة، وقتل منهم بضعة وثمانين رجلاً، عندئذٍ ذلوا وخافوا وراحوا يتخذون الأوس والخزرج حلفاء لهم(١).

ويقول: حتى أن الرجل من اليهود كان إذا نزل به مكروه ذهب إلى جيرانه من الأوس أو الخزرج وقال: نحن جيرانكم ومواليكم، ولم يذهب إلى إخوانه من اليهود كما كانوا يفعلون من قبل(٢).

عزّ الأوس والخزرج وأصبحت لهم الكلمة العليا بيثرب، وعاش اليهود

---

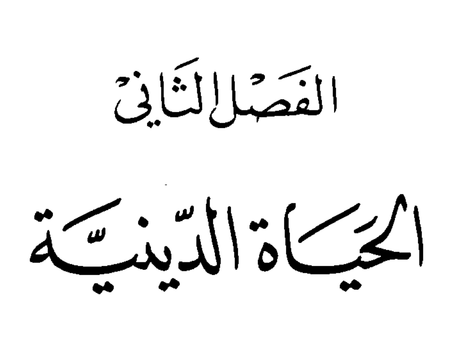
(١) الأغاني (١٩/٩٧).

(٢) الأغاني (١٩/٩٦) والكامل (١/٤٠٢).

إلى جوارهم حلفاء لا صرحاء. ومع ما كان فيه الأوس والخزرج من الضيق في أول عيشهم بيثرب إلا أنهم عاشوا كراماً مرفوعي الرؤوس حتى روى ابن عبد ربه: أن الأوس والخزرج ابنا قيلة، لم يؤدوا أتاوة قط في الجاهلية إلى أحد من الملوك، وكتب إليهم تبع يدعوهم إلى طاعته، فأبوا، فغزاهم فكانوا يقاتلونه نهاراً، ويقدمون له الطعام ليلاً، فلما طال مكثه، ورأى ما فيهم من كرم رجع إلى بلده وتركهم[1].

---

(١) العقد الفريد (٢/٥٤).



الفصل الثاني

الحياة الدينية

الحيَاة الدّينيّة

١ - الوثنية:

كانت الوثنية هي الديانة السائدة في جزيرة العرب قبل الإسلام، وكانت هي عقيدة السواد الأعظم من السكان ولم تستطع ديانة أخرى أن تنافسها السيادة، وإن شاركتها، وعاشت إلى جوارها، ولم يرو لنا التاريخ خصومة نشبت بين الوثنية وبين أية ديانة كانت من الديانات التي عاصرتها في تلك الفترة، بل الذي نقرؤه، واستفاضت به الكتب أنها كانت - الوثنية والديانات الأخرى - متعايشة في هدوء وسلام، مما يدل على أن أهل الديانات الأخرى لم يروا في الوثنية خصماً، بل وجدوا فيها تأييداً لانحرافاتهم التي أدخلوها - كذباً - على ما أنزل الله على رسلهم.

فاليهود يقولون: عزير ابن الله، والنصارى يقولون: المسيح ابن الله، والوثنيون يقولون: الملائكة بنات الله، وكلهم كاذبون في دعواهم، فالله جل وعلا، تنزه عن الولد كما تعالى عن الوالد، فهو سبحانه - الواحد الأحد - الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

قال - تعالى -: ﴿وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله، أنى يؤفكون﴾[1].

---

(١) التوبة: ٣٠.

وفي قوله ـ تعالى: ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ دليل واضح على أن أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ نسبوا لله ـ سبحانه ـ ما نسب أهل الأوثان إليه. وفي تفسير ذلك يقول ابن جرير، ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) يقول: قالوا: مثل ما قال أهل الأوثان[1].

وقد تابع ابن جرير على هذا المعنى ابن الجوزي في زاد المسير، والبيضاوي في أنوار التنزيل، والشوكاني في فتح القدير حيث يقول: (إنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم: اللات والعزى ومناة بنات الله) وقال: (إنهم شابهوا قول من يقول من الكافريـن إن الملائكة بنات الله)[2]. لقد كان هذا التحريف وشيجة ربطت بين الوثنية والديانات التي عاصرتها، فلم يثر بعضها على بعض كأديان ولم ينتقص بعضها من بعض كنحل وكان لكل منها فريق من الناس.

ولهذا لم نرَ اليهود ولا النصارى يعيبون على الوثنيين ما يعبدون من دون الله، ولم نرهم يسفهون عقولهم التي رضيت بالحجارة أرباباً، واتخذت منها آلهة. ولم نسمع عن الوثنيين أنهم وقفوا من اليهود والنصارى هذا الموقف، بل رضيت كل منها عن الأخرى لاجتماعها على الباطل، واتفاقها على الضلال.

على أن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك خلاف بين أهل هذه الديانات، وأنه لم يكن بينهم خصومات وعداوات بل كان الخلاف على أشده قائماً، وكانت الخصومة والعداوة كأعنف ما يعرفه الناس ناشبة بينهم، ولكن هذا الخلاف وتلك الخصومة لم تكن بين القوم على أساس عقائدي، وإنما كان ذلك مبنياً على أساس العداوة التي تحصل في النفوس من الأصيل على الدخيل، والحقد الكامن في القلوب من المقيمين على المغيرين، أو بتعبير

---

(١) تفسير الطبري (١٤/٢٠٦).

(٢) فتح القدير (٢/٣٥٣).

آخر على أساس الجنس والقومية، وبسبب ما كان من احتقار أهل الديانات الوافدة لأهل البلاد الأصليين، وإلى هذا المعنى يشير قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل ﴾[1] وفي هذا القول احتقار واضح للأميين.

والأميون هنا، هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب، أي ليس علينا في ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا، فهم بذلك يستبيحون امتهان غيرهم من الأمم، ويحلون ظلمهم واحتقارهم.

وفي قوله ـ تعالى ـ حكاية عنهم: ﴿ وقالت اليهود والنصارى: نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[2] وهم بذلك يثبتون لأنفسهم ما ليس لغيرهم من البشر، ومنهم الأميون ـ العرب ـ الذين ليسوا من أبناء الله ولا من أحبائه.

هذا الزهو الباطل وهذا الفخر الكاذب كان هو السبب فيما بين أهل الأديان من الخلاف والخصام وبين الوثنيين الذين لم يدعوا لأنفسهم هذه المنزلة، بل الذين كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون الوصول إلى الله ـ عز وجل ـ إلا بواسطة الأوثان التي كانوا يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى. لهذه الأسباب كان الخلاف ناشباً بين القوم بعضهم وبعض، وكانت العداوة والبغضاء مستحكمتين في نفوسهم أن شعور العرب بأنهم أهل البلاد وسكانها الأصليون، وشعورهم بأن اليهود قوم دخلاء عليهم، قدموا إلى بلادهم فارين من ظلم الفرس مرة، ومن اضطهاد الرومان مرة أخرى، فوسعوهم بكرمهم، وأحلوهم ديارهم بحسن أخلاقهم وجميل ضيافتهم، ثم لا يرون منهم بعد ذلك شكراً للجميل واعترافاً بالفضل، بل كان الأمر بالعكس كفر للنعمة ونكران للجميل وتذوءب للوادعين وانتهاز للفرصة ليفرضوا أنفسهم ويبسطوا سلطانهم.

كان لا بدّ إذن من الخلاف، وكان لا بدّ لهذا الخلاف أن يتحول إلى

---

(١) آل عمران: ٧٥.

(٢) المائدة: ١٨٠.

قتال بين الطرفين، هذا يبغي بسط نفوذه وذلك يريد استعادة مكانته.

وإني أعتقد أن الخلاف لم يتعد هذه الحلقة، ولم يتجاوز محيطها، ولو كانت الخلافات عقائدية لحاول كل فريق فرض عقيدته في وقت غلبته وتسلطه، فقد رأينا اليهود متسلطين على يثرب، متحكمين في أوضاعها المختلفة، فترة من الزمان ومع ذلك لم يفرضوا عقيدتهم على العرب الساكنين معهم، ودارت الأيام، ودالت دولة اليهود في يثرب، وعاد للعرب مركزهم الطبيعي، ودخل اليهود في جوار العرب، وحالفت كل جماعة منهم جماعة من العرب يحتمون بهم، ويتقوون على عدوهم، ومع ذلك لم يفرض العرب ـ الوثنيون ـ عقيدتهم على بني إسرائيل ولم يطلبوا منهم ترك دينهم واعتناق الوثنية التي يدينون بها.

كانت الأديان على هذا متهادنة، وإن حارب أهلها بعضهم بعضاً، وكانت المذاهب على وفاق، بينما كان الخلاف مستحكماً بين أربابها، وظلت الوثنية هي الديانة السائدة في يثرب، وظل الوثنيون هم الكثرة الغالبة في البلاد، ولم يستطع اليهود بنفوذهم السياسي، ولا بمركزهم الاقتصادي، ولا بتفوقهم الصناعي، أن يؤثروا في هذه النحلة، ولا أن يقللوا عدد معتنقيها.

اصطلاحات

ويجدر بنا هنا أن نتعرض لتوضيح بعض الألفاظ التي استعملها الوثنيون، وذكرها القرآن الكريم، وقد رأيت من المفيد التعريف لهذه الألفاظ قبل الخوض في الموضوع ليكون القارىء على بينة من هذه الألفاظ ومعانيها المستعملة فيها، حتى إذا عرضت له استطاع إدراك المراد بها، والتفريق بينها لأنهم كانوا يطلقونها على ما كانوا يعبدون وهذه الألفاظ هي:

١ ـ الأصنام.
٢ ـ الأوثان.
٣ ـ الأنصاب.

الأصنام:

وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في عدة مواضع منها:

١ ـ ﴿ وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ أصناماً آلهة ﴾[١]؟.

٢ ـ ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾[٢].

٣ ـ ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً، واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾[٣].

٤ ـ ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾[٤].

٥ ـ ﴿ قالوا: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾[٥].

والكلمة كما تشير الآيات الكريمات تدل على أن الأصنام كانت آلهة لفريق من الناس وأنهم كانوا يعبدونها من دون الله.

وهذه الكلمة كانوا يطلقونها على التمثال الذي يكون على صورة الإنسان، ويكون مصنوعاً من خشب أو ذهب أو فضة فقط[٦].

الأوثان:

وهذه الكلمة كسابقتها وردت في القرآن الكريم في مواضع:

١ ـ ففي سورة الحج: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان، واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به ﴾[٧].

٢ ـ وفي سورة العنكبوت: ﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا، وتخلقون إفكاً، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً. إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم

---

(١) الأنعام: ٧٤.

(٢) الأعراف: ١٣٨.

(٣) إبراهيم: ٣٥.

(٤) الأنبياء: ٥٧.

(٥) الشعراء: ٧١.

(٦) الأصنام: ص ٥٣.

(٧) الحج: ٣٠.

ببعض ﴾[1]. وهذه الآيات توضح أن الأوثان آلهة كانت تعبد من دون الله كالأصنام تماماً، فلماذا أطلق عليها هنا لفظ الأوثان وأطلق عليها هناك كلمة الأصنام؟

يقول ابن الكلبي: إذا كان معمولاً - أي ما يعبدون - من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة، فهو وثن[2]. فالأوثان إذن كل ما كان منحوتاً من حجارة على صورة إنسان.

الأنصاب:

كلمة وردت في القرآن الكريم في آية واحدة هي:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، رجس من عمل الشيطان، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[3] والأنصاب هنا جمع نصب، وهي حجارة كان أهل الجاهلية ينصبونها حول الكعبة، ويذبحون لها، والذي يبدو أن هذه الحجارة كانت ساذجة - ليس فيها نقش ولا تصوير - ولهذا قال ابن جريج: (النصب ليست بأصنام، الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تنصب)[4].

والذي يقوّي رأي ابن جريج، ويؤيد أن الأنصاب غير الأصنام ما روى ابن جرير الطبري عن مجاهد في قوله - تعالى -: ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ قال: النصب، حجارة حول الكعبة، يذبح عليها أهل الجاهلية، ويبدلونها إذا شاءوا بحجارة أعجب إليهم منها[5].

وأما ابن الكلبي فيقول فيها: (وكانت للعرب حجارة غير منصوبة،

---

(١) العنكبوت: ١٧، ٢٥.
(٢) الأصنام: ص ٥٣.
(٣) المائدة: ٩٠.
(٤) تفسير الطبري (٥٠٨/٩).
(٥) نفسه.

يطوفون بها، ويعترون عندها، يسمونها الأنصاب، ويسمون الطواف بها الدوار[1].

والذي يظهر أن هذه الكلمة ـ الأنصاب ـ كانت جامعة تشمل الأصنام والأوثان والحجارة الغفل، لأنها أطلقت على كل ما كان العرب يعظمونه بالطواف حوله والذبح عنده إلى غير ذلك من أنواع التعظيم.

ولهذا يقول ابن الكلبي: (واستهترت العرب في عبادة الأصنام ـ أي أفرطت ـ فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت، نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافة بالبيت، وسموها الأنصاب.

ثم قال: فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان، وسموا طوافهم الدوار[2] وخلاصة الكلام أن كلمة أصنام اشتهرت في التماثيل المنحوتة على صورة الإنسان، المصنوعة من الخشب أو الذهب أو الفضة.

وكلمة أوثان اشتهرت في التماثيل المنحوتة على صورة الإنسان، المصنوعة من الحجارة. وأما كلمة أنصاب: فهي كلمة عامة جامعة تشمل الأصنام والأوثان والحجارة غير المصنعة التي كان العرب يعظمونها.

واشتهار كلمة الأصنام فيما ذكر لا يمنع استعمالها في غير ذلك فقد استعملت في الأوثان كما استعملت في الصور المصورة في الحائط وغيره، ولعل ذلك هو السبب في ذكر كلمة الأصنام في القرآن الكريم أكثر من ذكر الأوثان والأنصاب فقد ذكرت كلمة الأصنام في القرآن خمس مرات، وكلمة الأوثان ثلاث مرات وكلمة الأنصاب مرة واحدة.

ولاستعمال الكلمة فيما ذكر فسرها الطبري بقوله: (الأصنام جمع صنم، والصنم تمثال من حجر أو خشب أو من غير ذلك في صورة إنسان،

(١) الأصنام ص ٤٢ ويعترون عندها يعني يذبحون ذبائح الآلهة عندها.
(٢) الأصنام ص ٣٣.

وهو الوثن، وقد يقال للصورة المصورة على صورة الإنسان في الحائط وغيره صنم ووثن)[1].

كيف نشأت الوثنية عند العرب؟

أما كيف نشأت الوثنية بين العرب، فإن ابن هشام يذكر عن ابن إسحاق، أن أول ما عرف العرب عبادة الأحجار كان بسبب كثرتهم، وتفرقهم في البلاد يطلبون الفسخ. ويقول: إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا حمل معه حجراً من حجارة مكة تعظيماً للحرم وَصَبًّا لهُ وهياماً به، وكانوا إذا نزلوا بمكان، وضعوا الحجر فطافوا به كطوافهم بالبيت وظل الأمر كذلك حتى أدى بهم إلى أن عبدوا من تلك الحجارة ما أعجبهم، حتى كانت الأجيال بعدهم، فنسوا ما كان عليه آباؤهم، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عبادة الأوثان، وظلت فيهم بقايا من دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتمسكون بها، فكانوا يعظمون الكعبة، ويطوفون بها ويحجون ويعتمرون، ويقفون بعرفة والمزدلفة، ويهدون البدن، ويهلون بالحج والعمرة[2].

وابن الكلبي يؤيد هذا القول، ولا يخالفه ويقول: فكانت سرار تقول إذا ما أهانت: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك).

يوحدونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتهم، ويجعلون ملكها بيده، يقول الله ـ عز وجل ـ لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾[3] أي ما يوحدونني بمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي[4].

ونحن نلاحظ هنا أن الوثنية نبعت من نفوس العرب، ولم تكن دخيلة

---

(١) تفسير الطبري (١١/٤٦٩).
(٢) ابن هشام م ١ ص ٧٧ ـ ٧٨.
(٣) يوسف: ١٠٦.
(٤) الأصنام ص: ٧.

عليهم، فإن تعظيمهم للكعبة، وصبابتهم بمكة، حدت بهم إلى أن يحملوا معهم في أسفارهم شيئاً من آثارها ـ ولم يكن هناك إلا الحجارة ـ فكانوا كلما حنت قلوبهم إلى مكة، نصبوا الحجارة ليروا من آثارها ما يخفف من حنينهم، وكلما اشتاقوا إلى الكعبة، طافوا حولها لعل هذا الطواف يهدىء من شوقهم. فهم بذلك يتمثلون مكة العزيزة على نفوسهم في تلك الحجارة ويتخيلون الكعبة الحبيبة إلى قلوبهم من خلالها، فهاموا بالحجارة، واعتزوا بها وعظموها تعظيم مكة، وأحبوها حبهم للكعبة، فتولدت في نفوسهم ـ نتيجة لهذا التعظيم وتلك المحبة ـ عبادتها، وهل العبادة إلا الحب والتعظيم؟. وفي الموضوع يطالعنا حديث البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ـ ﷺ ـ (رأيت عمرو بن عامر بن لحى الخزاعي، يجر قصبه في النار، وكان أول من سيب السوائب)[1].

ويروي مسلم الحديث بزيادة: (وبحر البحيرة، وغير دين إسماعيل).

وأما الطبري فيروي الحديث بصورة أتم، بسنده إلى أبي هريرة حيث يقول: (سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون: يا أكثم، رأيت عمرو ابن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به، ولا به منك، فقال أكثم: عسى أن يضرني شبهه يا رسول الله، فقال رسول الله ـ ﷺ: «لا، إنك مؤمن، وهو كافر، إنه أول من غير دين إسماعيل، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وحمى الحامي»[2]. ويذكر ابن إسحاق سبب عبادة عمرو بن لحى للأصنام فيقول: (إن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذٍ العماليق، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب،

(١) الفتح (٦/٥٤٧).
(٢) تفسير الطبري (١١/١١٨).

فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له: هبل. فقدم به مكة، فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه)[1].

ويوضح ابن الكلبي سبب خروجه إلى الشام فيقول بعد أن يذكر أنه ـ عمرو بن لحى ـ أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامية، يقول: (ثم أنه مرض مرضاً شديداً، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة أن اتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة)[2].

يقول ابن حجر: (وكان قبل ذلك في زمن جرهم قد فجر رجل يقال له أساف بامرأة يقال لها نائلة في الكعبة، فمسخهما الله ـ وعلا ـ حجرين، فأخذهما عمرو بن لحى، فنصبهما حول الكعبة، فصار من يطوف يتمسح بهما، يبدأ بأساف ويختم بنائلة)[3].

ونحن هنا نرى أن الأصنام مجلوبة إلى بلاد العرب، ولم تكن معروفة عندهم، وأنها جلبت إليهم من الشام على يد عمرو بن لحى الخزاعي.

وأما قول ابن حجر: وكان قبل ذلك في زمن جرهم قد فجر رجل. . . فإنه يحتمل أن عمرو بن لحى قد أخرجهما ونصبهما عند الكعبة ليكونا عبرة للناس، فلا يجرؤ أحد بعد ذلك على ارتكاب المعصية عند الكعبة، فلما طال بالناس الأمد عظموهما، وعبدوهما.

يقول ابن الكلبي: (وكان لهم أساف ونائلة، لما مسخا حجرين، وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما، فلما طال مكثهما، وعبدت الأصنام، عبدا معها)[4].

---

(١) ابن هشام ص ٧٧ م ١.
(٢) الأصنام ص: ٨.
(٣) الفتح (٥٤٩/٦).
(٤) الأصنام ص: ٢٩.

وهناك رواية ثالثة، يوردها الكلبي فيقول: (وكان لعمرو بن لحى رئى من الجن، وكان يكنى أبا ثمامة فقال له: عجل بالمسير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة.

قال : جير ولا إقامة.

قال : ايت ضف جدة، تجد فيها أصناماً معدة، فأوردها تهامة ولا تهاب، ثم أدع العرب إلى عبادتها تجاب. فأتى شط جدة، فاستثارها، ثم حملها حتى ورد تهامة، وحضر الحج، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة. فأجابه عوف بن عذرة بن قضاعة فدفع إليه ودا، فأقره بدومة الجندل، وأجابته مضر فدفع إلى الحارث بـن تميم بن مضر سواعا فكان برهاط من بطن نخله، وأجابته مذحج فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي يغوث وكان بأكمة باليمن، وأجابته همدان، فدفع إلى مالك بن مرثد بن همدان يعوق فكان بقرية يقال لها خيوان من أرض اليمن، وأجابته حمير، فدفع إلى رجل من ذي رعين يقال له معد يكرب نسرا فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بخلع.

ثم قال: فلم تزل هذه الأصنام تعبد، حتى بعث الله النبي - ﷺ - فأمر بهدمها)[1] وهذه الأصنام هي التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وقالوا: لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾[2]

يقول ابن الكلبي: حدثنا الحسن بن جليل، حدثنا علي بن الصباح قال: أخبرنا أبو المنذر قال: وأخبرني أبي قال: كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا قوماً صالحين ماتوا في شهر، فجزع عليهم ذووا أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً؟

---

(١) الأصنام ص: ٥٤ وما بعدها.

(٢) نوح: ٢٣.

قالوا: نعم فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم، ونصبها لهم.

فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه، فيعظمه ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول ثم جاء من بعدهم القرن الثالث، فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم.

وعظم أمرهم، واشتد كفرهم، فبعث الله إليهم إدريس ـ عليه السلام ـ نبياً، فدعاهم، فكذبوه، فرفعه الله إليه مكاناً علياً.

ولم يزل أمرهم يشتد حتى أدرك نوح ـ عليه السلام ـ فبعثه الله نبياً، وهو يومئذٍ ابن أربعمائة وثمانين سنة فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ في نبوته عشرين ومائة سنة، فعصوه وكذبوه، فأمره الله أن يصنع الفلك تفرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة، فغرق من غرق، ومكث بعد ذلك ثلاثمائة.

فعلا الطوفان وطبق الأرض كلها ـ وكان بين آدم ونوح ألفا سنة ومائتا سنة، فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام من جبل نوذ إلى الأرض، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدة، ثم نضب الماء، وبقيت على الشط، فسف الريح عليها حتى وارتها)[1].

ثم كان هتاف الرئي لعمرو بن لحى، فاستثارها، وحملها ودعا العرب إلى عبادتها فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وأقروها وعبدوها.

وعلى كل حال فإن هذه الرواية كسابقتها تؤكد أن الوثنية دخيلة على العرب، ولم تكن معروفة عندهم قبل ذلك، لأنها أما مجلوبة من الشام، ولم يكن للعرب بها سابقة، بدليل أن عمرو بن لحى حينما رآها سأل عنها ولو كان له بها علم لم يسأل سؤال الجاهل الذي يريد أن يعرف، وأما هتف بها شيطان عمرو فأجابه وأحضرها من جدة، ودعا العرب إلى عبادتها في موسم الحج فأجابوه.

---

(١) الأصنام ص: ٥١ وما بعدها.

والذي يظهر لي أن هتاف الشيطان بعمرو واستجابته له، كان بعد جلب الأصنام من الشام، وأستدل على ذلك بما يأتي:

أولاً : إن عمرو بن لحى، لم يتردد في إخبار الشيطان له، ولم يسأل عن الأصنام وما هي؟، مما يدل على أنه كان له بها معرفة سابقة، ولولا ذلك لسأل عنها كما سأل عنها حين رآها بالشام.

ثانياً : إن عمرو بن لحى وزع الأصنام حسب الرواية السابقة، فكان نصيب أهل اليمن منها ثلاثة ـ يغوث ويعوق ونسرا ـ وكان نصيب أهل الشمال منها اثنين ـ ودا وسواعا ـ ولم نره يجعل لأهل مكة منها شيئاً، مما يدل على أن أهل مكة، كان لهم من الأصنام ما يكتفون به، فلم يحتاجوا إلى شيء من هذه الأصنام.

وأغلب الظن أن تلك الأصنام التي أغنت أهل مكة عن التطلع إلى واحد من هذه الأصنام الخمسة هي تلك التي جلبها عمرو من الشام.

يقول الكلبي: (ثم أنه مرض مرضاً شديداً، فقيل له: أن بالبلقاء من الشام حمة أن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها، فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة[1].

نخلص من هذا العرض برأيين: أحدهما أن الوثنية ديانة نشأت عند العرب، ونبعت من أنفسهم، والثاني أنها ديانة غير معروفة عند العرب، وجلبت إليهم من خارج بلادهم.

ونحن إذا أردنا ترجيح أحد الرأيين واجهتنا قوة الأدلة التي تؤيد كل رأي، حيث أن أدلة كل رأي جاءت في كتب التاريخ المعتبرة لدى المؤرخين، والمشهورة بصحة روايتها فالرأي الأول رواه ابن هشام نقلاً عن

---

(١) الأصنام ص: ٨.

ابن إسحاق، كما رواه ابن الكلبي في كتابه - الأصنام - والرأي الثانى رواه ابن حجر في فتح الباري عن محمد بن حبيب نقلاً عن ابن الكلبي، كما رواه الطبري في تفسيره، كذلك رواه ابن هشام في السيرة عن بعض أهل العلم.

وهكذا ترى الأدلة متكافئة لا يقل بعضها عن بعض في القوة، فوجب أن نسير إلى التوفيق بينها ما أمكن ذلك. إن إهمال أحد الرأيين مع قوته تجاهل لا ينبغي فعله من الباحثين، كما أن ترجيح أحدهما بلا مرجح تقديم لما لا يستحق التقديم، وهو عمل لا يقل استهجاناً عن سابقه.

والذي أراه أن العرب باستصحابهم حجارة مكة، وتعظيمهم لها، قد تهيأت نفوسهم للوثنية، وتطلعت لها من غير أن يعرفوا كنهها، فلما رحل عمرو لحى إلى الشام وجلب (هبل) من هناك نصبه عند الكعبة، وأمر العرب بتعظيمه وعبادته[1] فأطاعوه ووجدوا في عبادتهم له ترجمة لما كان يجول بنفوسهم من غير أن يدركوه وظل (هبل) وحيداً في مكة يعبده أهلها، ومن قدم من أطراف الجزيرة إليها.

فلما نفخ الشيطان في قلب عمرو: جلب الأصنام الخمسة من جدة، أحضرها في موسم الحج، ودعا العرب إلى عبادتها فأجابوه فوزعها على أهل الجزيرة على النحو السالف، فأصبح في كل جهة من جهات الجزيرة صنم يعبد، وفرح به أهل جهته، وكيف لا؟ وقد أصبح لهم إله كأهل مكة يعبدونه، ويترقبون الخير من الإخلاص له، ويتقربون إليه بالعتائر والقرابين.

وهكذا انتشرت الوثنية في الجزيرة، وتعصب لها العرب في أنحائها المختلفة، حتى أصبحت الديانة العامة لسكان الجزيرة دون منازع، وظلت كذلك فترة من الزمان حتى ظهرت اليهودية في يثرب، والنصرانية في نجران، فشارك الدينان الجديدان الوثنية، وانتزعا منها بعض أنصارها، فدان باليهودية أناس، وتعصبوا لها، كما دان بالنصرانية آخرون وتعصبوا لها، ولكن

---

(١) ابن هشام م ١ ص ٧٧.

الدينين ـ اليهودية والنصرانية ـ لم يجدا حظّهما وافراً في الجزيرة، كما وجدته الوثنية دين العرب الأول.

أثر الوثنية في الشخصية العربية

لقد اعتنق العرب الوثنية عقيدة، وأخلصوا لها كدين ملأ عليهم حياتهم التي أقفرت بعد ابتعادهم عن ملة إبراهيم عليه السلام. ولقد أثرت هذه العقيدة في حياتهم تأثيراً قوياً، وطبعتهم بطابع انعكس على حياتهم كلها حتى أصبحت الشخصية العربية التي كانت تأبى طاعة غيرها طيعة لهذه الأصنام، والتي كانت تأنف من الخضوع لكائن أياً كان خاضعة لتلك الأوثان، والتي اتخذت الحرية قانوناً في حياتها أسيرة لهذه الحجارة.

ولقد كانت طاعة العربي لآلهته بغير حدود، وخضوعه لحكمها بغير شروط، وعبوديته لها بغير قيود فلا يظعن منهم ظاعن إلا بأمرها، ولا يقيم مقيم إلا برأيها، ولا يعمل عملاً بغير مشورتها، ولا يكف عنه إلا نزولاً على رغبتها، فكانوا يشدون إليها الرحال ويستشيرونها في كل حال يكثرون عندها الزحام، ويستقسمون لديها بالإزلام، يقربون لها القرابين ويقفون أمامها خاشعين، ويعترون عندها العتائر[1]، أملاً في شفاء المريض وهداية الحائر.

وبلغ من حبهم لها، أنهم كانوا يسمون أبناءهم بأسمائها، فكانوا يسمون عبد مناة، وزيد مناة، وعبد العزى وزيد اللات وتيم اللات، وهكذا.

وكانوا يعظمونها تعظيماً شديداً حتى أن الرجل منهم ليستشيرها في خاصة أمره ومكنون سره، ولقد أدى حبهم لها وتعظيمهم لشأنها إلى ترويضهم على الطاعة بعد التمرد والعصيان، فكان الرجل يعزم على الأمر ويأخذ له ويعد له عدته، فإذا قال له ربه: لا، رجع عن عزمه، وانثنى عن قصده، وعاد إلى بيته وكأن لم يكن شيء.

فكانت طاعتهم لآلهتهم بداية الطريق ليتعلموا الخضوع والطاعة لمن

(١) العتر المذبح والعتائر الذبائح.

يؤمنون به ويدينون له فأثر ذلك في شخصيتهم، ومهدها لقبول الحق الذي سيأتيهم بعد ذلك.

ومن جهة أخرى فقد كان تعدد الآلهة، وتفرقها ذا أثر سيء في كيان الأمة العربية، ساعد على تمزقها وتفتيت وحدتها، لأن أفراد كل قبيلة تعصبوا لإلهـهم إلى جانب تعصبهم للقبيلة، مما جعل العصبية تشتد وتشتد، وبعدت الشقة بين القبائل بعضها وبعض، وبالتالي أدى ذلك إلى صعوبة جمع هذه الأمة على كلمة واحدة، كما أدى إلى زيادة العداوة بين القوم، حتى تسبب عن ذلك نفور القبائل من الحق الذي جاءهم على يد شخص من غير قبيلتهم.

إذن فقد كان للوثنية أثران متناقضان في شخصية الإنسان العـربي **أحدهما**: الطاعة والخضوع لهذه الأوثان التي اتخذوها آلهة من دون الله مما هيأهم لقبول الدعوة إلى طاعة الله بعد أن آمنوا به.

وثانيهما: تفرق الناس وتعدد نزعاتهم تبعاً لتعدد الآلهة التي تعصب لها أتباعها. على أن هذين الأثرين لم يتغلغلا في نفوس النـاس جميعاً في الجزيرة، ولم يظهرا في كل طوائفها فقد قرأنا عن بعض أفراد من العرب، لما كانت قسمة الآلهة ليست في مصلحتهم ثاروا على الآلهة بل وحطموها وسخروا منها.

يقول ابن الكلبي: وكان لمالك وملكان ابني كنانة، بساحل جدة وتلك الناحية صنم يقال لـه سعد، وكان صخرة طويلة، فأقبل رجل منهم بإبلٍ له ليقف عليه يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه، نفرت منه ـ وكان بهران عليه الدماء ـ فذهبت في كل وجه، وتفرقت عليه، وأسف، فتناول حجراً فرماه به وقال: (لا بارك الله فيك إلَهاً، أنفرت على إبلي) ثم خرج في طلبها حتى جمعها، وانصرف عنه، وهو يقول:

أتينـا إلى سعد ليجمـع شملنـا ... فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهـل سعد إلا صخـرة بتفـوفـه ... من الأرض، لا يدعى لغيّ ولا رشد[1]

(١) الأصنام ص ٣٦ ـ ٣٧.

وهذا رجل آخر من العرب، قتل أبوه فخرج إلى ذي الخلصة ـ وكان من آلهتهم ـ فاستقسم عنده، بالازلام، يطلب ثـأر أبيه، فخرج السهم ينهاه عن ذلك، فلم ينصع لنهيه، وخرج على مشورته وقال:

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكـان شيخـك المقبـورا
لم تنه عن قتل العداة زورا[1]

وهذا مالك بن كلثوم الشمجي أطرد سادن (الفلس) ـ إله طيء ـ ناقة لامرأة من كلب كانت جارة لمالك بن كلثوم، وذهب السادن بالناقة إلى (الفلس) وأوقفها بفنائه.

وكان الفلس كما يقول ابن الكلبي: انفاً أحمر في وسط جبل طيء الذي يقال له: أجأ، كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه، ويهدون إليه ويعتزون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا أمِنَ عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له، ولا تخفر حويته[2]، هكذا كان (الفلس) وظن السادن أن الناقة التي أطردها أصبحت ملكاً للإآله حيث دخلت حوزته وحرمه، ولم يسبق أن خفر أحد من القوم حوزة الفلس.

ولكن مالك بن كلثوم لم يرع حرمة الفلس، فلم تكد جارته تخبره بما فعل السادن حتى ذهب أليه على فرس عرى، وأخذ رمحه، وأدركه وهو عند الفلس، والناقة واقفة في حرمه ـ فقال مالك للسادن: خل سبيل ناقة جارتي.

فقال السادن : إنها لربك.
قال مالك : خل سبيلها.
قال السادن : اتخفر إلّهك؟ فوجه مالك الرمح إلى السادن، فخاف السادن وحل عقال الناقة، وذهب بها مالك، وردها إلى جارته.

---

(١) نفسه ص: ٣٥.
(٢) نفسه ص: ٥٩.

لم يرضَ السادن بهذا الفعل من مالك، فاستعدى عليه إلّهه، ورفع يديه، وقال:

يا رب إن مالك بن كلثوم أخضرك اليوم بناب علكوم

وكنت قبل اليوم غير مغشوم

وكان السادن يحرض إلّهه على مالك بذلك الشعر.

يقول ابن الكلبي: وعدي بن حاتم يومئذٍ قد عثر عنده، وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك، وفزع لذلك عدي بن حاتم، وقال: أنظروا ما يصيبه في يومه هذا، فمضت له أيام لم يصبه شيء.

فرفض عدي عبادته وعبادة الأصنام، وتنصر، فلم يزل متنصراً حتى جاء الله بالإسلام فأسلم فكان مالك أول من أخفره، وكان بعد ذلك السادن إذا أطرد طريدة أخذت منه[1].

هؤلاء أناس من العرب، تمردوا على آلهتهم، وأخفروا حرمتها، ولكنهم ـ كما نرى ـ نفر قليل، لا يعتبرون شيئاً إلى جوار هذه الكثرة الهائلة من العرب الذين خضعوا لها، ودانوا بامتثال أمرها، والنزول على مشورتها. والقرآن الكريم يحكي رأي الكثرة الغالبة منهم، بعد أن ذهبوا إلى الرسول ـ ﷺ ـ وطلب منهم أن ينبذوا آلهتهم، ويعبدوا الله وحده، فانصرفوا قائلين: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب)[2] وراح بعضهم يوصي بعضاً بالصبر والثبات على عبادة الآلهة (وانطلق الملأ منهم أن أمشوا وأصبروا على آلهتكم، إن هذا لشيء يراد)[3].

ويذكر ابن الكلبي شدة حرصهم على عبادة هذه الآلهة، وتمسكهم بها فيقول: (مرض أبو أحيحة ـ وهو سعيد ابن العاص بن أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف ـ مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه أبو لهب يعوده، فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بدّ منه؟

---

(١) الأصنام ص: ٦١.

(٢) ص: ٥.

(٣) ص: ٦.

قال: لا، ولكني أخاف ألا تعبد العزى بعدي. قال أبو لهب: والله ما عبدت حياتك لأجلك ولا تترك عبادتها بعدك لموتك، فقال أبو أحيحة: (الآن علمت أن لي خليفة) وأعجبه شدة نصبه في عبادتها[1].

وإننا نستطيع بعد ذلك أن نعلل كيف استسلمت هذه العقليات للخرافات والأوهام؟ إن العقول التي دانت لحجارة نحتتها بأيديها، وخضعت لأصنام صنعتها بأنفسها، واعتقدت أن هذه الأوثان تضر وتنفع، وتستطيع أن تنتقم لنفسها، وتثأر لحرماتها، هذه العقول التي اتصفت بذلك، لا نستبعد أن تخاف من الغول وهو محض وهم، وأن تحسب للعنقاء ألف حساب وهي خيال صرف.

كما أننا لا نستغرب بعد ذلك أن يحبس القوم أعز إبلهم لأصنامهم، لأنها ـ في اعتقادهم ـ هي التي تجلب لهم الخير، وتدفع عنهم الشر، وتبارك لهم في التجارة، وتنصرهم وقت الغارة، وتمطرهم إذا أجدبوا، وتردهم ألى ديارهم سالمين إذا أغربوا.

لهذا لم يكن عجباً أن يتحفوها بكرائم أموالهم، ويخصوها بأنفس إبلهم، فجعلوا لها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وبالغوا في تعظيمها، وتصدوا للدفاع عنها، وتعصبوا أشد التعصب في عبادتها.

وكان لهذا التعصب لها والمبالغة في تعظيمها أثر سيء في نفوسهم، حيث دفعهم التعصب إلى الكفر بسواها فعاندوا الحق، واستكبروا على قبول الهدى، وحالت المبالغة في تعظيمها بينهم وبين الاعتراف بوجود إلّه غيرها، فأنكروا وجود الإلّه المستحق للعبادة وحده ـ سبحانه ـ وجعلوها شركاء له ـ جل شأنه ـ والنتيجة الحتمية لذلك هذا الموقف العنيد الذي أبدوه عندما جاءهم الهدى، وهذا الإصرار العنيف الذي واجهوا به دعوة الحق حينما جاءهم بها رسول الله ـ ﷺ ـ وإذا دل ذلك على شيء فإنما يدل على السذاجة التي اتصف بها القوم، والسطحية التي كانت السمة المميزة لهذا المجتمع،

---

(١) الأصنام ص: ٢٣.

والعجيب الذي يدهش الناظر في صفات الأفراد في هذا المجتمع أنه يجد في مطلع هذه الصفات الذكاء الذي روي منه الكثير في الكتب التي تعرضت لحياة العرب في الجاهلية والإسلام على حد سواء، ولكن كيف لم يهد هذا الذكاء أولئك الأذكياء إلى الحقيقة الماثلة أمامهم، إلى حقيقة هذه الأوثان التي صنعوها بأيديهم، ثم اتخذوها آلهة، يضرعون إليها في شدتهم، ويهدون لها في رخائهم؟

لا شك أن هذا أمر يحير العقول، ولا يمكن تعليله إلا بالإلف والعادة، فقد ورث القوم عن آبائهم عبادة هذه الأصنام، واعتادوا تعظيمها منذ طفولتهم، فألفوا ذلك، ونشأوا عليه، ويصعب على النفس أن تألف شيئاً وتعتاده ثم تتركه بسهولة، وهذا أمر مشاهد ملموس فإننا نرى كثيراً من الناس يتعلقون بعادات تخرجهم عن السمت الذي يليق بهم، كمن يدخل إصبعه في أنفه في مجلس الناس وعلى الطعام، ومن يقضم أظافره بفمه وهو يتبادل الحديث مع الناس، إنها ولا شك عادات سيئة، وهم يعلمون ذلك، ويودون لو تخلصوا منها، ومع ذلك فإنهم يجدون شدة ومعاناة في التخلص من هذه العادات، فكيف ينشأ وفوق رأسه صنم، وشب فوجد آباءه يعبدونه، وترعرع فرأى في ذهابه وإيابه قومه يقدسونه، ويتقربون إليه؟.

أمر طبيعي إذن أن يعمي الإلف والعادة أعين الناس فلا يرون الحق، وأن يصمّا آذانهم فلا يسمعون النصح وأن يعطلا ذكاءهم فيقفوا بلهاء أمام أوضح الأمور، وأبسط المسائل حتى إذا اتضحت الحجة، وظهرت جلية الأمر تشبثت نفوسهم بما ألفوه، وتعلقت قلوبهم بما اعتادوه، وقالوا قولة الأطفال البسطاء، يحكيها عنهم القرآن الكريم ﴿قالوا: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾[1].

هكذا قالوا لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وهكذا قالوا لمحمد ـ ﷺ ـ : ﴿بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مهتدون﴾[2] وهذا هو

(١) الشعراء: ٧٤.

(٢) الزخرف: ٢٢.

منطقهم مع كل رسول جاءهم بالتوحيد، وندد بالوثنية والوثنيين، ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[١].

وكثيراً ما يخلو الإنسان بنفسه ليفاجأ بها تهوي إلى وادٍ سحيق ويراها وهي تتردى فيحاول إنقاذها، ويتوقد ذكاؤه ويلمس بفطنته ما هو عليه من خطأ، فيعجل بإصلاحه، ويسرع في سلوك الصراط المستقيم.

وإننا في الجاهلية لنرى نماذج ـ وإن كانت قليلة ـ تمثل هذا الاتجاه، وتقرر تلك الحقيقة، ومن أمثال هؤلاء: ورقة بن نوفل، قس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نفيس، كما نرى ذلك واضحاً بعد مجيء الإسلام، ورغم المعارضة العنيفة التي لقيها رسول الله ـ ﷺ ـ من القوم، إلا أننا وجدنا نماذج رائعة من هذا الطراز، بقدر تعصبهم للوثنية كان تعصبهم للإسلام، وبقدر شدتهم على المسلمين الأولين، كانت قسوتهم على المشركين والملحدين، وليس هناك فرق بين الحالين، إلا لحظة وضوح رأى فيها هؤلاء العباقرة بطلان ما هم عليه، ووجود الحق عند غيرهم، فهرعوا إليه.

ويمثل هذه الطبقة: عمر بن الخطاب، عمرو بن العاص، وخالد ابن الوليد ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وإننا لنرى وضوح الخطأ في أذهانهم باتجاههم إلى الصواب، ترجموه عملياً بدخولهم في الإسلام، ثم ترجمه خالد بن الوليد بقوله وهو يهدم العزى ويحرقها على رؤوس عابديها.

يا عز كفرانك لا سبحانك   إني رأيت الله قد أهانك[٢]

وكما عبر خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ عن عقيدته وأعلن كفره بالعزى، رأينا قبله زيد بن عمر بن نفيل في الجاهلية يعلن كفره بالأصنام جميعاً، ويعتذر عن فترة دينونته لها بأنه كان صغير العقل فيقول:

تركت اللات والعزى جميعاً   كذلك يفعل الجلد الصبور

(١) الزخرف: ٢٣.
(٢) الأصنام ص: ٢٦.

فـلا العـزّى أدين ولا ابنتيهـا ولا صنَمَـي بـنـي غـنـم أزور
ولا هــبــلا أزور وكــان ربــاً لنا في الدهر إذ حلمي صغير(١)

فماذا في يثرب؟

لم تكن يثرب بمعزل عن الجزيرة ولم يكن أهلها على خلاف مع القوم، بل كانوا على دين إخوانهم، يعظمون الأوثان، ويقدسون ما يقدسه سائر العرب في أنحاء الجزيرة، إلا أنهم كانوا أكثر تعظيماً (لمناة) عن غيره من الأصنام الأخرى.

ورغم وجود اليهود في يثرب، ورغم تأثيرهم الكبير في الحياة فيها، إلا أن الأوس والخزرج أو عامتهم لم يتخذوا اليهودية ديناً لهم، ولم يستبدلوها بالوثنية، بل ظلوا على عبادة هذه الأحجار، يستنصرون بها على أعدائهم، ويستمطرون بها إذا أجدبوا، ويذبحون عندها قرابينهم، ويحلقون بين أيديها رؤوسهم إذا انصرفوا من حجهم.

ورغم قربهم من النصرانية التي كانت تقطن حدود الجزيرة الشمالية، وتسيطر على بلاد الشام، ورغم اختلاط أهل يثرب بهم في رحلاتهم المتكررة إلى تلك الجهات، فإن النصرانية لم تجد لها طريقاً إلى قلوب أهل يثرب، فلم نسمع عن رجل منهم تنصر، وترك عبادة الأوثان، سوى شخصين عرفا بالنصرانية هما أبو قيس عرمة بن أنس، وأبو عامر عهد عمرو بن صيفي.

إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عميق ما تركته الوثنية في قلوب القوم، وعلى هيمنة تلك الديانة على نفوسهم، إذ لا شك أن اليهودية على ما فيها من تحريف وتبديل والنصرانية على ما اختلط بها من تثليث وتجسيم، خير من الوثنية التي لا يجد لها العقل السوي مساغاً لتستقر هذا الاستقرار في أعماق هؤلاء المفتونين بها.

---

(١) الأصنام: ٢٢.

ولعل أهل يثرب لم يعتنقوا اليهودية رغم وجودها بينهم، لأسباب أهمها على ما يظهر من دراسة العلاقات بينهم وبين اليهود ما يأتي:

١ ـ ما كان بين اليهود والعرب من خصومات أدت في كثير من الأحيان إلى الدخول في معارك دامية، هزم فيها العرب في بداية الأمر، ثم هزم فيها اليهود هزيمة مكنت للعرب من السيطرة، وأخضعت لهم اليهود فعاشوا في كنفهم وحالفوهم.

٢ ـ ما كان يتصف به اليهود من الصلف والغطرسة، فقد كانوا يحتقرون العرب، ويزعمون أنهم شعب الله المختار فلا يليق بهم أن يختلطوا بهؤلاء الأميين، وقد أدى ذلك إلى نفور العرب منهم، وبغضهم لكل ما يأتي من جهتهم ولو كان ديناً.

٣ ـ اعتقاد العرب أن اليهود قوم دخلاء على البلاد، ويتبع ذلك أن يكون دينهم ليس دين السكان الأصليين فهم لا يجدون في أنفسهم ميلاً لاعتناق دين لم يجدوا عليه آباءهم وأسلافهم.

وهذا السبب الأخير هو المانع على ما يظهر من اعتناق أهل يثرب للنصرانية، واستمرارهم على دين آبائهم الأولين.

كانت الوثنية هي الديانة السائدة في يثرب، وكان اليثربيون يعظمون (مناة) تعظيماً انفردوا به على سائر آلهة العرب حتى أنهم كانوا لا يحلون من حجهم إلا إذا أتوه فوقفوا عنده، وحلقوا رؤوسهم، ونحروا هديهم.
يقول بن هشام: وكانت مناة للأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد[١].

وابن الكلبي يصف (مناة) بأنه كان أقدم الأصنام كلها. وكانت العرب تسمى عبد مناة وزيد مناة.

ثم يقول: وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد،

(١) ابن هشام م ١ ص ٨٥.

بين المدينة ومكة، وكانت العرب جميعاً تعظمه، وتذبح حوله وكانت الأوس والخزرج، ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج[1].

وكان الأوس والخزرج ومن يدين بطريقتهم من عرب يثرب وما حولها يعتقدون أن حجهم لا يتم إلا إذا أتوا (مناة) وحلقوا رؤوسهم عنده، فكان ذلك أقوى الأدلة على تعظيمهم له، واعتقادهم فيه.

يقول أبو المنذر: وحدثنا رجل من قريش عن أبي عبيدة بن عبد الله ابن أبي عبيدة بن عمار بن ياسر (وكان أعلم الناس بالأوس والخزرج) قال: كانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب وغيرها، فكانوا يحجون، فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوه، فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك، فلإعظام الأوس والخزرج يقول عبد العزى بن وديعة المزني:

إني حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج[2]

هكذا كانت الوثنية هي الديانة المسيطرة على يثرب كما كانت مسيطرة على الجزيرة العربية كلها، وكما قلنا لم تستطع اليهودية أو النصرانية أن تنتزع منها هذا السلطان، بل ظلت حتى مجيء الإسلام ديانة القوم التي لا يعدلون بها أي دين مهما كان، حتى دخلوا في الإسلام.

٢ ـ النصرانية

النصرانية هي الديانة التي جاء بها عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ وهي امتداد لليهودية التي جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ يدل على ذلك ما ورد في إنجيل متى: إن يسوع خرج إلى نواحي صور وصيدا، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة: إرحمني يا سيد يا ابن داود،

---

(١) الأصنام ص: ١٣.
(٢) الأصنام ص: ١٤.

ابنتي مجنونة جداً، فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه، وطلبوا إليه قائلين: أصرفها لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة[1].

وكان من الطبيعي أن نتكلم عن النصرانية بعد الكلام عن اليهودية، ولكني آثرت الكلام عن النصرانية أولاً لما يأتي:

١ ـ لأنها لم تعش طويلاً في الجزيرة العربية كما عاشت اليهودية التي وجدت قبل الإسلام بقرون وعاصرت الإسلام.
٢ ـ لأنها لم يكن لها أثر واضح في الحياة في يثرب كما كان لليهودية حيث أثرت في الموضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.
٣ ـ إنها وجدت في حيز ضيق جداً من الجزيرة ولم تنتشر فيها انتشار اليهودية التي كان لها مراكز في الشمال كما دخلت الجنوب وحكمت في اليمن.

هذه الأسباب تجعل الكلام عن النصرانية كديانة عاشت في بلاد العرب موجزاً، وقد قدمت الوثنية عليها بالكلام لأنها الديانة العامة للسكان، ولأنها أقدم الديانات التي كانت في جزيرة العرب إذ ذاك.

كيف دخلت النصرانية الجزيرة العربية؟:

دخلت النصرانية جزيرة العرب على يد رجل نصراني عرف عند أهل السير والتاريخ باسم فيميون، وتصفه كتب السيرة بأنه رجل صالح زاهد في الدنيا، وكان مستجاب الدعوة، ينتقل بين القرى، ولا يستقر في مكان يعرف فيه، وكان لا يأكل إلا من كسب يده.

وكان فيميون قد اتخذ البناء مهنة، يكسب منها رزقه، ومع ذلك كان يعظم يوم الأحد فلا يعمل فيه شيئاً، وكان يجعله لعبادة ربه، فيخرج يوم الأحد إلى فلاة من الأرض يتنسك فيها ويصلي حتى يمسي.

وفطن له ذات يوم رجل من أهل قرية بالشام كان فيميون يتعبد فيها

(١) المسيحية ص: ٥٥.

مستخفياً، فأحبه الرجل حباً شديداً وتعلق به، دون أن يفطن فيميون له.

خرج فيميون يوم الأحد للعبادة، وتبعه الرجل، وهو لا يدري، وجلس ينظر إلى صلاته وعبادته، وبينما هو يصلي خرج عليه تنين ضخم، فدعا عليه فمات على الفور، ولكن صالحاً، صاحب فيميون الذي خرج في أثره خاف على فيميون من التنين فصاح يا فيميون التنين قد أقبل نحوك، وفيميون لم يلتفت لندائه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها.

عرف فيميون أنه قد عرف وكشف أمره فعزم على الخروج من القرية، وعرف صالح بالتالي أن فيميون قد عرف منه ما كان يخفيه، فقال صالح لفيميون: يا فيميون والله لقد أحببتك، وأردت صحبتك، فقال فيميون: أمري كما رأيت فإن استطعت أن تقوى عليه فنعم، فلزمه صالح.

وكان من صفات فيميون أنه كان إذا صادف إنساناً به ضر دعا له فشفى، وإذا دعى إلى إنسان به ضر لم يذهب إليه، وكان لرجل من أهل قرية بالشام ابن ضرير فسأل عن فيميون وعرف حاله، فاحتال ليدخله على ولده، وأوهمه أن عنده في البيت عملاً، وطلب منه أن يذهب معه ليراه، ويشارطه على عمله، فذهب معه فيميون، ولم يكد يدخل حجرة الضرير حتى أسرع الرجل وكشف عن ابنه الغطاء وطلب من فيميون أن يدعو له ففعل، فقام الصبي لا يشكو بأساً.

وعرف فيميون أنه قد عرف، فخرج من القرية وتبعه صالح. وفي طريقهما مرا بشجرة عظيمة، فسمعا منها صوتاً ينادي فيميون، وأوقفه، وطلب منه ألا يبرح حتى يقوم على أمره فإنه سيموت في تلك الساعة، وظل فيميون قائماً على الرجل حتى واراه، وانصرف، وتبعه صالح حتى وطئا بعض بلاد العرب، فاختطفتهما سيارة وخرجت بهما حتى باعتهما في نجران.

وكان أهل نجران على دين العرب يعبدون نخلة طويلة، وقد جعلوا لها عيداً، فإذا كان يوم العيد ألقوا على النخلة كل ثوب حسن وعلقوا عليها حليّ النساء، ثم يخرجون إليها فيعكفون عندها طول اليوم.

باعت السيارة المختطفة فيميون لأحد أشراف نجران، وباعت صالحاً لرجل آخر، وقد خصص سيد فيميون له بيتاً يسكنه، فكان إذا قام في الليل يصلي ويعبد الله أضاء الله له البيت من غير سراج، فرأى ذلك سيده فعجب لأمره، فسأله عن دينه، فأخبره فيميون بدينه، ثم قال له: إن الذي أنتم عليه باطل، وإن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع، وإذا دعوت عليها إلَهي الذي أعبده ـ وهو الله وحده لا شريك له ـ أهلكها، فقال له سيده: فافعل، فإن كنت صادقاً دخلنا في دينك.

فقام فيميون، فتطهر وصلى، ودعا الله ـ عز وجل ـ فأرسل عليها ريحاً فاقتلعتها من جذورها وألقتها.

ورأى ذلك أهل نجران فآمنوا بدينه، فحملهم على الشريعة التي جاء بها عيسى بن مريم ـ عليه السلام[1].

وهكذا دخلت النصرانية جزيرة العرب، واستقرت في الجنوب في بلاد نجران.

ونحن نلاحظ أن النصرانية انتشرت في نجران على يد فيميون وصاحبه، واعتنقها سكان البلاد من غير تبشير ولا إغراء، ولم يكن لدى فيميون مشاف يعالج فيها المرضى، ولا مدارس يعلم فيها الأطفال ولا أموال يغري بها البسطاء الفقراء، ولكنه كان ذا إيمان عميق، وصلة بالله لا تنقطع، ويكفي أنه كان على الحق الذي لا يماري فيه أحد في زمانه، حيث لم يكن آنئذٍ دين صحيح غير النصرانية، والحق دائماً يعلو ولا يعلى عليه.

لهذا استجاب أهل نجران لفيميون عندما رأوا أنه على الحق، وهكذا الفطرة السليمة التي لم تتلون بألوان الحضارة ولم تتلوث بأدران المادية تخضع للحق عندما تراه، وتذعن له ولا تتردد في قبوله.

عبرت النصرانية الجزيرة العربية، واستقرت في جنوبها، ولكنها لم

---

(١) ابن هشام (١/٣٢ وما بعدها).

تترك الشمال خالياً، بل خلفت وراءه دولتين كبيرتين في شمال الجزيرة هما دولة المناذرة في الحيرة، على حدود فارس، ودولة الغساسنة على حدود الشام، كما كان لها معابد في وادي القرى[١].

ووجود النصرانية في وادي القرى كان له أثر كبير في اعتناق بعض الشخصيات المشهورة في يثرب لها، حيث أن وادي القرى من أعمال يثرب[٢].

فمن هذه الشخصيات أبو قيس صرمة بن أبي أنس من بني النجار، فقد روى أصحاب السير أنه ترهب ولبس المسوح، وهجر الأوثان، واتخذ مكاناً للعبادة لا تدخله طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم[٣].

ومنهم أبو عامر عبد عمرو بن صيفي الأوسي المشهور بالراهب، وكان سيداً في الجاهلية وقد ترهب ولبس المسوح[٤]. وإننا لنلاحظ سوراً في القرآن الكريم مدنية تعرضت لذكر عيسى ـ عليه السلام ـ وفندت رأي النصارى فيه، من أنه هو الله مرة، أو أنه ابن الله مرة أو أنه وأمه إلٰهان من دون الله إلى غير ذلك من شبه النصارى الباطلة التي تناولتها تلك السورة وإذا رجعنا إلى سورة النساء الآية (١٧١) والمائدة في الآيات (١٧، ٧٢، ١١٢ ـ ١١٨) والتوبة الآية (٣٠) لوجدنا عرضا لتلك الشبهات ورداً حاسماً عليها مما يؤيد أنه كان في يثرب عند نزولها أقوام يقولون بهذه الأباطيل ويعتقدونها.

وأياً كان الحال في يثرب بالنسبة لوجود النصارى فإنهم لم يكن لهم مركز ذو بال يلفت النظر، ويشعر بخطر يهدد الحياة، ويقلق أمن الناس كما هو الشأن في اليهود الذين عاشوا في يثرب في تلك الحقبة من الزمان.

والذي يظهر أن وضع النصارى في مكة كان أقوى منه في يثرب، فقد

---

(١) فجر الإسلام ص: ٢٥.
(٢) معجم البلدان (٤/٨٧٨).
(٣) مختصر سيرة الرسول ص: ٥٠.
(٤) نفس المصدر ص: ٥١.

ثبت أن جالية من النصارى كانت تسكن مكة ومنهم التجار والصناع والعمال، حتى عدت كتب السيرة بـأن الكعبة منهم.

يقول الأستاذ الشريف: (وقد كان أثر النصرانية في مكة أكثر من أثر اليهودية، فإن بعض رجال مكة الذين تبرموا بالوثنية، وخرجوا عليها تنصروا، أمثال ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث)[1].

ونستطيع أن نقول بعد ذلك، إنَّ النصراينة إنْ وجدت في يثرب وضواحيها واختلط بمعتنقيها التجار والرحالة من أهل يثرب؛ إلا أنها كانت في نفوس أصحابها، وكانوا هم راضين بها ديناً ومذهباً، فلم تحركهم لاحتلال مراكز سياسية فيها ولم تنزع بها إلى سيطرة اقتصادية على سكانها.

ولهذا لم يكن للنصرانية في يثرب جولات مع أهلها، ولم تذكر كتب السيرة، ولا كتب التاريخ شيئاً من نجاح النصارى مع اليثربِيّين كما هو الحال مع اليهود حيث تعرضت هذه الكتب نفسها لمؤامراتهم، وملئت صفحاتها بما كانوا يحيكون لأهل يثرب من الكيد وبما كانوا يكنون في نفوسهم لهم من الحقد.

٣ ـ اليهودية

اليهودية هي الديانة التي جاء بها موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ وقد دخلت هذه الديانة بلاد العرب من قديم الزمان على ما بيناه سابقاً في فصل السكان، وسواء صحت الرواية التي ذكرت أنهم دخلوها في عهد موسى ـ عليه السلام ـ أو صحت غيرها من الروايات، فإنه مما لا شك فيه أن اليهود سكنوا الجزيرة العربية، وكان لهم في جهاتها المختلفة سواء الشمال منها أو الجنوب أثر واضح في الحياة وقد انعكس أثرهم على حياة السكان الذين خالطوهم، وعاشوا معهم، وتلونت الحياة العامة بألوان لم يكن للعرب أن يعرفوها لولا مخالطة اليهود، وتأثيرهم.

---

(١) مكة والمدينة ص: ٢٣٤.

واليهود في هذه الحقبة من الزمن لم يكونوا شحيحين بنشر ديانتهم وتعميمها كما يزعم كثير من المؤرخين الذين نقلنا أقوالهم فيما سبق ذكره، ولكنهم كانوا حريصين على اعتناق العرب لها، وتدينهم بها، لأنهم كانوا يشعرون بالغربة وهم يقيمون بين العرب، وبالوحشة وهم يسكنون بعيداً عن ديارهم، فأرادوا أن يعوضوا عن ذلك بإدخال العرب في ديانتهم حتى يجدوا فيهم أهلاً يأنسون بقربهم، وفي ديارهم وطناً يطمئنون فيه على أملاكهم.

ونحن بهذا لا ننفي مطلقاً شح اليهود بديانتهم على غيرهم، فهذه هي الصفة الأصيلة فيهم، ولكنهم أباحوا لأنفسهم ذلك تحت ضغط الحاجة الملحة والحرص على الأمن والاستقرار في تلك البقاع التي يسيطر عليها غيرهم من البشر.

والدليل على أنهم كانوا يعملون على نشر اليهودية ما رواه المؤرخون من خروج حبرين من أحبار اليهود في المدينة إلى تبع عندما عزم على تخريب المدينة واستئصال أهلها، وقطع نخلها، خرج إليه الحبران، وكانا كما يقول ابن هشام، عالمين راسخين في العلم، فحذراه مغبة ما يريد، ونصحاه بالعدول عنه، فرأى أن لهما علماً، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة وتبعهما على دينهما.

وعمل تبع بدوره ومعه الحبران على إقناع أهل اليمن بالعدول عن عبادة الأوثان والدخول في اليهودية وتحاكموا إلى النار فظهر الحق مع الحبرين وتبع، فدخل أهل اليمن في اليهودية، يقول ابن هشام: (فأصفقت عند ذلك حمير على دينه ـ أي دين تبع ـ فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن)[1].

ونحن نلاحظ هنا أن الحبرين قد رضيا بدخول تبع في اليهودية، وسارا معه لينصراه، ويؤيداه، وقد فعلا ذلك عندما طلب أهل اليمن المحاكمة إلى النار ليظهر الحق فيتبعوه.

---

(١) ابن هشام (١/٢٧).

ونلاحظ هنا أيضاً ملاحظة هامة وهي أن اليهود قد حرصوا على اعتناق تبع لليهودية، لأنه شخصية مرموقة وذات أهمية بالنسبة لهم، فهو ملك وقائد جيش، واعتناقه اليهودية يجعل لهم سنداً قوياً وقوة يحتمون بها إذا حزبهم أمر، ويلجئون إليها إذا نزلت بهم نازلة.

ولعلنا بذلك نستطيع التوفيق بين القولين: فأما القول الذي ينسب إليهم احتكارهم للديانة اليهودية، وقصرها على أنفسهم فذلك بالنسبة للعامة من الناس، وأما ما حصل فعلاً من دعوة تبع لليهودية، واعتناقه لها فإن ذلك يكون بالنسبة للشخصيات الهامة التي تنفعهم، ويستفيدون من دخولها في دينهم.

ولكننا نواجه بعد ذلك دعوة ذي نواس اليهودي لأهل نجران وتخييرهم بين الدخول في اليهودية وبين القتل، فاختاروا القتل، فخدَّ لهم الأخاديد وأحرقهم بالنار[1].

إن ذلك يدل على أنهم كانوا يدعون إلى اليهودية حتى العامة من الناس، والحقيقة أن اليهود كانوا حريصين جداً على ألا يدخل في دينهم من ليس من أصل يهودي لاعتقادهم أنهم شعب الله الذي اختاره وفضله على العالمين بهذا الدين، فليس ذا من حقهم أن يدخلوا غيرهم فيه لينال هذا الفضل.

على أن هذا الحرص قد يكون تديناً، إذ ليس لهم حق في رفع أقوام وضعهم الله ـ عز وجل ـ ولم يشرفهم بالانتماء إلى الجنس اليهودي حسب زعمهم وقد يكون ـ وهو الأقرب إلى الصواب ـ حقداً على غيرهم من الناس، وضناً منهم أن يساويهم غيرهم في هذه الميزة التي اعتقدوها باطلاً، ونسبوا أنفسهم إليها زوراً وبهتاناً.

وعلى هذا تكون دعوة ذي نواس لأهل نجران، بل إجبارهم على الدخول في اليهودية، إنما كان ذلك من رجل ليس يهودي الأصل.

---

(١) نفس المصدر (١/٣٥).

بل هو أحد الحميريين، فذو نواس اليهودي هو (زرعة بن تبان أسعد الحميري)[1] ولهذا لم يكن عنده حرص اليهود على قصر الديانة على أنفسهم وحرمان غيرهم منها، فدفعه ذلك إلى إجبار الناس على اعتناق اليهودية أو قتلهم والتخلص منهم، وإقامة دولة يهودية في جنوب الجزيرة على أشلائهم.

لقد دخلت اليهودية إلى جنوب جزيرة العرب، واستقرت هناك فترة من الزمن، ودخلت في معارك ضارية مع خصمها اللدود العنيد ـ النصرانية ـ وقضت بوحشية تقشعر من تصورها الأبدان على النصرانية والنصارى وهي وإن لم تعمر طويلاً إلا أنها تركت آثاراً لا زالت عالقة بالأذهان لا يستطيع أحد مهما كان مكابراً أن ينكرها أو يتجاهلها.

وعاشت اليهودية في شمال الجزيرة ـ في تيماء وفدك وخيبر ووادي القرى ويثرب ـ ولكنها لم تقم دولة بالشكل الذي اصطلح عليه المؤرخون، بل عاش اليهود إلى جوار العرب السكان الأصليين، وكانوا متميزين عنهم بعادات وتقاليد ورثوها عن آبائهم، ونقلوها معهم إلى بلاد العرب في أثناء هجراتهم إليها.

فكانوا يعظمون السبت فلا يصطادون فيه ولا يمسون فيه ناراً ولا يباشرون فيه عملاً ما من أعمال المعاش الدنيوي، يقول الدكتور شلبي: (ولم يكن عند اليهود خطيئة أعظم من عدم حفظ يوم السبت إلا عبادة الأوثان)[2].

وقد ذكرت الكتب المقدسة يوم السبت، وأمرت بتعظيمه: تعظمون السبت، لأنه مقدس لكم، من دنسه يقتل قتلاً، إن كل من صنع فيه عملاً تقطع تلك النفس من بين شعبها، ستة أيام يصنع عمل، أما اليوم السابع ففيه

---

(١) المفصل (٣/٤٥٨).

(٢) مقارنة الأديان: اليهودية ص ٣٠٨.

سبت عطلة مقدس للرب، لأنه في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض، وفي اليوم السابع استراح وتنفس[1].

ويقول الدكتور ابن الخوجة: السبات: السبت وهو يوم مقدس في الشريعة اليهودية ينقطع الناس كل الناس فيه عن العمل ويشتغلون بالعبادة، ولا توقد فيه نار[2].

كذلك كانوا يعظمون يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر الله المحرم، فكانوا يصومونه، وكان يهود خيبر يصومونه ويلبسون نساءهم أحسن لباسهن وأبهى حليهن فقد روى عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: (كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء، يتخذونه عيداً، ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم، فقال رسول الله - ﷺ -: «فصوموه أنتم»)[3].

وفي البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: (قدم رسول الله - ﷺ - المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ماهذا»؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصيامه»[4].

وكان الزواج فرضاً حتمياً عندهم بنص التلمود، ويشترطون اتحاد الزوجين في الدين والمذهب، وللرجل أن يتزوج أكثر من واحدة بغير حصر، وتدفع المرأة المهر، ويرده إليها الرجل إذا طلقها[5].

كما كانوا يحرصون على أن يكون لهم أبناء محافظة على بقاء شعب إسرائيل، ولهذا كانوا يحتفلون بمولد الذكور أكثر من احتفالهم بمولد الإناث، وللابن الأكبر منزلة خاصة في الأسرة، والزوجة التي لم ترزق ذكوراً تعتبر

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) يهود المغرب العربي ص: ٧٧.

(٣) مسلم يشرح النووي (١٠/٨).

(٤) البخاري يشرح الفتح (٢٤٤/٤).

(٥) يهود المغرب ص ٧٩.

عقيماً، وكانوا يهتمون بختان الأطفال، ويفعلون ذلك في اليوم الثامن من مولد الطفل(١).

وإلى جوار هذه العادات كانوا يتصفون بصفات ذكرها القرآن الكريم، وذمهم بها، كالغدر، ونقض العهود، وسفك الدماء، والوقيعة بين الناس، ومخالفة ما فرض الله عليهم، والجبن إلى غير ذلك.

قال تعالى: ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عاهدت منهم، ثم ينقضون عهدهم في كل مرة، وهم لا يتقون، فإما تثقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا اللهَ، وبالوالدين إحسانا، وذي القربى واليتامى والمساكين، وقولوا للناس حُسْناً، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون، وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وإن يأتوكم أسرى تفادوهم، وهو محرم عليكم إخراجهم، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾(٤).

وقال ـ جل شأنه ـ: ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية، فكلوا منها حيث

---

(١) نفس المرجع والصفحة.
(٢) الأنفال: ٥٥ ـ ٥٧.
(٣) البقرة: ٨٣ ـ ٨٥.
(٤) آل عمران: ٧٥.

شِئتم رغدا، وادخلوا الباب سجدا، وقولوا حِطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين، فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾[1].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر، بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[2].

ومن المعلوم أن هذه الآيات كما ذكر المفسرون نزلت في اليهود، وتصف واقعهم والأخلاق التي كانوا عليها ونحن لا نستطيع أن نقول إن هذه الأخلاق ورثوها عن الديانة اليهودية، لأن اليهودية التي جاء بها رسول الله موسى ـ عليه السلام ـ بريئة من هذه الصفات.

فموسى ـ عليه السلام ـ هو الذي وجههم لحرب الجبارين: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾[3].

والله ـ عز وجل ـ قد نعى عليهم نقضهم الميثاق، ولعنهم وجعل قلوبهم قاسية: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾[4] كما عاب عليهم ـ سبحانه وتعالى ـ كفرهم وخلطهم الحق بالباطل ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون؟ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾[5].

فهذه الأخلاق التي اتصف بها اليهود إنما هي صفات اكتسبوها من البيئة التي نشأوا فيها والظروف التي عاشوا فيها، والمعاناة التي مروا بها في

---

(١) البقرة: ٥٨ ـ ٥٩.
(٢) الحشر: ١٤.
(٣) المائدة: ٢١.
(٤) المائدة: ١٣.
(٥) آل عمران: ٧٠ ـ ٧١.

أطوار حياتهم المختلفة، ولم تستطع اليهودية كدين أن تستل من نفوسهم تلك الرذائل، ولا أن تهذب أخلاقهم حتى يتلاءموا مع المجتمعات التي يعيشون فيها، ويخالطون أهلها، فكانوا كذلك في مصر فإن أسفارهم تروي قصة احتيالهم على المصريين وأخذ حلي النساء من ذهب وفضة على أنها عارية يردونها إليهم، ثم يهربون بها، ولا يردونها إلى أصحابها.

والملاحظ هنا أن بني إسرائيل حددوا لتلك الحيلة ليلة خروجهم من مصر حتى لا يتمكن المصريون من مطالبتهم بها واستردادها من المحتالين، وهذا مما يؤكد تأصل خلق الغدر والخيانة في تلك الطائفة حتى ورثها عنهم أبناؤهم وحفدتهم، ولم يستطيعوا التخلص منها حتى الآن.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة: (ويلفت النظر بخاصة إلى خبر سلب بني إسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحيلة الاستعارة مع أنهم على ما يفيده السياق لم يكونوا أعداء لهم، وقد أقبل الجيران على إعارتهم ما طلبوه بطمأنينة ورضى، وقد نسب السياق الأمر وتيسيره إلى الله ـ تعالى وتنزه ـ.

ثم يقول: ومهما يكن من أمر فإن تسجيل الخبر بهذا الأسلوب يدل على ما كان وظل يتحكم في نفوس بني إسرائيل من فكرة استحلال أموال غيرهم وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن حالة عداء وحرب ودفاع عن النفس، كما أنه كان ذا أثر شديد فيما هو المتبادر في ثبوت هذا الخلق العجيب في ذراريهم ثم في من دخل في دينهم من غير جنسهم)[1].

وكما كانت هذه أخلاقهم مع المصريين كانت كذلك مع الكنعانيين سكان فلسطين، فإنهم ما كادوا يعبرون البحر مع موسى ـ عليه السلام ـ وبعد انتهاء فترة التيه حاولوا دخول فلسطين، ولكن الكنعانيين توجسوا منهم خيفة فحالوا بينهم وبين دخولها، ولكنهم بقيادة يوشع بن نون، عبروا نهر الأردن، ودخلوا أريحا خلسة وغدروا بأهلها وأعملوا فيهم القتل والذبح حتى أفنوهم، ولم

---

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص ٦٧ ـ ٦٨.

يبق من أهل أريحا سوى أهل بيت الزانية ـ على حد تعبير التوراة ـ التي خبأت جاسوس يوشع، وقد اتسمت تلك الغارة بوحشية لا نظير لها.

يقول ول ديورانت: كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلاً واضحاً لانقضاض جموع جياع، على جماعة مستقرين آمنين، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقي من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهاراً.

ثم يقول: ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها إثني عشر ألفاً، وأحرقوها، وصلبوا حاكمها، ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمتاع به[1].

هذه هي أخلاق اليهود في قديم الزمان، وهي أخلاقهم إلى الآن، ففي يوم ٩ إبريل سنة ١٩٤٨ م هجم اليهود على قرية دير ياسين العربية الواقعة في قسمهم، وكان أهلها مطمئنين إلى وعود اليهود وعهودهم، كما كانوا عزلاً من السلاح.

جمع اليهود سكان القرية، وأوقفوهم صفاً واحداً، الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، ثم فتحوا عليهم نيران مدافعهم، وأمعنوا في تعذيبهم أثناء عملية القتل والذبح، حتى كانوا يبقرون بطون الحوامل ويخرجون منها الأجنة ويذبحونها، كما مثلوا بالضحايا أبشع تمثيل حتى أصبح من الصعب جداً التعرف على شخصيات الضحايا، ثم جمعوا الجثث بعد أن جردوها من ملابسها وألقوا بها في بئر القرية.

ولما حضر مندوب الصليب الأحمر الدكتور ليز، ورأى الجريمة لم يستطع الوقوف حتى تتم عملية إحصاء جثث الضحايا وكان عددها مائتين وخمسين ضحية، عندئذٍ أغمى على مندوب الصليب الأحمر وغادر المكان[2].

---

(١) قصة الحضارة (٢/٣٢٦ ـ ٣٢٧).

(٢) خطر ليهودية العالمية ص ٥٧.

ويعلق الأستاذ عبد الله التل على هذا الحادث فيقول: (إنها طبيعة اليهود الوحشية، وهمجيتهم التي لا تجارى، مارسوها منذ الأزل، وما زالوا يمارسونها إلى يومنا هذا، كلما أحسوا بقوتهم، وأتتهم الفرصة للانقضاض على الكفار وهم: المسيحيون والمسلمون وجميع من هم على غير دينهم)[1].

أثر اليهودية في يثرب

لا يستطيع كاتب أو مؤرخ أن يغفل الدور الخطير الذي لعبته اليهودية في يثرب وهو يكتب عن هذه البقعة من الجزيرة العربية، فقد اتخذ اليهود يثرب وما حولها موطناً لهم، وركزوا أنفسهم في نواحيها المختلفة، وحاولوا أن يسيطروا عليها سياسياً بفرض أنفسهم على السكان الأصليين وتسلطهم على مقاليد الحكم فيها، واقتصادياً بقبضهم على زمام التجارة واستيلائهم على الأماكن الخصبة، واجتماعياً بتمييز أنفسهم على غيرهم، وإثارة الفتنة والحقد بين غيرهم لإضعاف شوكتهم حتى يضمنوا الاستقرار، ويحظوا بالأمن، ودينياً بإشاعة أكبر قدر ممكن من تعاليم دينهم وتقاليدهم بين الناس، ليتخلقوا بأخلاقهم ويتطبعوا بطباعهم.

والذي يعنينا في هذا المقام هو تأثير اليهودية كدين في يثرب وما حولها، بل في جزيرة العرب كلها، ومع أن هذا التأثير لم يكن ذا أثر بالغ إلا أنه كان ملحوظاً وواضحاً، لقد نادت الديانة اليهودية بالتوحيد وجاءت بعدها النصرانية فدعت إليه، وكان لهذه الدعوة أثر ملموس بين العرب، حيث اعتنقها الحنفاء منهم ودانوا بها، فكانوا يعيبون على الوثنيين ديانتهم، وكانوا يدعونهم إلى الحنيفية ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومنهم في مكة قس ابن ساعدة وورقة بن نوفل، وأمية بن أبي الصلت، ومنهم في المدينة أبو قيس صرمة بن أبي أنس، ومنهم أبو عامر عبد عمرو بن صيفي، فهؤلاء قد تركوا

---

(١) خطر اليهودية العالمية ص ٥٧.

عبادة الأوثان، وعبدوا الله وحده، ولم يكن هذا الاتجاه في العرب إلا نتيجة لوجود اليهودية والنصرانية بينهم.

يقول الدكتور حسن إبراهيم: (وكان بين العرب أناس مستنيرون، فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها، وذلك لاختلاطهم باليهود والنصارى)(١).

وكان من صميم الديانة اليهودية الإيمان بالبعث والثواب والعقاب والجنة والنار، وقد دعت التوراة إلى الإيمان بتلك المعتقدات، وكان اليهود يؤمنون بها ويدعون إليها وآمن بها كثير من العرب (وقد نشر هؤلاء اليهود في البلاد التي نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة، من بعث وثواب وعقاب، وكان لذلك أثره في الوثنية الحجازية، حتى أصبح أهل يثرب أسرع العرب إلى قبول الإسلام)(٢).

وكان من آثار اليهودية في العرب احتفالهم بيوم عاشوراء، فقد ورد أن العرب كانوا يصومون ذلك اليوم في الجاهلية وهو يوم مشهور من أيام اليهود، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون فنحن نصومه تعظيماً له، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «نحن أولى بموسى منكم، فأمر بصومه»(٣).

فيوم عاشوراء يوم من أيام اليهود التي يعظمونها ويحتفلون بها، ومع ذلك كان أهل الجاهلية يعظمونه ويصومونه ولا يوجد تفسير لذلك إلا بتأثير اليهودية في العرب، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان سول الله ـ ﷺ ـ يصومه في الجاهلية،

(١) تاريخ الإسلام (٧٣/١).
(٢) نفسه ص: ٧٣.
(٣) مسلم شرح النووي (٩/٨).

فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صام، ومن شاء تركه)[1].

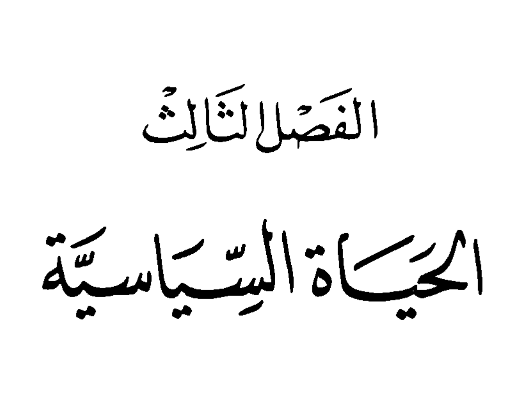
وكان من تأثير اليهودية في العرب إيمان بعضهم بعقيدة القضاء والقدر، يقول الدكتور غوستاف لوبون: (وليست عقيدة التوحيد التي هي من أهم مبادىء القرآن، كل ما عند الحنفاء، بل قالوا أيضاً، كما قال القرآن فيما بعد، إن على الإنسان أن يسلم بقضاء الله وقدره، تسليم إبراهيم حينما رأى ذبح ابنه إسحق)[2].

ونحن نلاحظ في هذا النص تسمية الذبيح إسحق مما يدل على أن الفكرة مأخوذة عن اليهود الذين يعتقدون بأن الذبيح هو إسحق لا إسماعيل.

هكذا أثرت اليهودية في العرب فأدخلت على عقائدهم تغييرات هامة، جعلتهم يستعدون لقبول الإسلام ديناً بدلاً من الوثنية التي لم تستطع إشباع رغبات العقلاء والمفكرين من العرب.

---

(١) البخاري شرح ابن حجر (٤/٢٤٤).
(٢) حضارة العرب ص: ٩٩.



الفصل الثالث

الحياة السياسية

العلاقات بين يثرب وجيرانها

لم يكن في يثرب حكومة تسيطر على الأوضاع فيها وتنظم العلاقاتَ بين سكانها، وبينهم وبين جيرانهم والدول الأخرى المحيطة بيثرب، بل كانت هناك صلات وروابط اتخذت أساساً لتنظيم العلاقات بين سكان يثرب وجيرانهم وبينهم وبين الدول الخارجية.

وقد اختلفت أسس تلك الصلات وهذه الروابط بحسب الظروف التي كانت تدعو إليها، فأساس الصلات بين أهل يثرب وجيرانهم من أهل البادية هو الحذر والاستعداد، ذلك لأن أهل البادية كانوا دائماً يتطلعون إلى ما في الحضر من الخيرات وينظرون إليها على أنها حلال لهم، فكانوا يغيرون دائماً على المدن، ويروعون أهلها وينهبون ثرواتها.

ولم يكن جيران يثرب من البدو بأورع من غيرهم في ذلك، فكانوا يغيرون على المزارع، ويسوقون الماشية، ولعل هذه الحصون المنتشرة في يثرب، والآطام المحيطة بها إنما اتخذت لصد أمثال هذه الغارات التي كانت متوقعة من حين لآخر وهي في نفس الوقت دليل واضح على صحة أساس العلاقات بين أهل يثرب وجيرانهم من البادية.

وليس هناك حادث معين نستطيع أن نتخذه دليلاً على ذلك، ولكننا نفهم من بعض المواقف في صدر الإسلام أنه كانت هناك غارات على المدينة وأن أهل المدينة كانوا يدافعون عنها دفاع القوي القادر، وإننا لنلمح ذلك جلياً في كلام عبد الله ابن أبي بن سلول يوم أحد حين استشار الرسول

أصحابه في أمر الخروج أو البقاء، يقول ابن أبي: (يا رسول الله أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا)[1].

وإن هذه الكلمة لتدل على أن المدينة كانت معرضة لغارات البدو عليها، وأن أهلها كانوا على استعداد للدفاع عنها وحمايتها، وقد كانوا كما وصفهم ابن سعد أهل قوة وبأس وجلد وخبرة بالحرب، وكانوا أهل عدة، ونجدة وسلاح كما كانوا أهل حلقة وبأس[2].

على أن هذا الصراع لم يكن بين أهل يثرب وجيرانها فقط، بل كان مستعراً حامي الوطيس بين أهل يثرب أنفسهم، سواء كان ذلك بين العرب بعضهم وبعض أو بين العرب واليهود، وأياً كان ذلك فإن هذا الصراع الذي ملئت به كتب السيرة والتاريخ لم يكن له سبب سوى التنافس على السلطة، وحب التسلط على الغير.

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول أن حبل الأمن كان مضطرباً في يثرب، فلم يكن هناك استقرار يجعل السكان ينصرفون إلى تنمية مواردهم الاقتصادية، ولا أمن ينعم به الناس فيعيشون حياة هادئة وديعة، بل كانت حياتهم كلها حذر وتربص واستعداد.

ولقد حال هذا الوضع القلق في يثرب بينها وبين بلوغها المركز اللائق بها في الجزيرة العربية، فلم تتبوأ مكانتها رغم موقعها الممتاز، وأرضها الخصبة، ومياهها الغزيرة، وكان من الممكن أن تنافس مكة منزلتها في قلوب العرب لولا اضطراب الأمن بها بسبب غارات جيرانها والتنازع المستمر بين أهلها.

---

(١) ابن هشام (٣/٦٣).

(٢) ابن سعد (١/٢١٠ - ٢١٢).

العلاقات بين يثرب ومدن الحجاز

ويعني بمدن الحجاز هنا مكة والطائف وخيبر، وكانت هذه المدن في تلك الفترة هي أهم مدن الحجاز وأشهرها، وكانت العلاقات بينها وبين يثرب قائمة على أساس الاحترام والمنافع المتبادلة، وكانت على العموم علاقات حسنة وطيبة.

فمكة قرية مقدسة من قديم الزمان فيها الكعبة بيت الله، فحصلت بذلك على مركز ديني لا تتطلع إليه قرية في الجزيرة مهما كانت منزلتها، كما أن أشرف القبائل العربية وأكبرها كانت تسكن مكة وتتخذها وطناً وكانت قوافل التجار تخرج من مكة إلى الشام فتمر بيثرب فتجد فيها الحماية لتجارتها والقرى لرجالها، كما كانت يثرب ترسل إلى مكة فتبتاع منها ما تحتاجه من البضاعة التي كانت تجلب إلى مكة من البلاد المختلفة.

وأما الطائف فهي مصيف أهل مكة ومنتزههم، وبها بساتينهم ومزارعهم، وكانت يثرب تتبادل معها الحاصلات الزراعية[1].

وكذلك كانت خيبر مدينة زراعية شهيرة في ذلك الزمان، وكانت قوافل التجار من يثرب وغيرها تمر بها في طريقها إلى الشام كما كانت يثرب تمتار منها ما ينقصها من الحاصلات، ويظهر أن سكنى اليهود لخيبر كان من أسباب حسن العلاقات مع يثرب حيث كان يسكنها أكبر جالية يهودية في شمال الجزيرة.

وهكذا كانت علاقات أهل يثرب جميعاً طيبة مع مدن الحجاز[2].

علاقات يثرب بالدول خارج الجزيرة

على أن يثرب رغم المنازعات الداخلية التي حدت من نشاطها، وحالت بينها وبين التمتع بالامتيازات التي كان من الممكن - لولا هذه

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٥٢.

(٢) نفسه ص: ٥١.

المنازعات ـ أن تتمتع بها. رغم كل هذا لم تقتنع يثرب بحسن العلاقات القائمة بينها وبين مدن الحجاز، بل حاولت أن تقيم علاقات حسنة مع الدول الخارجية، سواء كانت في الجزيرة أو على حدودها أو مجاورة لها.

وهذه الدول هي: الفرس، والروم، والغساسنة، واليمن، فأما الفرس والروم فكانت علاقات يثرب بهما محدودة، ولم يتعرض شيء من المصادر ـ على حد علمي ـ لتوضيح هذه العلاقات، والذي أدى إلى ذلك هو عدم نشاط يثرب التجاري مع هاتين الدولتين بسبب انشغالها بالخلافات الداخلية، ولا يستبعد أن يذهب بعض التجار في تجاراتهم إلى البلدين المذكورين كعادة سكان الجزيرة في هذه الفترة من الزمان[1] ويقطع بعض المؤرخين بأن أهل يثرب كانوا يخرجون إلى أسواق الشام فيتجرون بها[2].

وأما دولة الغساسنة فقد ذكرت بعض المصادر أنهم كانوا من أبناء عمومة الأوس والخزرج[3]، والصلات بينهم كانت على ما يرام وقد ظهرت قيمة تلك العلاقات عندما استنجد الأوس والخزرج بالغساسنة ليكفوا اليهود عن عبثهم وتمردهم ولم يخيب الغساسنة أمل الأوس والخزرج بل أرسلوا إليهم جيشاً أدب اليهود، ومكن للعرب، وظلت العلاقات حسنة بين يثرب والغساسنة، وقد كان شاعر المدينة ـ حسان بن ثابت ـ يذهب إلى الغساسنة، ويمدحهم، ويتغنى بما لهم من مجد وملك[4]؛ مما يدل على حسن العلاقات بين يثرب والغساسنة، ومن ذلك قوله:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول
يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل[5]

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٥٢.
(٢) المفصل (٢/١٤١).
(٣) مكة والمدينة ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦، المفصل (٤/١٢٩ ـ ١٣٠).
(٤) الأغاني (١٤/٢ ـ ٣).
(٥) مختار الأغاني (٣/١٢٨).

ومن الجائز أن تكون علاقات حسان بن ثابت بالغساسنة علاقات شخصية، لا تمثل العلاقة بين البلدين بالمعنى المتعارف عليه سياسياً، لأن حسان كان شاعراً فحلا، وكان يمدح بني جفنة ـ الغساسنة ـ وهم كانوا يحرصون على إرضائه، ليواصل مدحه لهم، وكان ذلك هو السبب في رحلة حسان إليهم، وزيارته لهم بين الحين والحين.

والذي يؤيد هذا في نظري عدم ذكر المؤرخين والاخباريين العلاقات بين يثرب والغساسنة بعد حادثة مساعدتهم على إذلال اليهود والسيطرة على يثرب، ولو ظلت العلاقات بينهما على هذا الوجه ما أغفل ذلك المؤرخون الذين كتبوا عن يثرب، ولا اشتهر أمر ذلك وفاضت بذكره الكتب، على أن حساناً لم يكن يذهب إلى الغساسنة وحدهم، بل كان يذهب إلى أمراء الحيرة أيضاً[١].

والذي يظهر لي ويفهم من سكوت الأخباريين أن علاقة يثرب بالغساسنة لم تكن أفضل ولا أحسن من علاقاتها بباقي مدن الجزيرة ولا الدول المجاورة، حيث كانت علاقاتها بالجميع علاقات هادئة مبنية على أساس الجوار القائم على عدم الاعتداء، يوطد هذه العلاقات منافع متبادلة بين الأطراف المذكورة.

وعلينا بعد ذلك أن نعرف كيف كانت العلاقة بين يثرب واليمن، فاليمن إحدى الدول الكائنة في جنوب جزيرة العرب، وكثيراً ما يطلق على ساكنها اسم عرب الجنوب، والمشهور عند المؤرخين، أن العرب الذين سكنوا يثرب كانوا قد نزحوا إليها من اليمن بعد سيل العرم، وعلى هذا فإن الأوس والخزرج ينحدرون من أصل يمني، وبالتحديد من أزد اليمن.

فلا غرابة إذاً في قيام علاقات ودية بين يثرب وبين اليمن لأنه أمر طبيعي أن تكون العلاقات طيبة دائماً بين الأقارب، وأهل البلد الواحد،

(١) فجر الإسلام ص: ٢٢.

واستقرار الأوس والخزرج في يثرب لم يقطع الصلة القديمة التي تربطهم بوطنهم الأصلي.

ويرجع بعض المؤرخين صلات يثرب باليمن إلى عهد المعينيين، حيث ورد اسم يثرب في الكتابات المعينية، وكانت من المواطن التي سكنتها جاليات معينية[1].

ولقد كان لموقع يثرب في الطريق بين الحجاز والشام أثر بالغ في اتخاذها محطة للتجار القادمين من اليمن والمتوجهين إلى الشام عن طريق الحجاز، فنشأت عن ذلك صلات حسنة نتيجة للمخالطة والمعاملة.

وهناك قصة أبي كرب تبان أسعد الحميري الذي اصطدم بسكان المدينة لشيء وقع بينه وبينهم دارت بسببه معارك بين الطرفين انتهت بعودة أبي كرب واقتناعه بعدم جدوى هذه المعارك، حيث أقنعه حبران من أحبار اليهود بعدم استطاعته النيل من هذه المدينة لأنها مهاجر نبي آخر الزمان كما أقنعاه باعتناق اليهودية فتهود وأدخل اليهودية إلى اليمن[2]، حتى قامت هناك دولة يهودية على يدي ذي نواس الحميري.

إن هذه القصة إن صحت تضع بين أيدينا صورة احتلال يمني لمنطقة الحجاز كلها حيث وصل أبو كرب بجيشه إلى يثرب وحارب أهلها، وهذا يدل على أنه كان قد وضع يده على كل ما بين اليمن ويثرب وأن هذه المنطقة قد خضعت للحكم في اليمن أو كانت على الأقل في شبه تبعية لحكامه حتى نهاية القرن الخامس الميلادي[3].

وإننا لنلاحظ أن هذه العلاقات لم تدم بين يثرب واليمن، وبخاصة بعد أن فقد عرب الجنوب سيطرتهم على الشمال، وأخذ عرب الشمال يحلون محلهم، في التسلط والسيطرة، ويرجع بعض المؤرخين ذلك إلى انشغال

---

(١) المفصل (٤/١٢٨).

(٢) مكة والمدينة ص: ٣٥٣.

(٣) مكة والمدينة ص: ٣٥٣.

أهـل يثرب بمشكـلاتهم الداخليـة، وعدم تمكنهم من مـزاولة نشـاطهم الخارجي، فلم يشاركوا في رحلة الشتاء التي كانت تتوجه من الشمال إلى الجنوب، فتوقفت الاتصالات بين البلدين وبالتالي ذبلت العلاقات بينهما.

على أن هناك سبباً آخر اعتقد أنه كان من أهم ما دعا يثرب إلى التخلف عن مزاولة نشاطها الخارجي، ذلك هو عامل الارتباط بالأرض، والانشغال بالزراعة، فإن يثرب كانت بلدة زراعية أكثر منها تجارية، ومعلوم أن الزراعة تربط الذين يعملون في محيطها بالأرض التي يفلحونها، وحينئذٍ يصعب عليهم تركها والانتقال إلى مكان آخر مهما كانت دواعي الرخاء والترف متوفرة فيه، ثم إن عدم وجود حكومة مهيمنة على الأمر في يثرب، وانفراد كل قبيلة بتصريف شؤونها بنفسها لتحقيق مصالحها الخاصة، ولو أدى ذلك إلى الإضرار بغيرها، كل ذلك أدى إلى حبس اليثربيين أنفسهم في دائرة الأرض التي يعيشون عليها، حتى يتمكنوا من فلاحتها، إذ ليست بهم حاجة إلى التطلع إلى ما عدا ذلك.

إن السياسة بمفهومها الحديث، بمعنى إقامة علاقات ـ دبلوماسية ـ بين يثرب وغيرها من الدول لم يكن معروفاً في ذلك العهد بل إن ذلك لم يعرف لدى الدول إلا بعد التحضر الإنساني والتقدم العلمي والصناعي، حيث أصبح أبناء الأمة يحرصون على إظهارها بالمظهر الذي يرفع من شأنها، ويعلي من مكانتها أمام غيرها من الدول، ولقد فرضت الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية ذلك التمثيل على الأمم مراعاة لمصالحها، وحفاظاً على أمنها، وحيث لم يكن شيء من ذلك يعني أهل يثرب بقدر عنايتهم بمصالحهم الخاصة لم يكن هذا المعنى واضحاً في أذهانهم، وبالتالي لم يتجهوا إليه ليحققوه للبلد الذي ينتمون إليه.

لهذا كانت علاقات يثرب بغيرها علاقات اقتضتها الضرورة، وحتمتها الظروف التي أحاطت بها، وحتى علاقاتها الداخلية بين سكانها لم تخرج عن هذا الوضع، فقد لاحظنا أن علاقاتها مع الفرس والروم كانت خفيفة ووقتية، كما كانت متوقفة على ذهاب بعض تجارها إلى أحد هذين البلدين، وكذلك

كانت علاقتها بالغساسنة، حتمتها ظروف القرابة وحاجة يثرب إلى مساعدة الغساسنة للتغلب على اليهود، ثم توقفت بعد ذلك، وأما علاقتها مع اليمن فقد أوجبتها القرابة والحنين إلى الوطن الأصلي وقدوم بعض تجار اليمن إليها في طريقهم إلى الشام.

الأحلاف العسكرية

اشتهرت مدينة يثرب بمنعتها وحصونها، كما اشتهر أهلها بالبأس والقوة والشجاعة والبصر بالحرب، وكانت في يثرب مصانع للأسلحة، فقد كانت تصنع فيها الدروع، وكان اليهود هم القائمون على صناعتها، كذلك كانت تصنع السيوف والسهام، وأخذت صناعة السهام فيها شهرة كبيرة حتى قيل: أجود السهام سهام يثرب[1].

وكانت هذه الأسلحة على اختلافها عزيزة عليهم، لا يستغنون عنها، ولا يفرطون فيها، وكان الرجل منهم يهتم بسلاحه كما يهتم بولده، ولقد قبل كعب بن الأشرف اليهودي رهن الأسلحة عنده بدلاً من رهن الأبناء، روى ابن هشام في قصة مقتل كعب بن الأشرف، أن سلكان بن سلامة، ذهب إلى ابن الأشرف وتكلم معه كلاماً طويلاً، ثم قال له: إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك، وتحسن في ذلك، فقال: أترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك، ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء[2].

لا شك في أن قبول ابن الأشرف السلاح رهناً بدلاً من الولد دليل على قيمة السلاح عندهم، وأنهم كانوا يرونه صنو أبنائهم.

إن وجود السلاح في يثرب بهذه الكثرة، مع قوة رجالها وشدة بأسهم وخبرتهم بالحرب والقتال جعلهم يطمئنون إلى قدرتهم على الدفاع عن

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٤٩.

(٢) ابن هشام (م٢/٥٥).

أنفسهم وأملاكهم، ولهذا كانت محالفاتهم مع غيرهم ممن جاورهم في حيز ضيق بقدر الظروف التي تحيط بهم، فأما اليهود فلم يحالفوا أحداً ممن هم خارج يثرب، ولكن كانت أحلافهم تقع بين بعضهم وبين الأوس وبين بعضهم الآخر وبين الخزرج، ولعل الذي دعاهم إلى ذلك هو خوفهم من طمع القادمين إلى يثرب من غير أهلها في أموالهم وديارهم، فخبؤوا همهم في قلوبهم، ورضوا بما هم فيه، فإنه مهما كان خير من تطلع القبائل الأخرى إلى ما في أيديهم، لأنهم إذا طمعوا في ذلك لن يردهم شيء إلا الحصول على ما يريدون.

وأما الأوس والخزرج فقد كانت أحلافهم مع من جاورهم من القبائل بالقدر الذي تدعو إليه الضرورة، فقد روى صاحب الأغاني أن بعض البطون من الأوس قد حالفوا مزينة وسليم اللتين كانتا تعيشان شرقي المدينة، وحالفت بطون الخزرج قبيلة جهينة التي كانت تقطن غربي المدينة، كما حالفوا أشجع التي كانت تسكن في شمالها الغربي[1] وكانت كل قبيلة تستعين بحليفاتها عندما تدعو الحاجة، وكانت الأحلاف محترمة لا تنقض إلا إذا تعارضت مع مصلحة القبيلة، فعندئذٍ تنقض لتحقيق تلك المصلحة.

ولقد حدث ذلك فعلاً يوم الأحزاب، حيث نقضت أشجع الحلف الذي بينهم وبين الخزرج ووقفت مع مشركي مكة بقيادة مسعر بن رخيلة ضد حلفائهم الخزرج الذين كانوا مع رسول الله ـ ﷺ[2] ـ ولم يكن وراء ذلك دافع إلا تحقيق مصالح القبيلة التي وعدهم بها اليهود وهم يحرضونهم على قتال المسلمين.

ولم يمض وقت طويل حتى تنضم أشجع إلى حلفائها في غزوة الفتح، وتقاتل المشركين الذين كانت تقاتل معهم من قبل في غزوة الأحزاب، وهي في كلا الحالتين تحقق مصالحها ولا تريد إلا ذلك[3].

---

(١) الأغاني (١٥/١٥٩) التقدم.

(٢) ابن هشام (م٢/٢١٥).

(٣) مكة والمدينة ص: ٣٥١.

وإنني أعتقد إن أشجع لم تعد لحلفائها لمجرد تحقيق مصلحة القبيلة كما يقول الأستاذ الشريف، ولكنني أقول إن عودتها إلى حلفائها إنما كانت بدافع الدين حيث كانت أشجع قد دخلت في الإسلام وأصبحت بذلك جزءاً من جيش المسلمين يستنفر فينفر ولا يستطيع أن يتخلف، لأن التخلف حينئذٍ جريمة لا يغفرها الله للمتخلفين بغير عذر مشروع.

قال ابن إسحاق: ثم مضى ـ رسول الله ﷺ ـ حتى نزل من الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، فتبعت سليم، وبعضهم يقول: ألفت، وألفت مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام[1].

وفي المواهب: وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى من حوله من العرب فجلبهم ـ أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون في غزوة الفتح عشرة آلاف[2].

وهذا النص يدل بوضوح على أن أشجع كانت قد أسلمت، وأصبح جيشها في خدمة الإسلام، وقد استنفره رسول الله ـ ﷺ ـ فنفر مع النافرين الذين بلغ عددهم يومئذٍ عشرة آلاف مقاتل.

إننا نرى أن محالفات الأوس والخزرج كانت قاصرة على القبائل المجاورة والقريبة من يثرب ولم تحاول أن تعقد مثل هذه الأحلاف مع القبائل البعيدة، حيث لا يوجد ما يدعو إلى ذلك، فقد كان نشاطها الخارجي محدوداً ضيقاً فلم تحتج إلى محالفة الأبعدين.

أثر اليهود في سياسة يثرب

لم يقف أثر اليهود في سياسة يثرب عند حد المشكلات الداخلية التي نتجت عن تواجدهم بها، ولكنه تعدى ذلك إلى التأثير في سياستها الخارجية

(١) ابن هشام م٢/٤٠٠).
(٢) المواهب اللدنية (١/١٥٠).

مع الدول المجاورة والخارجة عن حدود الجزيرة، ولم يكن هذا التأثير سلبياً فقط يقف عند حدودها ولا يتخطاها، بل كان إيجابياً أيضاً، جعل يثرب تمد يدها إلى دول أخرى معطية أو آخذة.

لقد سكن اليهود يثرب قبل الأوس والخزرج، وكانت لهم الكلمة العليا فيها، ونزل الأوس والخزرج على اليهود فعاشوا في كنفهم، ولاذوا بجوارهم، ورضى القوم بوضعهم الاقتصادي السيء إلى جوار اليهود، ولكن اليهود لم يرضوا بذلك فأمعنوا في الإساءة ليهم، وأذلوهم ذلاً أنفت منه نفوسهم، ففكروا في التخلص منهم أو على الأقل إخضاعهم لسلطتهم.

فكر العرب في ذلك وعزموا عليه، ولكن من يبلغهم ذلك؟ واليهود يملكون ويسيطرون على اقتصاد البلد ولهم فيها السيادة والقوة.

لم يكن أمام العرب في يثرب إلا أن يستعينوا بغيرهم، ليتقووا بهم على عدوهم، وقد هداهم تفكيرهم إلى أن يطلبوا العون من بني عمومتهم الغساسنة، فهم أقرب الناس إليهم قرابة، وأولى من غيرهم في نصرتهم، وأقدر على ذلك ممن سواهم، فأرسلوا إلى أبي جبيلة الغساني وفداً شكا إليه اليهود، ووصف له سوء معاملتهم لهم، واضطهادهم إياهم[1]، فحمى أبو جبيلة وأقسم أن يذل اليهود ويسلم مقاليد الأمور للعرب.

جهز أبو جبيلة جيشاً عظيماً، وأقبل كأنه يريد اليمن، ونزل مكاناً قريباً من يثرب وأرسل إلى الأوس والخزرج فلما حضروا وصلهم وأعطاهم، ثم أرسل إلى اليهود رسولاً نادى فيهم من أراد الحباء من الملك فليخرج إليه، وكانت هذه حيلة بارعة حتى لا يتحصن اليهود بآطامهم فلا يقدر عليهم، فخرج إليه أشراف اليهود، وأمر لهم بطعام، فلما اجتمعوا عليه قتلهم، ولم يبق منهم أحداً، وعندئذٍ عز الأوس والخزرج، وسيطروا على إدارة يثرب وشؤونها.

والذي يعنينا من ذكر تلك الحادثة هو أن اليهود كانوا سبباً هاماً في

---

(١) السمهودي (١/ ١٧٩).

تحول أمر يثرب من أيديهم إلى أيـدي العرب، بسبب سـوء معاملتهم واضطهادهم لهم، ولو ظل اليهود على حلفهم مع العرب، وحافظوا على أن تكون الصلات بينهم مبنية على الحب والمودة وحسن المعاشرة لبقيت مقاليد يثرب في أيديهم، ولم تخرج منهم إلى غيرهم.

وإننا لنرى أن العرب في يثرب كانوا قانعين بوضعهم مع اليهود، ولم يفكروا في قطع ما بينهم من العلاقة حتى بدأ اليهود وقطعوا الحلف الذي كان بينهم، يقول ابن زبالة: أقامت الأوس والخزرج بالمدينة، ووجدوا الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود، ووجدوا العدد والقوة معهم، فمكث الأوس والخزرج ما شاء الله، ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض، ويمتنعون به ممن سواهم، فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً، وأمرت الأوس والخزرج، وصار لهم مال وعدد، فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم[1].

واليهود بذلك قد نكثوا على أنفسهم، ونقلوا السلطة في يثرب من أيديهم بأنفسهم إلى يد العرب وبدأت في يثرب حياة سياسية قوامها سلطة العرب وسيطرتهم.

وعاش اليهود في جوار العرب حلفاء لا صرحاء، حتى كان الرجل منهم إذا نزلت به النازلة يذهب إلى حلفائه من العرب ولا يذهـب إلى قومه من اليهود، ويقول: إنما نحن جيرانكم ومواليكم، فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم[2].

ونحن نلاحظ هنا أن تحويل السلطة في يثرب، وتغيير الأوضاع فيها إنما كان على يد دولة خارجية، ولم يحدث ذلك نتيجة ثورة داخلية أو انقلاب قام به السكان الأصليون، وذلك يدل دلالة واضحة على أن عبث اليهود وسوء

---

(١) السمهودي ص: ١٧٨.

(٢) مكة والمدينة ص: ٣٢٧.

معاملتهم أدى إلى تدخل دولة أجنبية في شؤون يثرب الداخلية.

وكما كان لليهود هذا الأثر في سياسة يثرب الداخلية، فقد كان لهم أثر إيجابي في رد حملة عسكرية مدمرة على يثرب، وإبعاد شرها عنها، فإن المصادر تروي أن أبا كرب تبع الحميري كان قد قصد تدمير يثرب وإحراق نخلها وإهلاك أهلها، وإنما رده عن ذلك حِبران من أحبار اليهود، وأقنعاه بالعدول عن رأيه، كما أقنعاه باعتناق اليهودية فتهود[1].

ويقيني أن الحبرين إنما دفعا أبا كرب عن يثرب، وأقنعاه بالانصراف عنها خوفاً على حياة اليهود فيها وعلى أموالهم فهو قد عزم على تدميرها وقطع نخلها وإهلاك أهلها[2].

وأما تعليلهم عدم قدرته على ما عزم لأنها مهاجر نبي آخر الزمان، فإن ذلك لا يقوم علة صحيحة، لأن النبي ـ محمداً ﷺ ـ كان قد بقي على مولده أكثر من سبعمائة سنة على رأي ابن كثير[3]، أو مائة وسبعين سنة كما ذكر الدكتور جواد علي نقلاً عن (فون وزمن) حيث ذكر أن حكم تبان أسعد أبو كرب كان في عام (٤٠٠) للميلاد[4].

وعلى هذا فإن أبا كرب لو دمر يثرب لأمكن إعادتها وتشييدها، حتى إذا بعث الرسول وهاجر ـ ﷺ ـ تكون أحسن مما كانت عليه من قبل.

ويمكننا أن نقول: إن خوف اليهود على حياتهم، وحرصهم على حفظ أموالهم، هو الذي دفع الحبرين إلى الخروج ومواجهة تبع لإقناعه بالكف عن الحرب، ثم وجدا منه أذناً صاغية، فأقنعاه باعتناق اليهودية وهكذا يكون وجود اليهود في يثرب وحرصهم على أن يعيشوا في أمن واستقرار، جعل يثرب تنهج نهجاً سياسياً معتدلاً هادئاً ليس فيه طيش ولا حمق جنبها الدخول في

---

(١) الأغاني (١٣/١١٥ ـ ١١٨).
(٢) ابن هشام (م ١/٢٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٤/١٤٤).
(٤) المفصل (٢/٥٢٦).

معركة لا يعلم إلا الله ـ سبحانه ـ كيف كانت تنتهي، ولمن ستكون الغلبة فيها.

الفتن اليهودية

وكما كان حرص اليهود على حياة هادئة في يثرب سبباً في رد هذه الغارة عنها، كان كذلك سبباً في إيقاد نار حرب ضروس بين الطرفين اللذين كان اليهود يعتبرون ائتلافهما انتهاء لفترة وجودهم في يثرب.

لقد علمت اليهود أن وجودهم في يثرب، وتمتعهم بخيراتها متوقف على استمرار النزاع بين الأوس والخزرج، وبخاصة بعد ما آلت سياسة يثرب إليهم، وأصبحوا القائمين على أمرها.

بدأ الخلاف بين الأوس والخزرج أول ما بدأ تنافساً على السلطة، وتنازعاً من أجل السيادة، وكانت بينهما حروب دامت مائة وعشرين عاماً[1] بدأت بحرب سمير وانتهت بيوم بعاث وكانت الأخيرة قبل الإسلام بخمس سنين[2].

وكانت هذه الحروب فرصة سنحت لليهود لا يمكن أن يفلتوها، فقد صرفت هذه الحروب الأوس والخزرج عن التعرض لليهود أو التفكر في أمرهم، فلم يكن لدى القوم وقت للتفكير إلا في أحوالهم، وفيما آل إليه أمرهم. إن تلك الحروب المتلاحقة سدت عليهم المنافذ فلم يفكروا إلا في الإعداد لها، وفي النتائج التي يمكن أن تتمخض عنها.

وتنفس اليهود الصعداء، وعاشوا آمنين في ضوء نار تلك الحروب، وكان من مصلحتهم أن تظل مستعرة الأوار، وكانوا كلما وجدت وسيلة لإطفائها استبعدوها عن الميدان، واتخذوا لذلك وسائل منها:

---

(١) السهودي (١/٢١٥).

(٢) نفسه ص: ٢١٨.

١ - وقوفهم على الحياد:

لقد كان في استطاعة اليهود تكوين قوة ثالثة في يثرب ويضغطون بها على كلا الطرفين المتخاصمين حتى يذعنا للصلح، ويرضيا بإنهاء الحرب، ولكن ذلك لا يحقق لهم ما يريدون، إن في إنهاء الحرب قوة للعرب لا يحبها اليهود، وفي عقد الصلح بينهم إنهاء للخلاف وذلك أمر يكدر عيش اليهود، لذلك وقفوا متفرجين، لم يعرضوا الصلح، ولم يتدخلوا لإنهاء الحرب.

ولما أراد الأوس الدخول في حلف مع بني قريظة، رفضت قريظة أن تدخل معهم في الحلف سواء كان ذلك تحت ضغط الخزرج أو كان رغبة في نفوسهم، فإن ذلك هو الأمر الذي كانوا يميلون إليه حتى تظل الحرب مشتعلة، ويعيشون هم في رحابها آمنين.

تقول الروايات: إن الأوس عندما أرادوا محالفة اليهود، أرسلت الخزرج إلى قريظة قائلة: لئن فعلتم فأذنوا بحرب. فأرسل اليهود إلى الخزرج؛ إنا لا نحالفهم، ولا ندخل بينكم، فقالت الخزرج لليهود: فأعطونا رهائن، وإلا فلا نأمنكم فأعطوهم أربعين غلاماً من بينهم، ففرقهم الخزرج في دورهم[1].

إن هذه الرواية تدل على أن قول الخزرج لليهود صادف هوى في نفوسهم، فكانت إجابتهم، لا نحالفهم ولا ندخل بينكم أي سندعكم تتقاتلون حتى يفني بعضكم بعضا، لقد كانت قريظة قوة لا يستهان بها، وكانت تستطيع بهذه القوة التي تملكها أن تضع حداً لتلك الحرب، ولكنها لم تكن ترغب في ذلك، ولتأكيد موقفهم هذا سلموا الرهائن إلى الخزرج وهم آمنون.

ذكر ابن سعد أن مخلفات يهود - بني قريظة - التي غنمها المسلمون منهم كانت يعد حصرها كالآتي:

١ - (١٥٠٠) ألف وخمسمائة سيف.

---

(١) السمهودي (١/٢١٥ - ٢١٦).

٢ ـ (٢٠٠٠) ألفا رمح.
٣ ـ (١٥٠٠) ألف وخمسمائة ترس وحجفه.
٤ ـ (٣٠٠) ثلاثمائة درع[١].

إن هذه الكمية من الأسلحة تعتبر ضخمة جداً في حينها وكانت تستطيع بها قريظة لو أرادت أن تسكت الحرب وبخاصة أنها كانت ستنضم إلى إحدى الكتلتين، كما كان باستطاعتها تهديد من لم يكف عن القتال بالانضمام إلى الطرف الآخر حتى ترغم المتمرد على قبول الصلح، ولكنها لم تفعل ذلك لحاجة في نفس يعقوب.

٢ ـ توسيع شقة الخلاف بين المتنازعين:

لقد بذل اليهود في يثرب أقصى جهدهم لتستمر الحرب بين الأوس والخزرج وكلما هدأت نفخوا فيها حتى تشتعل، وكانوا بمكرهم ودهائهم يحرصون على ألا يعرف ذلك عنهم أحد ولكن يبدو أن العرب قد أدركوا حسدهم لهم وحقدهم عليهم، وحرصهم على أن تظل الحرب مندلعة بينهم ومما يؤيد ذلك ما روى من أن صائحاً صاح بعد أن انتصر الأوس، ووضعوا السلاح في الخزرج، قال: يا معشر الأوس أسجحوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب[٢].

إن هذا الوصف الدقيق يدل على ما كان العرب يدركونه من عبث اليهود وخداعهم حتى شبهوهم بالثعالب في مكرهم وخبثهم، واعتقدوا أن جوار إخوانهم من الخزرج ـ على ما بينهم من العداوة ـ خير من جوارهم.

إن العرب بوحدتهم وتجمعهم استطاعوا أن ينتزعوا السلطة من اليهود، وأن يجعلوا اليهود يدخلون في حلفهم، ويعيشون إلى جوارهم، واليهود يدركون ذلك ولا ينسونه، ويعتقدون أن العرب لو عادوا متحدين، وانتزعت العداوة من قلوبهم لن يدعوا هؤلاء الثعالب يعيشون بينهم، ويطردونهم

---

(١) الطبقات (٢/٧٥)، دروزة ص: ٥١٧.
(٢) ابن الأثير (١/٤١٨).

من ديارهم، ولقد عبر عن ذلك شاس بن قيس حينما مر على نفر من الأوس والخزرج، وقد جمعهم الله على الإسلام، فجلسوا في ألفة ومودة يتحدثون، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله، ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار[1].

هذه القولة أصدق تعبير عما في نفس اليهود من الخوف من اجتماع الملأ من الأوس والخزرج على كلمة واحدة، وهم في الحقيقة محقون، لأن العرب لا يمكن أن يتركوهم وقد ثبت لهم ما فعلوه من الدس والوقيعة، وتفريق الشمل، وتمزيق الوحدة، فأنى يكون لهم قرار بعد ذلك؟

ولم يكتفِ شاس بمقالته، ولكنه نقلها إلى حيز التنفيذ والعمل، فأمر شاباً من اليهود أن يذهب إلى مجلس الأوس والخزرج وقال له: اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذكرهم بيوم بعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار - وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج - ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب: أوس ابن قيظي أحد بني حارثة بن الحارث بن الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جذعة. وغضب الفريقان وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة - والظاهرة الحرة - فخرجوا إليها، وتحاور الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية[2].

هذه حادثة عملية توضح بغير خفاء ما كان يحيك في نفوس اليهود من الفزع من اجتماع الأوس والخزرج، وتخطيطهم لاستمرار العداوة بينهما، وهذه الحادثة وإن كانت بعد الإسلام إلا أنها تعطينا فكرة عن الروح العامة

---

(١) تفسير الطبري (٧/٥٥).
(٢) تفسير الطبري (٧/٥٥).

لدى اليهود وأنهم كانوا يرون في اجتماع كلمة الأوس والخزرج أمراً مهدداً لكيانهم في المدينة، فعملوا على تحطيم الاتحاد بين القبيلتين العربيتين[1].

وهكذا كان تواجد اليهود في يثرب عاملاً قوياً من عوامل توجيه سياستها كما رأينا، ففي النصف الأول من القرن الخامس الميلادي[2] كان هجوم تبع على يثرب، على تدميرها بسبب أن سكان يثرب قتلوا ولده أو أحد أتباعه[3] وكان اليهود في يثرب هم أصحاب الحول والطول فيها يومئذٍ، فخافوا على سلطتهم وأموالهم، وفاوضوه بواسطة الحبرين، ثم كان اقتناعه وتهوده.

واليهود بذلك قد نجحوا في تأسيس دولة يهودية في اليمن على يد تبع الذي تهود، وهم بذلك يقصدون تدعيم سلطتهم في يثرب، وقد كان لهم ذلك، ولهذا فإنهم نقضوا الحلف الذي بينهم وبين الأوس والخزرج، وأساءوا معاملتهم، معتمدين على الدولة اليهودية التي قامت باليمن، والتي كانت على استعداد لحمايتهم إذا اعتدى عليهم أحد.

ولهذا يستبعد بعض المؤرخين أن ينزل باليهود ما نزل بهم في يثرب على يد العرب مع وجود دولة يهودية في الجزيرة ويقولون: إن ذلك لم يكن إلابعد زوال الدولة اليهودية على يد الأحباش[4].

ولهذا يقول المؤرخ (جيتيز): إن البطون الأوسية والخزرجية لم تصارح اليهود بالعداوة والمعصية إلا بعد النكبة التي حلت باليهود في اليمن، إذ لا يتصور أن يضطهد اليهود في الحجاز في العصر الذي كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن، ويتعصبون لدينهم ويناهضون كل من يناهضهم، أو يعتدي عليهم[5].

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٣٨.

(٢) المفصل (٥٢٦/٢).

(٣) السمهودي (١٨٦/١، ١٨٧).

(٤) مكة والمدينة ص: ٣٢٨.

(٥) عن تاريخ اليهود في بلاد العرب ص: ٦١.

وإنه مما يؤيد قيام دولة يهودية في اليمن في هذه الفترة العثور على نصوص تشير إلى انتشار عقيدة التوحيد في هذه البلاد فقد عثر على نص فيه هذه العبارة (بنصر وردا إلهن بعل سمين وأرضن)، ومعناها (بنصروبعون الإلّه رب السماوات والأرض).

ويعلق الدكتور جواد على النص بعد ذكره فيقول: وهي عقيدة ظهرت عند أهل اليمن بعد الميلاد بتأثير اليهودية والنصرانية بلا شك[1].

فاليهود إذن لم يسيئوا معاملة جيرانهم العرب، ولم يتمردوا ويقطعوا الحلف الذي كان بينهم إلا اعتماداً على تلك الدولة، والعرب لم يصبروا على هذا الضيم إلا لأنهم كانوا قلة في العَدد، ضعفاء في العُدد، ومع ذلك فقد ظلوا يتحينون الفرصة وينتظرون اللحظة التي يتمكنون فيها من الأخذ بثأرهم، فلما حانت اهتبلوها ولم يضيعوها.

وقد كانت تلك الفرصة عند سقوط الدولة اليهودية على يد الحبشة حين غزت جيوشها اليمن وأزالت دولة اليهود منها وأقامت على أنقاضها دولة نصرانية في عام **٥٢٥** ميلادية[2].

وكان اليهود في يثرب قد استغلوا هذه الظروف، ولا سيما حينما رأوا الأوس والخزرج قد زاد عددهم وقويت شوكتهم، وأصبحوا ينافسونهم في الزراعة والتجارة، عندئذٍ قطعوا الحلف الذي كان بينهم، وأساءوا معاملتهم، وحاولوا إذلالهم ولما بلغ السيل الزبى، كانت دولة اليهود قد سقطت في اليمن، وأصبح يهود يثرب بلا معين، ولا ظهير، ولكنهم مع ذلك قوة لا يستطيع العرب مواجهتها، وعندئذٍ اتجه التفكير إلى استدعاء أبناء عمومتهم ـ ملوك غسان ـ فأعانوهم عليهم ومكنوا لهم في يثرب وعاش اليهود فيها طرفاً ثانياً، وانتقلت السلطة إلى يد الأوس والخزرج.

وبدأ التنافس على الرئاسة بين الأوس والخزرج ودس اليهود أنوفهم

(١) المفصل (٢/٥٨٢).
(٢) المفصل (٢/٥٩٤).

كعادتهم في ذلك التنافس وحولوه عداوة وحرباً، وظلت الحروب تأكل من كلا الطرفين حتى كادت أن تقضي عليهم جميعاً يوم بعاث، وعندئذٍ ظهرت في الأفق رايـة السلام، ورفرف في سماء يثرب علم الإسلام، فكان طوق النجاة الذي أسرع إليه الغرقى.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الحَالَةُ الاقتصاديّة



أولاً: الزراعة

تعتبر الحالة الاقتصادية لأي بلد من البلاد مقياساً هاماً لمقدار ما يكون عليه ذلك البلد من الرقي والحضارة، فكلما كان الوضع الاقتصادي حسناً كلما كان التقدم والتحضر بالقدر الذي يكون عليه ذلك الوضع، وكلما توفرت أسباب ذلك التقدم الاقتصادي، توفرت للشعب عوامل الرقي الحضاري، وإن من أهم أسباب ذلك التقدم وجود الزراعة ونشاط التجارة وتقدم الصناعة، وكل هذه العوامل كانت متوفرة في يثرب قبل الإسلام.

وكان للزراعة في يثرب المنزلة الأولى في تحسين الوضع الاقتصادي للسكان، وإنما اكتسبت الزراعة، تلك المنزلة للظروف الطبيعية التي أحاطت بالمنطقة، فأرض يثرب أرض بركانية، تحتوي على كثير من المعادن والمواد التي تفيد الزراعة، وتجعل المحصول جيداً.

والزراعة في يثرب كانت المصدر الأول لإعاشة السكان، ولهذا رأينا اليهود لما نزلوا المدينة تسابقوا إلى الأماكن التي تكثر فيها المياه، وحطوا رحالهم عند مجاري السيول، ولما وصل العرب إلى يثرب تخيروا تلك الأماكن وأمثالها، ولما كانت الأرض خصبة جيدة، والماء كثيراً ومتوفراً، تكون قد اجتمعت أسباب نجاح الزراعة كمصدر للدخل يرفع مستوياتهم المادية.

وسائل الري

ويثرب بلد تكتنفه السيول الآتية من الجنوب، حتى إذا وصلت واحة قباء، تفرعت فرعين: أحدهما يمر بحرة واقم ـ الحرة الشرقية ـ ويتفرع فيها

فرعين وهما مهزور ومذينيب، والثاني يمر بين حرة الوبرة ـ الحرة الغربية ـ ويثرب ويتفرع أيضاً فرعين هما بطحان ورانوناء وتجتمع هذه السيول كلها في الشمال الغربي في مكان يعرف بمجمع الأسيال، وهذه السيول أهم وسائل الري في يثرب.

وكانت الآبار من أهم وسائل الري أيضاً، فهناك أماكن عالية، لا تكاد السيول تمر بها إلا سريعاً، وهناك أماكن بعيدة عن مجاري هذه السيول، والآبار كانت وسيلة الري في أمثال هذه الأماكن، كما كانت هي الوسيلة الوحيدة عند قلة مياه السيول أو انقطاعها، لهذا أهتم أهل يثرب بحفر الآبار، واستخراج المياه من باطن الأرض، فكان إلى جوار كل منطقة زراعية بئر أو بئران، يعتمد عليها الزراع في ري أرضهم، وذلك باستخراج المياه منها وري الأراضي القريبة بالدلاء ونحوها أو حملها على التواضح لري الأراضي البعيدة عنها[1].

وكان الزراع يوزعون الماء بينهم كل بحسب حاجته، فكلما مرت المياه بأرض حبسها صاحب الأرض حتى تسقي زرعه، ثم يرسلها إلى من بعده فيمسكها بدوره هو الآخر حتى تروي أرضه وهكذا[2].

وبوجود الأرض الخصبة وتوفر المياه يكون قد تهيأ ليثرب العاملان الرئيسيان لنجاح المشاريع الزراعية، وأما العامل الثالث ـ وهو الأيدي العاملة ـ فلم يكن أقل توفراً من العاملين السابقين، فقد كان جميع السكان يعملون في الزراعة إلا عدداً قليلاً كان يحترف الصناعة، أو يعمل في التجارة.

الغلات الزراعية

وكانت أرض يثرب تنتج من المحاصيل الزراعية التمر والعنب والشعير والقمح، كذلك كانت تزرع أنواعاً من الفاكهة كالرمان والموز والليمون

---

(١) الأغاني (١٣/١١٨).

(٢) البخاري بشرح ابن حجر (٥/٣٤).

والبطيخ، وأنواع من الخضروات كـالقرع ـ الـدباء ـ واللوبيـاء ـ والسلق ـ والبصل ـ والثوم ـ والقثاء.

فأما التمر فكان الغلة الرئيسية في يثرب، ولهذا كانوا يكثرون من غرس النخيل، حيث كانت النخلة بركة عليهم، فكل أجزائها ينتفع به؛ فالجذوع أعمدة وعيدان للسقوف، ويطرحون الجريد فوق الجذوع فتصبح سقـوفاً للمنازل، وأما الشوك والكرائيف فكان وقوداً جيداً، وكانوا يأكلون الجمار[1] كما كانوا يأكلون الرطب والتمر، ثم يطحن النوى فيصير طعاماً لمواشيهم[2] ومن الخوص يصنعون القفف والمكاتل.

وكما كان التمر طعاماً لهم كان عملة يتعاملون بهـا فيما بينهم، فكانوا يجعلونه أجراً للعامل[3]، ويسددون به الديون[4].

وتمر يثرب كثير الأنواع متعدد الأصناف مختلف في الجودة، فمنه الجمع الرديء، ومنه الجنيب الجيد[5] وبين هذين أنواع عدة، فالصيحاني، وابن طاب، وعذق زيد، والعجوة والصرفان وهو نوع أحمر وهو أوزن التمر كله[6] كل هذه أنواع معروفة في يثرب، وقد كان ليهود بني النضير نوع فاخر من التمر يقال له اللوز، أصفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحمة[7].

والشعير يأتي في الدرجة الثانية من غلاتهم، وكانوا يصنعون منه الخبز يأكلونه، كما كانوا يطعمون منه مواشيهم، ولم يكن القمح معروفاً عندهم مثل الشعير، وإن كان يوجد في بعض الأماكن، وكان نادراً، حتى أنه لما جاء الإسلام، وفرضت زكاة الفطر لم يكن معروفاً بين الأصناف التي ذكرها

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر (٤/٤٥) والجمار قلب النخلة.
(٢) ابن هشام (م/١ ـ ٦١٨).
(٣) البخاري بشرح ابن حجر (٤/٤٠٥).
(٤) نفسه (٥/٥٩).
(٥) نفسه (٤/٣٩٩).
(٦) مكة والمدينة ص: ٣٥٨.
(٧) نفسه.

الرسول ـ ﷺ ـ حتى يخرج الناس منها زكاتهم، لأنه لم يكن قوتاً لأهل يثرب معلوماً عندهم[1] ولهذا روى ابن حجر عن ابن المنذر قوله: ولم يكن البر بالمدينة ذلك الوقت إلا الشيء اليسير منه[2].

والذي يظهر أن التمر لم يكن بالكثرة التي يتصورها كثير من الباحثين، حتى زعموا أن يثرب كانت تبيع الفائض من التمر، ولو كان ذلك كثيراً لما جهد الأنصار لما شاركهم المهاجرون في أقواتهم، وقد كانت غلات يثرب أكثر مما كانت عليه قبل، والذي يؤيد ذلك قول السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما فتحت خيبر سنة سبع من الهجرة، قالت: (الآن نشبع من التمر) وقول ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: (ما شبعنا حتى فتحت خيبر)[3].

وأما الفواكه فكان أكثرها وأوفرها العنب، وكانوا يتركونه حتى يصير زبيباً، ويأكلون منه غضاً، وكان يعتبر من غالب قوت البلد المتداول بين الناس، وكانت أنواع الفواكه الأخرى إلى جانبه قليلة ونادرة مثل الرمان والموز والليمون والبطيخ والقاوون[4].

وهناك أنواع من الخضروات كانت معروفة عند أهل يثرب، وكانوا يزرعونها ويأكلون منها كالدباء ـ القرع ـ والقثاء والبصل والثوم والكراث[5] واللوبياء والسلق[6].

كيف تفلح الأرض

وكان أهل يثرب يتفاضلون في امتلاك الأراضي الزراعية، فكان منهم من لا يملك شيئاً ويعمل عند غيره، ومنهم من يملك الشيء الذي يستطيع

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر (٣٧٢/٣).
(٢) فتح الباري (٣٧٤/٣).
(٣) البخاري بشرح ابن حجر (٤٩٥/٧).
(٤) مكة والمدينة ص: ٣٥٨.
(٥) مسلم بشرح النووي (٤٨/٧، ٤٩ ـ ٢٢٤/١٣، ٢٢٦).
(٦) البخاري بشرح ابن حجر (٥٤٤/٩).

زراعته بنفسه، ومنهم من يملك المساحات الكبيرة التي تحتاج الأيدي الكثيرة لزراعتها، وهؤلاء كانوا يستغلون الأرض بإحدى الطرق الآتية:

١ ـ المزارعة وهي أن يعطي شخص أرضه لشخص آخر يزرعها، ويأخذ مقابل ذلك حصة معينة من صاحب الأرض قد تكون ربع الغلة، وقد تكون ثلثها، وقد تكون نصفها حسبما يتفق عليه الطرفان.

٢ ـ المؤاجرة أو الكراء وتتم بعدة طرق:

أ ـ يعطي صاحب الأرض أرضه لشخص يزرعها، ويأخذ مقابل الأرض ربع المحصول الناتج مع كمية من التبن مثلاً.

ب ـ يؤجرها لشخص يستغلها مقابل كمية محدودة من غلتها، أو بعدد محدد من أوسق التمر أو الشعير وعلى المستأجر تسليم ما اشترط عليه وإن لم تغله الأرض.

جـ ـ يقسم الأرض بينه وبين الزارع فيأخذ كل واحد منهما مكاناً محدداً من الأرض، ولكل واحد منهما ما تنتجه أرضه، وإذا لم ينتج أحد القسمين فليس لصاحبه حق في العودة على صاحب القسم الآخر[١].

٣ ـ يزرعها بنفسه، ويكون له ما خرج منها، ويتصرف فيه تصرفاً كاملاً بالبيع والهبة وغير ذلك.

والذي يظهر أنه مع كل هذا الاهتمام بالزراعة، لم تكن المحاصيل تكفي أهل يثرب، وكانوا يستعينون على سد حاجاتهم من الشعير وغيره بأن يتعاملوا مع الزراع من أهل الشام على أن يسلموا لهم ما يحتاجونه في مدة معلومة قد تبلغ السنة والسنتين ويدفعون لهم القيمة مقدماً.

ولقد حدث ذلك في صدر الإسلام بعد أن استقرت الأوضاع، وتحسنت أحوال الزراع، وكثر المحصول نتيجة للهدوء والأمن، روى البخاري عن محمد بن أبي المجالد قال: (بعثني عبد الله بن شداد وأبو بردة

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر (١٥/٥).

إلى عبد الله بن أبي أوفى - رضي الله عنهما - فقالا: سله هل كان أصحاب النبي - ﷺ - في عهد النبي - ﷺ - يسلفون في الحنطة؟ قال عبد الله: (كنا نسلف نبيط أهل الشام في الحنطة والشعير والزيت في كيل معلوم إلى أجل معلوم)(١).

ومعنى ذلك أنهم كانوا يسلمون الثمن لأهل الشام على أن يستلموا منهم الحنطة أو الشعير أو الزيت في وقت يحددونه قد يبلغ السنة أو السنتين، وإذا كانوا يفعلون ذلك في صدر الإسلام، فإن فعله قبل مجيء الإسلام يكون من باب أولى، حيث كانت الغلة قليلة بسبب اضطراب الأمن والحروب المتوالية.

طبقة بغيضة

كان اليهود في يثرب أغنى سكانها، وكانوا يملكون مساحات واسعة من الأراضي تغل عليهم ما يكفيهم ويزيد عن حاجتهم، ونتيجة لذلك لم يكن دخل العرب من غلة أراضيهم كافياً لسد حاجاتهم الضرورية.

ولقد اكتسب اليهود هذه الميزة بسبب وضع أيديهم على المناطق الغنية بخصوبة التربة ووفرة المياه، لأنهم كانوا يسكنون عوالي المدينة المنطقة الشهيرة بذلك، والعرب وإن كان بعضهم قد جاور اليهود في سكنى هذه المنطقة إلا أنهم نزلوها بعدهم، وبعد أن استولوا على الجزء الأكبر والمهم منها، ولهذا لم يبلغوا مبلغهم من الثروة وكثرة الغلة.

والعادة في مثل هذه المجتمعات أن تنشأ فيها طبقات متناحرة، يستغل فيها الأقوياء الضعفاء، ويسخر فيها الأغنياء الفقراء ويصبح المحتاجون عبيداً للموسرين، ثم تكون النتيجة ثورة المظلومين على الظالمين، ثورة لا تبقى ولا تذر.

ولقد كان مجتمع يثرب على هذه الشاكلة، فكان اليهود متسلطين على

(١) البخاري بشرح ابن حجر (٤/ ٤٣٠).

السكان بثروتهم وغلاتهم، وكان الزراع من العرب مضطرين إلى الاستدانة منهم لسد النقص الذي يعانون منه مقابل رهن يقدمونه لهم[1].

وكثيراً ما كان العربي يضطر إلى بيع ثمرة غلته لكي يقضي دينه، وعندئذٍ لا يتقدم للشراء إلا هؤلاء الأغنياء فيبتاعون منهم بثمن بخس، ويبيعونهم بأضعاف ما اشتروا به، فيزداد الأغنياء غنى ولا يزداد الفقراء إلا فقراً، وعندئذٍ يقع أصحاب الأراضي القليلة تحت ضغط الحاجة، ومطالبة الدائنين إلى التخلي عن أراضيهم أو على الأقل عن جزء كبير منها سداداً لهذه الديون التي ركبتهم فتنحصر الأراضي الزراعية في يد حفنة من المنتهزين وتسوء الأوضاع الاقتصادية ويعيش السواد الأعظم من السكان في ضنك وضيق لا يطاقان، وتستحكم العداوة ويشيع الحقد، ويقع المجتمع كله تحت وطأة خصومات لا تنتهي، ويصبح فريسة لحرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس.

أثر الحرب على الوضع الاقتصادي

نتيجة لهذا الوضع المتدهور اقتصادياً في يثرب نشبت بين السكان حروب دامية من أجل الاستيلاء على المواقع الخصبة، فإن استيلاء الأوس على المناطق الخصبة، ونزولهم إلى جوار النضير وقريظة على وادي مهزور ومذينيب جعلهم أحسن حالاً من أبناء عمومتهم الخزرجيين[2].

لقد أصبح الأوسيون يشعرون بمركزهم الاقتصادي الممتاز، ويرون أنهم يستحقون الصدارة على الخزرج بهذا التفوق في الوقت الذي كان فيه الخزرج يشعرون بتفوقهم السياسي، وأنهم بقيادة مالك بن العجلان قد أخضعوا اليهود للعرب، واضطروهم لأن يعيشوا بينهم حلفاء لا صرحاء كما كانوا من قبل، ولذلك فهم يرون أنهم أحق بالسيادة من الأوس، وبهذا أصبح كل فريق يرى ـ من وجهة نظره ـ أنه أحق بتقلد الأمور من الآخر.

---

(١) البخاري بشرح بن حجر (١٤٢/٥).

(٢) مكة والمدينة ص: ٣٣٩.

وظلت الحرب باردة بين الطرفين مدة غير قصيرة، حتى أزكاها أحد حلفاء الخزرج بتفضيل الخزرج على الأوس، وتفضيل مالك بـن العجلان بالذات على الأوس والخزرج جميعاً، فأسرها أحد الأوسيين في نفسه، وقتل ذلك الحليف وأصر مالك على أن يأخذ في حليفه دية الصريح لا دية الحليف، يقصد بذلك تأكيد سيادته على أهل يثرب جميعاً.

لم تقبل الأوس ذلك الإصرار من مالـك، واندلعت الحـرب بين الفريقين، وهذه الحرب هي المعروفة بحرب (سمير) وهي أول الحروب بين الأوس والخزرج، ولم تستمر الحرب طويلاً فقد تحاكم الطرفان فقضي لمالك بدية الصريح على أن تعود الأمور إلى طبيعتها وتكون الدية بعد ذلك على السنن المعروفة بينهم فرضوا بذلك، وأخذوا الدية[1].

ستر هذا الصلح ما ظهر من العداوة من الطرفين، ولكن الصدور لم تزل تنطوي على حقد دفين يكنه كل طرف للآخر، وهو يتحين الفرصة ليظهر مكنون سره وخفايا صدره، وقد أتيحت لهم الفرص مرات ومرات، وترجموا عما في نفوسهم بحروب دامت بينهم طويلاً.

والذي يلاحظ في هذه الحروب أن التفوق كان في جلها للخزرج أصحاب النفوذ السياسي على الأوس أصحاب النفوذ الاقتصادي وكلما كان الأوس يعتزون بتفوقهم الاقتصادي، كلما كان الخزرج يحاولون تحطيم ذلك النفوذ بتدمير المصادر التي تجعل الأوس يتفوقون عليهم، ولذلك كانوا في جميع غاراتهم يقطعون النخيل، ويحرقون المحاصيل، ويهدمون الدور[2].

وكاد النفوذ الاقتصادي للأوس ينهار تحت وطأة الحرب، والاعتداء على الزرع والضرع، فهبوا لينقذوا مصدر عزهم محاولين التحالف مـع قريظة[3] ولكن المحاولة قد فشلت، حين هدد الخزرج بني قريظة بالحرب

(١) الكامل (١/٤٠٢ ـ ٤٠٣).
(٢) الكامل (١/٤١٨).
(٣) مكة والمدينة ص: ٣٤٠.

إن هم حالفوا الأوس فتراجع اليهود وحالف بعض بطون الأوس الخزرج لينقذوا وضعهم الاقتصادي الذي أوشك على الانهيار[1].

ولكن الأثرياء من الأوس قد أقسموا ألّا يصالحـوا حتى يدركوا ثأرهم من الخزرج، ودارت رحى الحرب عوناً لا تكاد تهدأ حتى تثور، وكانت الغلبة للخزرج، ولما يئست الأوس من النصر هموا بمحالفة الخزرج، ثم تشاوروا فيما بينهم وعزموا على محالفة قريش، ولكن قريشاً قبلت الحلف ثم قطعته نزولاً على مشورة الوليد بن المغيرة، فلم تظفر الأوس بحليف يقف إلى جوارهم ضد الخزرج.

ولم تقتنع الخزرج بذلك النصر السياسي والعسكري، وظلت تتطلع إلى تحسين مركزها الاقتصادي، آملة أن تدركه بنصر يمكنها من الاستيلاء على الأراضي الخصبة التي لا زالت تحت سيطرة اليهود والأوس، وقد عبر عن تلك الرغبة عمرو بن النعمان البياض حين قال لقومه الخزرجيين: (يا قوم، إن بياضة بن عمرو قد أنزلكم منزل سوء، بين سبخة ومغازة، والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير، على عذب الماء وكريم النخل)[2].

لا شك أن هذه العبارة من عمرو بن النعمان رئيس الخزرج تدل على ما كان يجيش في صدورهم من الرغبة في الاستيلاء على تلك البقاع الخصبة التي كان يسيطر عليها اليهود والأوس على حد سواء، وقد أرسل فعلاً إلى اليهود يطلب منهم التخلي عن أرضهم ودورهم ليسكنونها أو يذبح مَنْ تَحْتَ يده من أولادهم، وهم اليهود بالتخلي تلبية لنداء الخزرج، ولكن الأوس لما علمت بذلك ذهبت إلى اليهود، وطلبوا منهم أن يتحالفوا ضد الخزرج العدو المشترك.

إن الخطر الآن لم يعد يهدد الأوس وحدهم. بل تخطاهم إلى اليهود

(١) مكة والمدينة ص: ٣٤٠.

(٢) السمهودي (١/٢١٧).

الذين كانوا من قبل محايدين، لم يتورطوا في تلك الحروب، وأصبحت بذلك الخزرج عدواً مشتركاً يجب أن يستعد ليواجه الجبهة المتحدة التي عزمت على خوض معركة فاصلة معه.

إن القضية الآن قضية حياة أو موت، وقد عزم الأوسيون على أن يموتوا في هذه الحرب أو يحيوا كراماً بعدها، حتى قالوا: منعونا الحياة فيمنعوننا الموت؟ ويقول ابن أبي الخزرجي ناصحاً قومه، وقد ذكر لهم هذه المقالة للأوس: (والله ما يموتون أو تهلكون عامتكم)[1] وأما اليهود فكانوا يرون انتزاع أموالهم من أيديهم بعد انتزاع السلطة كفيلاً بأن يدفعهم إلى تلك المغامرة وإن لم تكن حبيبة إلى نفوسهم، وأن الموت خير من حياة خالية من المال.

لقد صبروا من قبل على انتزاع السلطة، ولكنهم لا يصبرون على انتزاع الأموال، لذلك أسرع اليهود في تلبية نداء الأوس للتحالف حتى يواجهوا هذا الخطر المحدق بهم جميعاً، هذا هو موقف الأوس واليهود، وهم في موقفهم هذا محقون، وقد وحد بينهم البلاء الذي رماهم به الخزرج من غير تفكير في العواقب.

وأما بالنسبة للخزرج فإن هذا التصرف من زعيمهم عمرو بن النعمان، إنما يدل على سفه في الرأي، وحمق في التصرف، ويبدو أنه قد غرته انتصاراته المتكررة على الأوس فطمع فيما في أيدي اليهود من الأموال، وقد سال لعابه، فخف حلمه، فأعلن الحرب على عدو قوي وبخاصة وأنه سيجد من العرب من يكون إلى جانبه وهو يخوض هذه المعركة الفاصلة.

ودارت المعركة شديدة عنيفة، هؤلاء يدافعون عن أموالهم، وأولئك يحاولون انتزاعها والفوز بها، وكانت الدائرة على الخزرج، ووضعت الأوس فيهم السلاح، وقتل عمرو بن النعمان رئيس الخزرج، كما قتل حضير الكتائب رئيس الأوس، وجعلت الأوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها،

---

(١) السمهودي (١/٢١٧).

حتى خرج سعد بن معاذ ووقف على باب بني سلمة الخزرجيين وأجارهم وأموالهم جزاء لهم بيوم الرعل وكان للخزرج على الأوس[1].

ونستطيع بعد ذلك أن نقول: إن هذه الحروب قد شلت الأيدي التي تفلح الأرض، وتستغل خبراتها، وحدَّت بالتالي من النشاط الزراعي الذي كان يمكن أن يكون لو عاشت البلاد في أمن واستقرار، وتسبب عن ذلك ضيق في الموارد الزراعية دام أثره حتى دخل الإسلام يثرب، وكان قدوم المهاجرين من أهل مكة. إليها، واستقبال الأنصار لهم بهذه الروح الطيبة رغم ما هم فيه، شارحاً بليغاً لمعنى الإيثار الذي تحدث عنه القرآن الكريم فيما بعد، كما تسبب ـ بلا شك ـ قلة في الأيدي العاملة التي يمكنها رفع المستوى الزراعي والنهوض به إلى خير مما كان عليه.

ولقد رأينا أن كلا الفريقين المتناحرين كان يتعمد تدمير اقتصاد الآخر كلما حانت له الفرصة، فإذا كانت الدائرة على الأوس أحرق الخزرج النخيل والمحصول، وإذا كانت الدائرة على الخزرج عاملهم الأوس بمثل ما كانوا يعملون، وبذلك أصبحت الغلة الزراعية هدفاً من أهداف الحرب، يعمد إليه المنتصر فيهلك من الحرث ما يقدر عليه، حتى ينزل بخصمه خسارة مادية لا قبل له بها، ويضطره إلى النزول تحت ضغط الحاجة لما يريده منه.

ونحن نرى مع هذا وأن العقلاء من العرب كانوا دائماً يشعرون بأنهم أمام قوم دخلاء عليهم، وأن العداوة المستحكمة بينهم يجب أن توجه في الحقيقة إلى هؤلاء الدخلاء، لهذا رأينا عمرو بن الجموح الخزرجي، وقد انتصر قومه يوم الرعل، وكادوا يقضون على خصمهم عندئذٍ يقف عمرو ابن الجموح، وقد أدرك بفطنته أن القضاء على الأوس ليس في مصلحة الخزرج، بل هو أولاً وبالذات مصلحة حقيقية لليهود الدخلاء، حيث يكونون قد كسبوا نصف المعركة وهم جلوس في بيوتهم، ولم يبق أمامهم إلا التخلص من النصف الآخر ـ الخزرج ـ وهو أمر سهل بعد القضاء على

---

(١) ابن الأثير (١/٤١٨ ـ ٤١٩).

الأوس، وبعد استدامة هذه الحروب التي أضعفت قوتهم العسكرية، وأهلكت قوتهم الاقتصادية، لهذا خرج عمرو، ووقف في وجه الزحف الخزرجي وأجار سعد بن معاذ وأخاه كما أجار أموالهم من القطع والحرق.

وفي يوم بعاث لم يعدم الأوس رجلاً عاقلاً منهم يبادر بإيقاف الإبادة، ويدعوهم إلى العفو، فيصيح، يا معشر الأوس اسحجو ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب[1] ثم يقف سعد بن معاذ الأوسى موقفاً لا يقل روعة عن موقف ابن الجموح، فيجير بني سلمة وأموالهم من القطع والحرق.

وإنني أعتقد أنه لولا وجود أمثال هؤلاء الزعماء الحكماء في صفوف الفريقين لما أبقت تلك الحروب على شيء من الزرع أو الضرع ولأقفرت يثرب من مقومات حياتها الاقتصادية الرئيسية، وكذلك كان لوقوف بعض الشخصيات العربية موقف الحياد بين الطرفين، وعدم التورط في إراقة الدماء أثر بليغ في المحافظة على الوضع الاقتصادي، وإحداث شيء من التوازن بين الطرفين، وإيجاد جهة يمكن الرجوع إليها كلما تأزمت الأوضاع، وتفاقمت الأمور.

ثانياً: الصيد والرعي

كان الصيد في جزيرة العرب وسيلة من الوسائل التي يعتمد عليها السكان في معاشهم، حيث كانوا يأكلون ما يصيدون فيكون غذاء، أو يبيعون ما يقنصون، ويستعينون بثمنه على شراء ما يحتاجون، وكما كان الصيد حرفة لدى بعض العرب بدواً كانوا أو حضراً، كان كذلك هواية يمارسها كثير منهم، وكانوا يخرجون في أيام مخصوصة للقنص، يعرفونها تكثر فيها الحيوانات والطيور التي تصاد.

وكان الصيد عندهم نوعين: صيد البر، وصيد البحر، فأما صيد البحر

---

(١) ابن الأثير (١/٤١٨).

فقد كان يزاوله سكان السواحل والبلاد القريبة من البحر، ولا يستبعد أن يكون سكان المدينة قد زاولوه في رحلاتهم وأسفارهم[1] ولم يكن صيد البحر من الموارد التي يعتمد عليها أهل يثرب في حياتهم، لبعدهم عن البحار، ولاهتمامهم بغيره من وسائل العيش التي كانوا يزاولونها، وفي ذكر القرآن الكريم صيد البحر دليل على معرفتهم له (أحل لكم صيد البحر وطعامه).

وأما صيد البر فقد برع فيه أفراد من أهل يثرب، واتقنوه[2] وكثيراً ما كانوا يعتمدون عليه في طعامهم، وكانوا يتفننون في طريقة الصيد، وكان لكل صيد ما يناسبه من الآلات، فمثلاً الحمار الوحشي أو البقر، كانوا ينصبون لها الفخاخ المصنوعة من الحديد، وكانوا يدسونها في التراب، فإذا مر الحيوان بالفخ، ووقعت رجله عليه، لذعها الفخ، عندئذٍ يرمح فيقطع أعصابها، حتى لا يكون بها حراك، ويدركها الصائد فيمسكها[3].

وأما الغزال والأرنب والضب، فكانوا يصطادونها عن طريق مطاردتها بالخيل ورميها بالرمح أو السهم، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾[4] كذلك كانوا يستعملون المعراض في صيدها، والمعراض خشبة ثقيلة آخرها عصا محدد رأسها، وقد لا يحدد[5] ومن وسائل الصيد الكلاب المعلمة والبازي، كانوا يرسلونها، فتمسك الصيد أو تعوقه حتى يأتي الصائد فيضربه برمحه أو يأخذه ويذكيه[6] وكذلك كانوا يصطادون بعض الطيور بالحبائل التي يعدونها لذلك[7].

ويبدو أن الصيد بالمعراض كان شائعاً بينهم، حتى أنهم لما جاء

(١) مكة والمدينة ص: ٣٦٤.
(٢) نفسه: ٣٦٣.
(٣) نفسه.
(٤) المائدة: ٩٤، مسلم بشرح النووي (١٣/٧٩).
(٥) البخاري بشرح ابن حجر (٩/٥٩٩ ـ ٦٠٠).
(٦) المشكاة (٢/٤٢٥).
(٧) المطالب العالية (٤/٣٠٥).

الإسلام سألوا رسول الله ﷺ - عن صيد المعراض وتكرر ذلك منهم مما يدل على شيوعه فيهم وانتشاره بينهم[1].

والصيد بنوعيه يعتبر دخلاً هاماً يرفع المستوى المعيشي للأفراد، وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول: إنهم كانوا يحرصون على الاصطياد لحاجتهم إليه، وليرفعوا عن أنفسهم الفاقة والضيق اللذين كانا يخيمان على المجتمع في هذه الحقبة من الزمان، حيث كانت الزراعة وحدها لا تكفي لسد حاجات الإنسان الضرورية، حتى اضطروا إلى الاستدانة على النحو الذي رأيناه آنفاً.

وأما الرعي فقد كان حرفة السواد الأعظم من سكان الجزيرة العربية، وكان السكان على اختلافهم لا غنى لهم عنه سواء كانوا زراعاً أم تجاراً، بدواً أم حضراً، فالزراع تعتبر الماشية بأنواعها المختلفة من إبل وبقر وغنم وماعز وخيل وبغال وحمير بالنسبة لهم شيئاً أساسياً من ضرورات الحياة التي لا يمكن الاستغناء عنها، لأنها هي الوسائل التي يروون بها أرضهم ويحرثون بواسطتها زرعهم ويتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً، ويتخذون من جلودها بيوتاً يستخفونها في حلهم وظعنهم.

وأما التجار فإنهم كانوا يتخذونها سلعاً يبيعون فيها ويشترون، كما كانوا يستعملونها وسائط نقل لتجارتهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، فكانت بذلك عوناً لهم على استثمار أموالهم، وتجارة حاضرة يديرونها بينهم.

وأما البدو فالمواشي هي رؤوس أموالهم التي يعلقون عليها آمالهم، وينظمون على أساس امتلاكها حياتهم، فمن لحومها يأكلون، ومن ألبانها يشربون، ومن صوفها ووبرها يلبسون ومن جلودها يتخذون بيوتاً إلى ظلها يفيئون.

ويتخذ الحضري لها مراحاً ومسرحاً، فهي له زينة وجمال، فيركب منها الخيل والبغال، وهي سلاح وقت الحرب لا يفل، وذخيرة في السلم لا تمل، ظهورها عز، وبطونها كنز.

---

(١) البخاري بشرح ابن حجر (٥٩٩/٩، ٦٠٣، ٦٠٤).

تلك هي الصورة التي كان عليها عامة السكان في الجزيرة، ولم يكن أهل يثرب بمعزل عن ذلك، ولكن كانت لهم إبل ومواش وأنعام كانوا يهتمون بها، ويرعونها ما تنبته الأرض من عشب، وكلأ وشجيرات، وبالقرب من يثرب توجد منطقة رعوية خصبة تعرف بالغابة، وأخرى تعرف بزغابة، وكلاهما بالشمال الغربي ليثرب، وكان أهل يثرب يحتطبون منهما، ويرعون أنعامهم ومواشيهم كلأها وأشجارها، كما يوجد في جنوب يثرب مراعٍ خصبة تقع بين يثرب والربذة كانوا ينتجعونها فيجدون فيها ما يسمن مواشيهم، ويغذي إبلهم، ويقول السمهودي: إن سعة حماة كان بريدا في بريد، وأن سرة حمى الربذة كانت الحرة، إلى أن يقول: وكان يرعى فيه أهل المدينة[1].

وإننا لنلاحظ أن القرآن الكريم قد امتن على سكان الجزيرة العربية بما حباهم الله من خيرات الأرض المختلفة، فالزراعة بأنواعها النخيل والزيتون والرمان والأعناب وجميع الثمرات ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات، وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾[2] ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء، فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب، والزيتون والرمان، مشتبهاً وغير متشابه﴾[3].

وإلى جانب هذه النعم الخاصة بالإنسان، تذكر آيات أخرى الأشجار التي ترعاها الأنعام أولاً، ثم تقضي بذكر تلك النعم، قال تعالى: ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء، لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات ﴾[4].

وفي تقديم الأشجار التي ترعاها الأنعام مطابقة لذكر ما يهتمون به، ويحبون أن يطمئنوا عليه، لأن العرب يقدرون الأنعام قدرها، ويحبون

---

(١) وفاء الوفا (٣/١٠٩١ - ١٠٩٢).

(٢)، (٣) الأنعام: ١٤١ و٩٩.

(٤) النحل: ١٠، ١١ وتسيمون بمعنى (ترعون دوابكم) عن كلمات القرآن للشيخ مخلوف.

اقتناءها، ولقد كان في ذكر الأنعام بأنواعها المختلفة، والإشادة بفوائدها، والإطناب في خصائصها تعبير صادق عما في نفوس العرب من الحب لها، والاستمتاع بذكرها، قال ـ تعالى ـ: ﴿والأنعام خلقها، لكم فيها دفء ومنافع، ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق ما لا تعلمون﴾[1].

من هذا كله يتضح لنا أن الزراعة كانت شيئاً هاماً بالنسبة لسكان الجزيرة العربية، والآيات وإن كانت مكية إلا أنها تخاطب الناس جميعاً وتدل على اهتمام العرب بالزراعة والرعي، ولو لم يكونا جديرين بالاهتمام، ولو لم يكونا بالنسبة لسكان الجزيرة شيئاً ذا بال ما ذكرهما القرآن بهذا التفصيل، وما كرر ذكرهما في سور كثيرة على هذا النحو.

ثالثاً: التجارة

ومدينة يثرب كانت ككل المدن في الجزيرة العربية تحيط بها القرى، وإن نأت، ويضرب حولها البدو من كل ناحية، ومن المؤكد أن هذه القرى تقصد يثرب لتبيع منتوجاتها، وتشتري منها حاجاتها، وكان لا بدّ لهؤلاء البدو من أسواق يتجهون إليها لبيع ما لديهم وشراء ما ينقصهم، وليس لهؤلاء، ولا لأولئك مقصد إلا يثرب، حيث هي بالنسبة لهم واسطة العقد، وعاصمة الإقليم.

لهذا كانت الحركة التجارية في يثرب ملحوظة، فكان الناس يقصدونها كأفراد، كما كانت القوافل تؤمها جماعات فإن موقع يثرب في الطريق بين الحجاز والشام، جعلها محطاً تلتقي فيه القوافل الذاهبة إلى بلاد الشام، والقوافل القادمة منها. وهناك يحصل الاحتكاك التجاري، فيعرف التجار من خلال لقائهم الأسعار والأصناف، ويقفون على ما ينقص القافلة القادمة من

---

(١) النحل: ٥ ـ ٨.

البضائع التي يحتاج إليها الناس، فيجلبونها معهم، وفي نفس الوقت يعرفون أسعار السلع المجلوبة فلا يستطيع أحد أن يخدعهم أو يغبنهم.

وإني لأعتقد أن أهل يثرب كانوا يستفيدون من مرور هذه القوافل ببلدهم، حيث كانوا يشترون من القادمين ما يلزمهم، ويبيعون للذاهبين ما يتزودون به في طريقهم، إذ لا يمكن أن يغفل أهل يثرب ـ وفيهم اليهود ـ تلك الفرص ولا يستفيدون منها.

لهذا كله أستطيع أن أؤكد أن الحركة التجارية في يثرب كانت واسعة وهامة، كما كانت مصدراً رئيسياً من مصادر العيش للسكان، وإن كانت لا تفوق النشاط الزراعي أو تماثله بل كانت في الدرجة الثانية بعده.

الأسواق الداخلية

اقتضى اشتغال أهل يثرب بالتجارة أن تكون لهم أسواق يجتمعون فيها، كذلك اقتضى التقاء القوافل التجارية فيها أن تكون هذه الأسواق على مستوى يتناسب مع تجارتها الخارجية، ذلك لأن منزلة يثرب التجارية منزلة مرموقة، ولهذا فإن تجارتها كانت على نوعين: تجارة داخلية وتجارة خارجية، وسأتناول كل نوع منهما بالتفصيل.

أسواق يثرب:

وقد كان ليثرب في الجاهلية أسواق يجتمعون فيها للتجارة، والسوق: الموضع الذي تجلب إليه البضاعة والأمتعة وقد كانت أسواق يثرب فضاء واسعاً لابناء فيه، ومن يسبق إليه فله المحل الذي يضع فيه بضاعته[1]، حتى كان الراكب ينزل بسوق المدينة، فيضع رحله ثم يطوف بالسوق، ورحله بعينه يبصره، ولا يغيبه عنه شيء[2].

(١) مكة والمدينة ص: ٣٦٥.

(٢) السمهودي (٢/٧٤٩).

وكان ليثرب أربعة أسواق:

أحدهما : في الشمال الغربي ويعرف بسوق زبالة، وظلت هذه السوق عامرة ينزل بها التجار، حتى جاء الإسلام فعظم شأنها، وزادت أهميتها وبخاصة لما ساءت العلاقات بين المسلمين واليهود، واتخذها المسلمون سوقاً لهم[1]، وتركوا سوق بني قينقاع.

والثاني : في الجنوب في قباء وتعرف بسوق العصبية.

والثالث : في وسط يثرب، عند جسر بطحان، ويعرف بسوق بني قينقاع، وكان يقوم في السنة مراراً، ويقصده الناس والشعراء فيتفاخرون فيه وينشدون الأشعار، ويروي السمهودي عن ابن شبة خبرا في اجتماع حسان بن ثابت والنابغة الذبياني وقيس ابن الخطيم[2]، ويعرف باسم حباشة أيضاً، ففي القاموس، حباشة كثمامة سوق كانت لبني قينقاع[3] وكانت سوقاً عظيمة تكثر فيها الحركة وتسمع منها ضجة البيع والشراء والتعامل[4] وظلت هذه السوق قائمة حتى مجيء الإسلام، ثم تحول عنها المسلمون إلى سوق المدينة التي خطها لهم رسول الله - ﷺ -.

والرابع : ويقع بين قباء وجسر بطحان من جهة الشرق، ويعرف باسم مزاحم نسبة إلى أطم بناه هناك عبد الله بن أبي بن سلول وسماه (مزاحماً) وفيه يقول السمهودي: (مزاحم - بالضم وكسر الحاء المهملة - أطم كان بين ظهراني بيوت بني الحبلى وكان بزقاق ابن حيين (وهو) سوق يقوم في الجاهلية وأول الإسلام يقال لموضعه مزاحم)[5].

---

(١) نفسه (٧٤٧).

(٢) نفسه (١٢٣٨/٤).

(٣) القاموس مادة (حبش).

(٤) الأغاني (٦٢/٢١) التقدم.

(٥) السمهودي (١٣٠٦/٤).

تلك هي أسواق يثرب في الجاهلية، والمتتبع لأماكنها يرى أنها كانت موزعة توزيعاً دقيقاً على جهاتها المختلفة، فمنها واحد في الجنوب، ومنها واحد ثانٍ في الشمال، والباقيان كانا في وسط يثرب أحدهما إلى جهة الشرق والآخر إلى جهة الغرب.

ويبدو أن حاجة السكان الملحة هي التي وزعت الأسواق هذا التوزيع، لأنه لم يكن هناك حكومة قائمة، ولا هيئة منظمة تقوم على أمر الناس وترعى مصالحهم، كما يبدو من ذلك التوزيع أن يثرب كانت في ذلك الزمان تمتد من قباء جنوباً إلى المكان المعروف بزغابة شمالاً، كذلك كانت تمتد من الحرة الشرقية عند مهزور ومذينيب، اللذين كان ينزل عليهما بنو قريظة والنضير، إلى الحرة الغربية المعروفة بحرة الوبرة والتي تحد المدينة من الغرب[1].

السلع والبضائع:

ولقد كان يعرض في هذه الأسواق سلع وبضائع محلية ومستوردة، فأما المحلية فكان أهل يثرب يعرضون غلاتهم الزراعية، ومنتوجاتهم الحيوانية، وصناعاتهم اليدوية، فكانوا يبيعون التمر والرطب والشعير والثقاء والسلق والبصل والكراث والثوم والعنب والبطيخ[2].

كذلك كان يباع الخمر والحطب الذي كانوا يحتطبونه من الغابة ومن البوادي أو من أشجار يثرب نفسها كما كانوا يبيعون اللبن والأقط والإبل والغنم، والمكاتل والآلات الزراعية على اختلاف أنواعها والحلى الذي اشتهر في صناعته يهود بني قينقاع وكذلك السلاح[3].

وأما البضائع والسلع المستوردة فكانت تجلب عن طريقين:

الأول: ما يجلبه بدو الجزيرة سواء كانوا قريبين من يثرب أم بعيدين

(١) مكة والمدينة ص: ٢٨٨.
(٢) راجع كتاب البيوع في البخاري ومسلم.
(٣) مكة والمدينة ص: ٣٦٦.

عنها، وما تجلبه القوافل الذاهبة إلى الشام من غلات الجزيرة ومنتوجاتها.

والثاني: ما تجلبه القوافل العائدة من بلاد الشام وهي في طريقها إلى الحجاز، وهذه كانت تعتبر سلعاً أجنبية عنهم، ويكون بعضها أحياناً لا يقدر على شرائه إلا أهل اليسار والنعمة منهم.

وكثيراً ما كان هؤلاء البدو يفدون إلى يثرب للامتيار منها، وليصرفوا الزائد عن حاجتهم من إبل وغنم وخيل، وصوف ووبر وشعير ولبن وسمن وأقط[1].

وأما القوافل العائدة من الشام فكانت تبيع فيها ما تجلبه معها من غلات الشام ومنتجاته كالنبيذ والزيت والحنطة والمنسوجات القطنية والحريرية، والنمارق الملونة المرسومة[2].

وكان هناك تجار يشترون من هذه القوافل أنواع العطارة والمسك والروائح العطرية وكانت هناك سوق للفاكهة[3]، ولكل طائفة من هذه الطوائف مكان معلوم من السوق[4].

وكانوا يتعاملون بأنواع من البيوع فيها غرر وغش، مستغلين في ذلك جهل البدو وعدم معرفتهم بالأسعار، فكانوا يتلقونهم قبل وصولهم إلى السوق، ويشترون منهم بضاعتهم بأسعار أقل من السعر المعروض في الأسواق، وكثيراً ما كان يمنع التجار ذلك ليحتكروها ويبيعوها بالسعر الذي يناسبهم غير مراعين مصلحة المستهلك.

كما كانوا يستعملون المناجشة في البيع، وتلك وسيلة خداع لا يرضاها الضمير الإنساني لأن المناجشة هي دخول شخص في البيع لا يقصد الشراء، ولكن ليزيد في قيمة السلعة حتى يوهم الناس بأنها جيدة وصفقة رابحة وهي ليست كذلك.

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٦٥، ٣٦٦.
(٢) نفسه، البخاري (٤/٣٢٥).
(٣) السمهودي (٢/٣٣٦).
(٤) مكة والمدينة ص: ٣٦٦.

وكان من وسائل الغش في البيع والشراء خلط الجيد من البضاعة بالرديء، كما كانوا يعمدون إلى القمح أو الشعير ويبلونه بالماء حتى يكثر عند الكيل، كذلك كانوا يمتنعون عن حلب الماشية التي يريدون بيعها حتى يجتمع اللبن في الضرع فيحسبها الشاري حلوباً غزيرة اللبن، وهو المعروف بالمصراة، وكانوا يبيعون إلى أجل يسمونه ـ وهو النسيئة ـ كما كانوا يبيعون مقابل رهن يقدمه المشتري، حتى يدفع القيمة، ويسترد الرهن، وهاتان وسيلتان من أبرع وسائل زيادة الربح، وتنشيط الحركة التجارية، حيث يقبل الناس على الشراء، وإن لم يكن معهم قيمة ما يشترون، وفي نفس الوقت يستغل التاجر حاجة المشتري فيرفع السعر مقابل تأجيل الدفع.

ويدل التعامل بين الناس بهذه الطرق المتقدمة على أنه لم تكن هناك رقابة في الأسواق تنظم البيع والشراء، وتخضع التجار لنظام يضمن مصلحة المستهلكين، وتحمي المستهلك من غش التجار وخداعهم، وذلك لأن يثرب كان يسودها النظام القبلي شأنها في ذلك شأن باقي مدن الجزيرة، فلم يكن بها حكومة تقوم بالرقابة والتنظيم.

والذي يلاحظه الدارس لهذا الجانب من تاريخ يثرب هو أن هذه المعاملات ظلت الطريقة المتبعة في البيع والشراء حتى جاء الإسلام فنهى عن كل ما فيه غرر أو غش أو خداع، ووضع قواعد للبيع والشراء على النحو الذي سنعرفه فيما بعد[١].

وكانت السمسرة معروفة عند أهل يثرب، واتخذها بعضهم حرفة يكسبون منها رزقهم، وكانت مهمة السمسار أن يتولى البيع عن صاحب السلعة مقابل أجر يحصل عليه منه، وكان السمسار يتحرى في ذلك مصلحته الشخصية فحيثما وجد الزيادة لدخله باع، وقد لا يكون ذلك في مصلحة المالك، بل قد يعود عليه بالخسارة، كما أنه قد يترتب عليه حرمان أهل البلد من البضاعة التي جلبها البدو، وإضرارهم باحتكارها ورفع سعرها[٢].

---

(١) يراجع كتاب البيوع في البخاري ومسلم.

(٢) البخاري شرح ابن حجر (٤/ ٣٧٠).

المصارف:

وهناك أناس من أهل يثرب قاموا بدور المصارف، وإن كان على نطاق ضيق، فكانوا يبيعون الذهب بالذهب والفضة بالفضة، كما كانوا يقومون بصرف الدنانير بالدراهم، وكانوا يستغلون جهل الناس وعدم معرفتهم بأنواع الذهب والفضة، فكانوا يبيعون الرديء بالجيد، والمنقوش بالمضروب، والمكسر بالصحيح والمغشوش بالخالص[1].

وكانوا يبيعون الذهب بالفضة والعكس، ويعتبرون ذلك نوعاً من التجارة التي تدر عليهم رزقاً يستعينون به على مطالب الحياة وتبعاتها.

لم يكن ذلك نظاماً مصرفياً بالمعنى المعروف الآن، ولكننا نستطيع أن نعتبره محاولة لوضع أساس مصرفي يمكن أن تقوم عليه معاملات مصرفية متطورة، وأغلب الظن أن الذي أوجد هذا النظام، ودفع الناس إلى التعامل به هو وجود اليهود بينهم، وهم قوم قد عرفوا من قديم الزمان بحبهم للمال وتحصيله بأية وسيلة تمكنهم من تحصيله.

الربا:

وكما فكر بعض الناس في احتراف الصرف، واتخاذه وسيلة كسب، فكر بعض آخر في تنمية ثروته عن طريق التعامل بالربا، والتعامل بالربا طريق مضمونة للربح لا يعكر صفوها خسارة، ولذلك أقبل عليه الذين يملكون رؤوس أموال تمكنهم من إقراض الناس على أن يردوا القرض بزيادة يحددونها، وقد تصل تلك الزيادة إلى حد تكون فيه أكبر من القرض، وتكون النتيجة استيلاء المرابي على أموال الناس بغير حق، فيثري على حساب الفقراء، ويسعد بعذاب الأشقياء.

وإذا نحن تتبعنا آيات القرآن التي تناولت الربا، وأظهرت فساده،

---

(١) فتح الباري (٤/ ٣٨٠).

وعابت على الذين يتعاملون به، وجدناها توجه الخطاب إلى طائفة معينة من سكان يثرب وهم اليهود، قال تعالى: ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت، وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾[١].

وتخصيص اليهود بالذكر لا يدل على أنهم وحدهم هم الذين كانوا يتعاملون بالربا، بل يدل على أنهم كانوا أصحاب الفكرة والذين بدأوا بالتعامل بها، ولهذا حملهم مسؤوليتها، والواقع أن كثيراً من العرب كانوا يتعاملون بالربا سواء كان ذلك مع اليهود أم مع العرب، وسواء كان العربي من أهل يثرب أم من غير أهلها، حتى روى صاحب الأغاني أن أحد الشخصيات العربية المرموقة، وهو أحيحة بن الجلاح، أحد زعماء الأوس، كان يتعامل بالربا مع قومه حتى كاد أن يستولي على أموالهم[٢].

ولقد كان التعامل بالربا شائعاً بين سكان الجزيرة العربية، وبين أهل يثرب خاصة، شيوعاً جعل القرآن الكريم يندد به، ويهدد الذين يتعاملون على أساسه، بل تصل الحال إلى إعلان الحرب من الله على هؤلاء الذين لا يكفون عن التعامل به ولو كانوا في عداد المؤمنين[٣].

والذي يظهر من معالجة القرآن الكريم لمشكلة الربا، والأساليب التي اتبعها في القضاء عليه، أنها مشكلة مستعصية، ألفتها النفوس، فأصبحت لا تستغني عنها، وأشربت حبها القلوب فلا سبيل إلى نبذها بسهولة، لهذا فإن القرآن الكريم وهو بصدد مشكلة اجتماعية خطيرة اتخذ في حلها وسائل نفسية لِيُهَيِّىء القلوب لقبولها، ويتدرج بالنفوس إلى الرضا بها وسنوضح ذلك عند الكلام على الوضع الاقتصادي في الإسلام.

---

(١) النساء: ١٦٠ ـ ١٦١.
(٢) الأغاني (١٣/١١٩) التقدم.
(٣) البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

الأسواق الخارجية

كانت الأسواق الخارجية بالنسبة ليثرب منحصرة تقريباً في سوقين أحدهما في الشمال وهي بلاد الشام، والثانية في الجنوب وهي بلاد اليمن، والذي يظهر أن السوقين كانتا بالنسبة لأهل الحجاز بعامة شيئاً مهماً، حتى ورد ذكرهما في القرآن الكريم على سبيل الامتنان، وحث أهل الرحلتين على الإيمان برب البيت الذي هيأ لهم أسباب التوجه إلى السوقين، قال ـ تعالى ـ: ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم، رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾[1].

وجمهور المفسرين على أن الرحلتين المذكورتين كانت إحداهما إلى اليمن شتاء، والثانية إلى الشام صيفاً، ويتضح من ذلك أن الأسواق الخارجية لأهل الحجاز هي الشام واليمن، وقد توجد أسواق أخرى كبلاد الفرس إلا أن التعامل معها كان قليلاً ونادراً.

روى أبو هلال العسكري قال: خرج أبو سفيان بن حرب وركب من قريش وثقيف، يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم، فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان، فقال: إنا في مسيرنا هذا لعلى خطر، قدومنا على ملك لم يأذن لنا بالقدوم عليه، وليس لنا بمتجر، فأيكم يذهب بالعير، فإن أصيب فنحن براء من دمه، وإن يغنم فله نصف الربح، فقال غيلان بن سلمة الثقفي: أنا أمضي بالعير[2].

وهذه الرواية تدل على أن العرب كانوا يذهبون أحياناً إلى بلاد كسرى بتجارتهم، وتدل أيضاً على أن ذلك كان نادراً، ويفهم هذا من كلام أبي سفيان (وليس لنا بمتجر).

على أننا لا نستطيع أن نجزم بأن أهل يثرب كانوا يخرجون مع بقية العرب إلى هذين السوقين أو غيرهما، ولا أستطيع أن أجزم كذلك بأنهم لم

---

(١) سورة قريش.

(٢) الأوائل ص: ٣٤٨.

يخرجوا إليهما، بل الذي يغلب على الظن، ويستطيع الإنسان أن يقرره هو أن خرجوهم إلى بلاد الشام أقرب إلى تصور العقل من عدمه، ذلك لأن يثرب كانت محطاً للقوافل الذاهبة إلى بلاد الشام، وكانت تلك القوافل تحط رحالها بها، تستريح من عناء السفر عندها، وكانت هذه القوافل تخالط أهل يثرب، وتعيش معهم مدة نزولهم، وكانوا يعاملونهم فيشترون منهم ويبيعون لهم.

نعم، لقد كان أهل يثرب زراعاً وقفوا حياتهم على الأرض يفلحونها، ويستخرجون خيراتها، ومن عادة الزراع أن تربطهم بالأرض روابط أقوى منهم، فهم لهذا لا يستطيعون مغادرتها، ولا استبدال العمل فيها بعمل آخر مهما كان، ولكننا نعرف أنه كان مع أهل يثرب الزراع طوائف أخرى، منهم من كان يحترف الصناعة، ولم يعرف عنهم قط الاشتغال بالزراعة، وهم بنو قينقاع اليهود الذين اشتهروا بصناعة الحلى والسلاح والتجارة.

يقول الأستاذ دروزه: ولا تذكر الروايات أن المسلمين استولوا على أرض ومزراع لهم، أو سمحوا لهم بإقامة وكلاء لهم عليها، كما كان الأمر بالنسبة لبني النضير وبني قريظة على ما سوف يرد بعد، حيث يفيد هذا أنهم كانوا تجاراً وصناعاً فقط[1].

ومن هذه الطوائف من كان يكري أرضه، ويستعمل عليها من يزرعها، ويتفرغ هؤلاء بعد ذلك للتجارة[2] لذلك لم يكن غريباً أن يعمل هؤلاء السكان في التجارة، وبخاصة وهم يهود، والتجارة وسيلة جيدة لتنمية الثروة.

وعلى هذا فإنني أعتقد أن أهل يثرب لم تفتهم هذه الفرصة، وأرجح أنهم لا بدّ قد ضربوا بسهم عظيم في تلك الأسفار، وأنهم قد تاجروا مع التجار على الأقل في سوق الشام، ولكن خرجاتهم وسفراتهم كانت بالنسبة لتجار قريش قليلة ومحدودة.

---

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص: ٥٠٧.

(٢) مكة والمدينة ص: ٣٥٨.

ويحدثنا الدياري عن أبي رافع سلام بن أبي الحقيق النضري، وهو شخصية يهودية معروفة، بأنه كان يرسل تجارة كبيرة إلى الشام بواسطة القوافل، وأنه كان يستورد من الشام الأقمشة المختلفة[1] وأبو رافع هذا كان من سكان يثرب الذين أجلاهم رسول الله - ﷺ - مع بني النضير - وكان من زعمائهم -[2].

وهذا مما يثبت ما رجحناه من أن بعض أهل يثرب كانوا يشاركون في إرسال تجارتهم إلى الشام واستيراد ما يصلح للعرب منها من نبيذ وزيت وحنطة وأقمشة إلى غير ذلك.

والحقيقة أن أهل يثرب لم يشتركوا بتوسع في هذه الرحلات، كما كان يفعل أهل مكة لسببين.

أحدهما: إن بلادهم كانت غنية بغلاتها الزراعية، ومنتوجاتها الحيوانية، فكان في ذلك غناء لهم عن الضرب في الأرض لجلب الرزق.

الثاني: إن المشكلات الداخلية من حروب وخصومات طغت على حياتهم، وشغلتهم عن أي شيء سواها.

وكانت هناك أسواق عربية يحضرها أهل يثرب، ويبيعون فيها ويشترون، وهذه الأسواق هي: عكاظ ومجنة وذو المجاز، وهي أسواق كانت تقام في أشهر الحج بين مكة والطائف، فكانت عكاظ تقام صبح هلال ذي القعدة إلى أن يمضي عشرون يوماً، ثم يقام سوق مجنة عشرة أيام إلى هلال ذي الحجة، ثم يقوم سوق ذي المجاز ثمانية أيام[3].

الصادرات والواردات:

لما كان أهل يثرب يمارسون أنواعاً من التجارة على النحو السابق،

---

(١) تاريخ الخميس (١٢/٢).
(٢) مختصر سيرة الرسول ص: ٢٦٢.
(٣) فتح الباري (٥٩٤/٣).

فإنهم لا بدّ كانوا يصدرون ما يزيد عن حاجتهم من الصناعات، فكانوا يصدرون الحلى التي اشتهر بصناعتها يهود بني قينقاع، كما يصدرون ما يزيد عن حاجتهم من التمر وكانت صادرات يثرب مقصورة تقريباً على ذلك، ولكنها كانت تستورد الكثير من البضائع التي هي في حاجة إليها.

فكانوا يستوردون الأقمشة الحريرية والقطنية والنمارق ووسائل الترف، والزيت والزبيب والنبيذ من الشام أو من اليمن كذلك كانوا يستوردون العطور والمسك من البحرين[1].

ولما كانت بعض الصناعات تقوم في يثرب مثل صناعة الأسلحة والحلى والآلات الزراعية وكانت يثرب لا تملك المواد الخام اللازمة لتلك الصناعات، فإنها كانت تستورد الذهب الخام والحديد لتصنيعه، وتصريفه في الأسواق المحلية أو الخارجية إذ لا يعقل أن تكون هذه الصناعات قائمة في يثرب، وهي خالية من موادها الخام، وتستمر هذه الصناعات من غير أن يستورد أصحابها ما يلزم لها من المواد، ثم إن صناعة الحلى تستلزم بعض الأحجار الكريمة كاللؤلؤ والياقوت والزمرد، فكانوا يستوردونها أيضاً لإدخالها في صناعاتهم[2].

وكان ليثرب ميناء هام يعرف باسم (الجار)، وهو على بعد يوم وليلة من المدينة، وكانت ترسو فيها السفن القادمة من بلاد الحبشة والصين وعدن والهند، ولا بدّ أن هذه السفن كانت تحمل صادرات هذه البلاد، ولا بدّ أيضاً من أن يثرب كانت تستفيد من هذا الميناء لقربه منها ولأهمية ما كانت تحمل هذه السفن من خيرات البلاد التي قدمت منها[3].

المكاييل والموازين:

لما كانت الزراعة هي الغلة الرئيسية لأهل يثرب كان احتياجهم إلى

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٧٢.
(٢) مكة والمدينة ص: ٣٧٢.
(٣) نفسه: ٣٧٣.

المكاييل أكثر من حاجتهم إلى الموازين، والمكاييل التي كانت تستعمل في يثرب هي: المُدُّ، الصاع، الفرق والوسق. والمد هو الوحدة الرئيسية لهذه المكاييل، بمعنى أنها كلها ترجع إليه.

١ ـ والمد : حدده صاحب القاموس بملءِ كفي الرجلِ المعتدل إذا ملأهما ومد يديه بهما، قال: وبه سمي مداً، وهو: رطل وثلث.

٢ ـ والصاع : أربعة أمداد، أي أربع حفنات بكفَّي الرجل الذي ليس بعظيم الكفين ولا صغيرهما. وهو خمسة أرطال وثلث.

٣ ـ والفرق : ثلاثة آصع، أي إثنتا عشرة حفنة كما سبق. وهو ستة عشر رطلاً.

٤ ـ والوسق : ستون صاعاً أي مائتان وأربعون حفنة[1] وهو ثلاثمائة وعشرون رطلاً.

وأحب هنا أن أنبه على أن الأستاذ الشريف قد وهم فظن المد صاعاً، حين يقول: وكانت المكاييل أنواعاً وحدتها المد، وهو أربع حفنات، بحفنة الرجل الأوسط، كما نقل عن صاحب القاموس أن الفرق سبعة عشر رطلاً وثلاثة أرباع الرطل[2]، وقد راجعت القاموس، فوجدته ذكر في مادة (فرق) قال: ومكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصع أو يسع ستة عشر رطلاً.

وأما الموازين فكان استعمالها قليلاً عند أهل يثرب، فقد يحتاجون إليها عند مزاولة التجارة، أو العمل بالصرف، والموازين المستعملة عندهم هي: القيراط ـ الدانق ـ الدرهم ـ المثقال ـ النواة ـ الأوقية ـ الرطل ـ والقنطار.

وهذه الموازين ليست كلها عربية، بل فيها ما هو فارسي الأصل وهو الدانق، ومنها ما هو يوناني وهو الدرهم، ومنها ما هو آرامي وهو الرطل، ولو اعتبرنا الوحدة الأساسية للوزن هي القيراط، يكون تحديد كل وزن منها كما يأتي:

---

(١) القاموس مادة (مدد ـ صوع ـ فرق ـ وسق).

(٢) مكة والمدينةص: ٣٧٤.

١ ـ الدانق : وحدده صاحب القاموس بقيراطين.
٢ ـ الدرهم : وهو ست دوانق أي إثنا عشر قيراطاً.
٣ ـ المثقال : وهو واحد وثلاثة أسباع الدرهم أي سبعة عشر قيراطاً وسبع قيراط.
٤ ـ النواة : وهي ثلاثة دراهم أي ستة وثلاثون قيراطاً.
٥ ـ الأوقية : وهي سبعة مثاقيل أي عشرون ومائة قيراطاً.
٦ ـ الرطل : وهو إثنتا عشرة أوقية أي أربعون وأربعمائة وألف قيراط.
٧ ـ القنطار : وهو مائة رطل أي أربعة وأربعون ألف ومائة ألف قيراط[١].

ومع وجود المكاييل والموازين، ومع معرفة أهل يثرب لها واستعمالها في بيعهم وشرائهم، فكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الجزاف في البيع والشراء، والجزاف هو البيع أو الشراء من غير كيل ولا وزن وعلى التخمين[٢] وهذا البيع فيه مخاطرة حيث أنه غير مضبوط.

العملة:

العملة في الأصل أجرة العمل، ثم أطلقت على النقد لأنه غالب ما يتقاضاه العامل مقابل عمله، ولم يكن للعرب عملة معروفة وخاصة بهم، يتعاملون بها في بيعهم وشرائهم، واستئجارهم وكرائهم، ولم نرَ في مصدر من المصادر أنهم ضربوا عملة باسمهم، فكيف كانوا يتعاملون مع بعضهم أو مع غيرهم؟

من المعلوم أنهم كانوا يتعاملون بطريقتين:

إحداهما: المقايضة وهو بيع عرض بعرض معادل له في الثمن[٣] وقد يكون العرضان متفقي الجنس كالتمر بالتمر والذهب بالذهب، وقد يكونا مختلفين كالشعير بالتمر والذهب بالفضة وهذا هو الأغلب لأن الإنسان يقايض عادة ليحصل على ما ليس عنده.

---

(١) القاموس المحيط مادة (م ك ك ـ نوى ـ وقى ـ رطل) والمنجد مادة (قنط).
(٢) المنجد مادة (جزف).
(٣) المنجد مادة (قيض).

وهذه الطريقة معروفة عندهم وكانت أكثر معاملاتهم بها لأن الأعراض متوفرة لديهم، وقد يوجد عند بعض الناس ما لا يوجد عند بعضهم الآخر فيتقايضون ليحصل كل على ما يحتاج إليه مما هو متوفر عند غيره.

الثانية: التعامل بالنقد، وهو ما يعطى من الثمن معجلاً، ويقصد به الدراهم أو الذهب والفضة مطلقاً[1]، وكان التعامل بينهم بالدينار والدرهم، والدنانير تضرب عادة وفي الغالب في بلاد الروم ومن الذهب، ويرسم عليها صورة الملك الذي ضربت في عهده ويكتب عليها اسمه بالرومية، ولهذا سمتها العرب الهرقلية نسبة إلى هرقل قيصر الروم.

وأما الدراهم فكانت تضرب غالباً في بلاد الفرس وتؤخذ من الفضة، ويرسم عليها صورة كسرى ويكتب اسمه عليها بالفارسية وبعض الدراهم والدنانير لم تكن منقوشة ولا مضروبة، وكانت ترد من بلاد اليمن ومن بلاد المغرب.

والعرب كانوا يعتمدون في معاملاتهم الخارجية على الدراهم والدنانير، حيث كان تجارهم يجلبونها من الخارج عندما يبيعون بضائعهم ويأخذونها ثمناً لها، وكذلك كان تجار هذه البلاد يحضرون إلى بلاد العرب ليستبضعوا منهم، ويدفعون الدراهم والدنانير ثمناً للبضاعة التي يشترونها.

ولما كانت الدراهم والدنانير غير متوفرة دائماً بأيدي العرب، اعتمدوا في معاملاتهم على الوزن في الذهب والفضة[2].

رابعاً: الصناعة

الصناعة من أهم مقومات الاقتصاد في الدول، وبخاصة إذا توفرت الأيدي العاملة، ووجدت المواد الأولية التي تحتاج إليها في الصناعة وقد توفرت في يثرب ثروة زراعية اعتمدت عليها في بعض الصناعات التي قامت

---

(١) نفسه مادة (نقد).

(٢) مكة والمدينة ص: ٣٧٥.

فيها، ولما وجدت فيها الأيدي العاملة الماهرة أوجدت فيها صناعات أخرى اقتضتها ضرورات الحياة المتحضرة التي كان يعيشها أهل يثرب، كما فرضت عليهم الحروب والعداوة صناعة أخرى كانوا لا بدّ أن يوفروها محافظة على حياتهم، وإظهاراً لقوتهم حتى يرهبهم عدوهـم.

وعلى هذا فقد كانت الصناعات في يثرب على النحو الآتي:

١ ـ صناعة زراعية.
٢ ـ صناعة عسكرية.
٣ ـ صناعة الحلي والزينة.
٤ ـ صناعات عامة تستلزمها ضرورات الحياة[١].

١ ـ الصناعة الزراعية:

والصناعة الزراعية نوعان: نوع تعتمد عليه الزراعة، ونوع يعتمد على الزراعة. فأما النوع الأول فهو ما لا يستغني عنه الزارع في عمله، كالمحراث والمنجل والفأس وغير ذلك، وأما النوع الثاني فهو ما يقوم بصناعته صانع ـ وقد يكون غير الزارع ـ من حاصلات الزراعة كالمكاتل والخصف والنجارة بأنواعها.

وعلى كل حال فالنوعان كانا موجودين في يثرب، واستعملها أهلها، والمصنوعات من النوع الأول تحتاج إلى تعاون حرفتين في إنتاجها فكان لا بدّ من وجود الحرفتين، ووجود من يحترفهما، والحرفة الأولى هي الحدادة، ويقوم محترفوها بصناعة الجزء الحديدي منها كسكة المحراث[٢]، ورأس الفأس، وسلاح المنجل، والحرفة الثانية هي النجارة، ويقوم محترفـوها بصناعة الجزء الخشبي من هذه الآلات، كزراع المحراث، وعصا الفأس، ويد المنجل.

وكانوا يصنعون من النوع الثاني الخمر: وهي تصنع من العنب واليسر

---

(١) راجع الصناعات في التراتيب الإدارية (٢/٦٣) وما بعدها.
(٢) سكة المحراث (حديدته التي يحرث بها).

والتمر والعسل والحنطة والشعير والزبيب[1] وكانوا يشربونها ويبيعونها، وكانوا يخزنون منها كميات كبيرة ويعتقـونها، ولم يكن محترفوا هذه الصناعة من العرب وحدهم، بل كانوا من العرب واليهود على حد سواء. كذلك كانوا يصنعون المكاتل والخصف من الخوص، ويستعملونها في أعمالهم الزراعية، وأشغالهم المنزلية[2].

ومن الأشجار اتخذت النجارة بأنواعها المختلفة من أبواب ونوافذ، وكراس وأثاث، وقد ساعد على انتشار تلك الصناعة وجود غابة كثيفة في شمال غربي يثرب، وكانت تكثر فيها أشجار الأثل الصالحة لهذه الصناعة[3].

وكثير من أهل يثرب الأثرياء كانت بيوتهم مؤثثة تأثيثاً جميلاً، وكان استعمال الكراسي معروفاً عندهم حيث كانوا يصنعونها من الخشب ويصنعون أرجلها من الحديد[4].

٢ ـ الصناعة العسكرية:

إن وجود اليهود في يثرب، وشعورهم بأنهم دخلاء على أهل البلاد، إذ ليسوا من سكان الجزيرة أصلاً، وخوفهم من وقوع هجوم عليهم، سواء كان ذلك من جيرانهم الأوس والخزرج أو من البدو القاطنين إلى جوار يثرب، كما أن شعور الأوس والخزرج بضعفهم، وأنهم أقل عدداً وأضعف عـدة من اليهود، كل ذلك جعل هؤلاء وأولئك، يتنافسون على الأسلحة التي هي وسيلة الدفاع عن النفس وإرهاب العدو.

وقد اشتهر اليهود من قديم الزمان بصناعة الأسلحة، من سيوف ونبال ودروع وسهام ونصال، فكانوا يصنعونها فيتخذون منها لأنفسهم ويبيعونها

---

(١) البخاري شرح ابن حجر (١٠/٣٥، ٣٧، ٤٥).
(٢) مكة والمدينة ص: ٣٧٦.
(٣) البخاري ص: ٣١٩.
(٤) مكة والمدينة ص: ٣٧٦.

لغيرهم، وكانت الغارات المفاجئة والحروب المستمرة من أكبر الدوافع لترويج هذه البضاعة، حيث كان كل فريق يقتني منها أكبر كمية يعتقد أنها كافية لرد غارات الأعداء، وإرهاب الخصم وردعه.

وإلى جانب هذه الأسلحة تفننوا في بناء الحصون والآطام يلجأون إليها إذا دهمهم عدو، أو فاجأهم خصم، وهذه الحصون تعتبر في زمانهم كالتحصينات العسكرية في زماننا، وكانوا يخزنون فيها الماء والقوت والوقود وجميع ما يحتاجون إليه بكميات تكفي لفترة طويلة من الزمان حتى إذا حوصروا، أو اضطروا إلى المكث فيها مدة طويلة كان عندهم ما يغنيهم، فلا يحتاجون إلى شيء من خارج هذه الحصون، ومما يؤيد ذلك حصار رسول الله - ﷺ - لبني النضير خمس عشرة ليلة[1] ولبني قريظة خمسا وعشرين ليلة[2].

وكانوا يشيدون هذه الحصون من الحجارة الصلبة المنحوتة بأشكال هندسية، ويجعلون سمك الجدار فيها متراً أو أكثر، وكانت تقام من طابقين أو ثلاثة طوابق، وقد وصف صاحب كتاب (بين التاريخ والآثار) حصن كعب ابن الأشرف فقال: يقوم على هضبة من الحرة الجنوبية الشرقية للمدينة، وطوله ٣٣ متراً في عرض ٣٣ متراً، وارتفاع ما بقي من جدرانه أربعة أمتار، وسمكها متر وله باب واحد في الجهة الغربية، وثمانية أبراج ضخمة، وبناؤه من حجارة ضخمة ملتصق بعضها ببعض مباشرة، وطول بعض الأحجار ١٤٠ سنتيمتراً، وعرضها ٨٠ سم وسمكها ٤٠ سنتيمتراً.

ولا أثر فيه للنقوش، ولا للزخرفة، بناء حربي محصن، وبوسطه رحبة واسعة مربعة تبلغ مساحتها ألف متر مربع، وهي غير مرصوفة، ولا مبلطحة، فالصخور الحجرية ناتئة فيها، وبينها انخفاضات وارتفاعات وبجوار الحصن من الداخل عشر غرف مختلفة المقاسات، وأعاليه مهدمة[3].

---

(١) فتوح البلدان ص: ٣٤.

(٢) ابن هشام (٣/٢٣٥).

(٣) بين التاريخ والآثار ص: ٧٠ - ٧١.

وكما وجد الصناع الذين يقومون بصناعة هذه الآلات العسكرية، فقد وجد من الصناع من يقوم بجلاء الأسلحة وصقل السيوف[1].

٣ ـ صناعة الحلي والزينة:

وهذه صناعة تخصص فيها اليهود، واشتهر منهم بنو قينقاع، وكانت لهم سوق في وسط يثرب عند جسر بطحان، يصنعون فيه صناعتهم، ويبيعون فيه ما يصنعونه من الحلى، من أساور وأقراط وخلاخيل ودمالج، وخواتم وفتحات (الخاتم لا فص فيه)[2].

كانوا يصنعون ذلك من الذهب أو من الفضة. كما يصنعون بعض العقود من الجواهر الثمينة، ومن الجزع الظفارى، وهو خرز ثمين القيمة، جميل المنظر به ألوان منها الأبيض ومنها الأسود.

ويبدوا أن العرب لم يشاركوا اليهود في تلك الصناعة، لأنه لم يعرف أحد منهم احترفها، ولم يشتهر أحد منهم كان يتاجر فيها، ولكنها كانت حكراً عليهم[3].

وكان نساء يثرب يذهبن إلى سوق بني قينقاع ليشترين ما يلزمهن من الحلى، كما كان أهل البادية وغيرهم من سكان مدن الحجاز يقدمون إلى يثرب، فيأخذون منها الحلي لنسائهم وبناتهم، وكان اليهود بعامة يملكون الكثير من هذا الحلي للزينة والتجارة[4].

٤ ـ صناعات عامة:

الصناعات العامة ضرورة تقتضيها حياة الناس ومعاشهم، لأن الناس يحتاجون إلى مساكن يأوون إليها، كما يحتاجون إلى ثياب تقيهم الحر

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٧٨.
(٢) المنجد مادة (فتح).
(٣) المغازي (١/١٧٩).
(٤) مختصر سيرة الرسول ص: ٣١١.

والبرد، ثم هم في بيوتهم محتاجون إلى أوان يستعملونها في طهوهم وطعامهم وشرابهم، وأثاث يستريحون عليه في جلوسهم ومنامهم، وهذه ضرورات لا يمكن الحياة بدونها مهما كانت بدائية متواضعة، لهذا لم يخل مجتمع قط من جنس هذه الصناعات، ومجتمع يثرب مجتمع متحضر لو قيس بغيره من المجتمعات التي كانت تعاصره في جزيرة العرب، من أجل هذا بلغت هذه الصناعات درجة من التقدم في يثرب أكثر مما بلغت في غيرها من المجتمعات المعاصرة.

أما النجارة: فكان في يثرب نجارون على درجة كبيرة من اتقان حرفتهم سواء في نجارة المعمار ـ الأبواب والنوافذ والسقوف ـ أم في نجارة الأثاث والآلات، وفي كتب التاريخ روايات تحدثنا عن بني النضير، وكيف كانت أبواب بيوتهم ونوافذها وأسقفها على درجة عالية من فن النجارة، حيث كانت مزخرفة بالنقوش الجميلة، يقول السمهودي: فاحتملوا أبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، ويحملون ما يوافقهم من خشبها[(١)].

ويذكر الأنصاري عند كلامه على حصن كعب بن الأشرف أنه لما تم الاتفاق على جلاء بني النضير، مع حمل ما يستطيعون حمله من أمتعتهم ـ غير السلاح ـ حملوا أخشاب سقوف حصونهم، ونجف أبوابها الجميلة المزخرفة[(٢)].

كذلك كان هناك نجارون مهرة قاموا بتأثيث البيوت، حتى كان أثرياء اليهود يملكون كثيراً من الأثاث لبيوتهم كالأرائك والكراسي والسرر وغير ذلك[(٣)].

وأما البناء: فقد برع فيه صناع كانوا موجودين في يثرب، فكانوا يبنون الدور والقصور والآطام والحصون، ولا زالت بعض هذه الآثار قائمة إلى يومنا

---

(١) وفاء الوفا (١/٢٩٨).
(٢) بين التاريخ والآثار ص: ٧١.
(٣) امتاع (١/٢٤٥).

هذا في حرار المدينة وضواحيها، وكانوا يهتمون جداً بالآطام، حتى كانت تشمل مخازن السلاح، وخزانات الأموال ومستودعات الغلال والثمار، وكان لا بدّ من وجود بئر يشربون منه وقت الحاجة، و كانت آطام اليهود تنفرد على بقية الآطام بأنها كانت تضم المعابد، والمدارس حيث يجتمع زعماؤهم للتشاور والبحث ويبرمون العهود والاتفاقات[١].

يقول الأستاذ هيكل: وقد ترك أصحاب هذه المنازل من اليهود والأوس آثاراً في الحرة تدل على حضارة ونظام، تركوا بها آثار مصانع وصهاريج مياه لم يبق منها اليوم إلا أطلالاً دوارس[٢] وكان هناك عمال لنحت الحجارة وضرب الطوب وكل ما يستلزمه البناء.

وكانت الحياكة: حرفة تزاولها النساء، لأنها سهلة لا تحتاج إلى جهد كبير بقدر ما تحتاج إلى صبر عظيم وبال يقظ، كذلك كان يباشرها بعض الموالي الذين جلبهم أهل يثرب ليقوموا بشؤونهم، والأغلب ألا يباشرها إلا النساء، فكن يأخذن صوف الغنم أو وبر الجمال فيغزلنها ثم يقمن بحياكتها، قميصاً أو دثاراً أو شعاراً أو بردة[٣].

وكذلك الأواني المنزلية: فقد كان هناك صناع قاموا بها، وكانوا يصنعونها من الفخار أحياناً ومن النحاس أحياناً، وكان بعض المترفين يتخذونها من الذهب والفضة، يأكلون فيها ويشربون ويستعملونها في مصالحهم وحاجاتهم اليومية، وكان من بين هذه الأدوات المنزلية أدوات الصيد يصنعونها من الحديد كالفخاخ والأشراك أو من الخيوط المتينة كالحبائل والشِباك.

ونحن نلاحظ من هذا العرض أن الصناعات في يثرب كانت كثيرة ومتنوعة، وأن تعدد الصناعات فيها وتغطيتها لحاجات الناس المختلفة دليل

---

(١) مكة والمدينة ص: ٢٩٣.

(٢) في منزل الوحي ص ٦١٠.

(٣) البخاري شرح ابن حجر (٣١٨/٤) والدثار ما يستدفأ به فوق الشعار، والشعار ما يلي شعر الجسد.

واضح على مقدار ما كان يعيش فيه أهل يثرب من رقي وتمدن، وكان يقوم على هذه الصناعات ويمارسها العرب واليهود والموالي والعبيد الذين جلبوا إلى يثرب وعاشوا مع سادتهم، وكان منهم فريق يستقدم إلى يثرب ليقوم فيها بهذه الصناعات، وهؤلاء لم يكونوا من جنسية واحدة بل كانوا مختلفي البيئة والجنس، فكان منهم الرومي والفارسي، والحبشي والقبطي، ومنهم من كان يعمل لنفسه، ومنهم من كان يعمل لحساب من جلبه واستقدمه.

أثر اليهود في اقتصاد يثرب

مما تقدم نعلم أن الوضع الاقتصادي في يثرب كان في حالة جيدة، وأن السكان كانوا أحسن حالاً من غيرهم، فقد كانت قوافل التجارة تمر بهم متخذة من بلدهم محطاً يستريحون فيه، ويتبادلون التجارة مع أهله كما ثبت أن بعض القوافل كان يخرج من بينهم، فكانت هذه الحركة التجارية التي تمارس في يثرب دافعاً قوياً لتنشيط اقتصادها، وتنمية ثروتها.

على أننا يجب أن نفهم أن وجود اليهود في يثرب كان من أهم عوامل تنشيط الاقتصاد فيها فاليهود قوم يحبون المال حباً جماً ومستعدون للتضحية في سبيل تحصيله بكل غالٍ ونفيس، ولا تستطيع أية قوة أن تحول بينهم وبين جمع المال، وإذا وجدت هذه القوة فإنهم يحاولون التغلب عليها وتذليلها لمصلحتهم حتى يصلوا إلى ما يريدون.

كل هذا جعل اليهود ـ وهم من سكان يثرب ـ يحرصون على تنشيط الحركة الاقتصادية بأنواعها المختلفة ـ زراعية أم تجارية أم صناعية ـ لأن كل نشاط في يثرب سيعود إلى جيوبهم، وسيملأ عائده خزائنهم، فقد كانوا هم كما عرفنا يملكون أخصب البقاع الزراعية، وأكبر المساحات منها، كما كانوا هم الصناع الماهرين الذين يجيدون الصياغة والحدادة والنجارة والبناء، وكانت التجارة تحت أيديهم، يجهزون قوافلها، ويرسلونها إلى الأماكن المختلفة لتبيع ما تحمله، وتعود بالربح وفيراً ليستقر في جيوبهم، ومن أجل هذا حاولوا بقدر ما يستطيعون تحسين الوضع الاقتصادي، وتنمية الثروة

القومية، وإذا نشطت الحركة الاقتصادية في مكان ما، فإن ذلك سيعود على جميع السكان، وإن كان بنسب متفاوتة، وذلك ما حدث فعلاً في يثرب.

فقد كان اليهود أكبر قوة اقتصادية في يثرب، ولهذا فإنهم كانوا دائماً يوجهون الحياة حسبما يتفق ومصالحهم المالية، وكما كان وجودهم في يثرب من عوامل النشاط الاقتصادي، فإنه كان كذلك من أسباب الضيق الذي أصاب أكثر السكان، وجعلهم يتخلون عما يملكون من الأراضي الزراعية، واستعملوا في ذلك الأساليب الآتية:

أ ـ الاحتكار:

فقد كانوا يحتكرون الأصناف التي يحتاج إليها الناس، ويبيعونها لهم بأسعار فوق طاقتهم، وإلى أجل مسمى فإذا حان الأجل، ولم يستطع المدين أن يدفع ما عليه شددوا في الطلب، حتى يضطر إلى أحد أمرين: إما أن يستدين بالربا ولن يجد من يقرضه غيرهم، فيضاعفون الفائدة حتى تستغرق المال كله، وإما أن يعطيهم أرضه سداداً لما عليه، وكلا الأمرين مؤدٍ في النهاية إلى هذه النتيجة، فتنمو ثروتهم، ويصبح غيرهم عالة لا يجدون ما يغنيهم ويسد حاجتهم.

ب ـ الربا:

واليهود استغلوا الربا، وتعاملوا به مع الناس، فضمنوا به ربحاً خالصاً لا خسارة معه، ومن المعلوم أن اليهود يملكون رؤوس أموال كبيرة، وأن العرب يعتبرون بالنسبة لهم فقراء، ومع ذلك لو ترك للعرب حرية التعامل الاقتصادي لعاشوا في بحبوحة. فإن الحياة يومئذٍ كانت بسيطة، ويقوم بمؤونتها القليل من المال، على أن خيرات الأرض في ذلك الحين كانت تكفي القائم عليها وتزيد عن حاجته، ولكن اليهود أمسكوا ما تحت أيديهم عن الناس، حتى كانوا يبيعون لهم الماء[1] فيضيقوا على الناس معاشهم حتى اضطروهم إلى الاقتراض منهم، فكانوا يقرضونهم بالربا، فيدفعون لهم

(١) السمهودي (٣/ ٩٧٠).

القرض، ويحددون لهم الأجل مقابل حصة معلومة تؤخذ شهرياً حتى يسدد الدين، فإذا جاء الأجل ولم يستطع السداد أجله مدة أخرى، ويؤخذ حصته الشهرية، ورأس المال باقٍ على حاله[1].

وهم بذلك يستنفدون جهد الناس، ويبتزون كل ما يملكون من أموالهم، فيظلون كذلك يحافظون على رأس المال، ويأخذون الفائدة أضعافاً مضاعفة، وأغلب الظن أن هؤلاء الذين لم يقدروا على السداد في أول أجل هم أعجز منهم عنه في الأجل الثاني، وهكذا وفي النهاية يكون الاستيلاء على ما يملكون، ويبقى العديد يتكفف ولا يجد من يعينه، أو يقوم بقضاء دينه، وتخليص عينه.

جـ ـ إفساد ذات البين:

وقد لجأ اليهود إلى ذلك، فضربوا عصفورين بحجر واحد، فإن الأوس والخزرج لما اجتمعت كلمتهم استطاعوا أن يتغلبوا على اليهود، وأن يصبحوا أصحاب الكلمة العليا في يثرب، وقد اضطر اليهود أمام تجمعهم، أن يرضوا بالعيش إلى جوارهم وأن يعيشوا معهم حلفاً.

ولم يلبث العرب أن دبت بينهم الخصومات، وعندئذٍ وجد اليهود فرصة يتنفسون فيها، فعملوا على أن تظل الحروب بينهم فيضمنوا بذلك العيش بلا كدر، والحياة من غير اضطراب، حيث أصبح بأس القوم بينهم، وليست أمامهم فرصة ليلتفتوا إلى غيرهم.

وقد رأى اليهود أنه كلما انتصر أحد الفريقين على الآخر أخذ يحرق زرعه، ويقتل ضرعه، فتأكدوا أن أمر العرب صائر إلى خراب، وفي النهاية سيتم بينهم صلح مهما طال الخصام، وحينئذٍ لن يجدوا سبل العيش إلا إذا لجأوا إلى اليهود، يستقرضونهم ليتمكنوا من العيش بعد أن خربت ديارهم، ونفدت أقواتهم، وهنا يفرض اليهود عليهم الشروط التي يريدونها، وهم مضطرون للخضوع لها.

---

(١) الرياض ١٠٣ ـ ١٠٤.

وقد وقف اليهود من هذا النزاع بين العرب موقف المحايد، ليضمنوا سلامة أموالهم من النهب، وحقولهم من الإحراق فسلمت أموالهم، وأينعت ثمارهم، وأصبحوا سادة الموقف، بعد أن تحطمت قوة العرب، وانهار اقتصادهم لكثرة ما أنفقوا في الحرب، ولوفرة ما أهلكوا من الحرث والنسل.

ولولا هذه الحروب المدمرة، ولولا شل حركة الاقتصاد بسبب الربا، ولولا احتكار السلع واستغلال حاجة الناس، لولا ذلك كله لأصبحت يثرب أغنى قرى الحجاز، ولأصبحت مركزاً هاماً من مراكز النشاط الاقتصادي، لأن موقعها الجغرافي وظروفها الاقتصادية، يهيئانها لأن تحوز مركزاً لا يتوفر لغيرها، ولربما لو استقامت فيها الأمور، ولم توجد فيها تلك الظروف لكان لها شأن خطير، ومنزلة عظيمة تتفوق بها على مكة نفسها، وتسيطر على مدن الحجاز كلها[١].

وهكذا نرى أن اليهود قد أثروا في اقتصاد يثرب تأثيراً إيجابياً بتنشيط الحركة الزراعية والتجارية والصناعية وتأثيراً سلبياً بحصر هذا النشاط فيهم ولمصلحتهم، وحرمان جميع السكان ـ عداهم ـ من التمتع بنتائج هذا النشاط الواسع الذي لو أتيح لأهل يثرب في ظروف غير هذه الظروف لكانوا أغنى سكان الجزيرة على الإطلاق، ولعاشوا في بحبوحة لم تتيسر لغيرهم من الناس.

(١) مكة والمدينة ص: ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

الفصل الخامس

الحالة الاجتماعيّة

التنظيم الدّاخلي



الحالة الاجتماعيّة

التنظيم الدّاخلي

لم يخرج المجتمع اليثربي عن نظام المجتمعات العربية في الجزيرة، حيث كان يقوم على أساس النظام القبلي، فالقبيلة فيه هي وحدة الحياة الاجتماعية، والمجتمع اليثربي أيضاً لم يخل من وجود طبقات كانت هي اللبنات التي تكون منها هذا المجتمع، وتنحصر هذه الطبقات في ثلاث:

١ ـ الأحرار الصرحاء: وهم أبناء القبيلة الأصليون الذين تجمعهم صلة النسب والدم، ويعد ضمن هذه الطبقة اليهود.

٢ ـ الموالي: وهم الذين ينضمون إلى قبيلة غير قبيلتهم الأصلية، ويكون هذا الانضمام بأحد الطرق الثلاث:

أ ـ الجوار.

ب ـ الحلف.

جـ ـ العتق.

٣ ـ العبيد: وهم الذين يجلبون إلى القبيلة عن أحد طريقين:

أ ـ أسرى الحرب.

ب ـ الشراء.

وهذه الطبقات الثلاث كانت موجودة في يثرب، وكان لكل طبقة منها مميزاتها الخاصة، ووضعها الاجتماعي اللائق بها.

١ ـ طبقة الأحرار

وهم أبناء القبيلة الخلص، الذين لم يختلط نسبهم بغيرهم من الأحرار أو العبيد على حد سواء، وهؤلاء لهم حقوق وعليهم واجبات، وكلٍ فرد منهم يتمتع بحقوقه كاملة، وعليه مقابل ذلك أن يؤدي واجباته كاملة أيضاً. وإذا لم يلتزم الفرد في القبيلة بهذه الواجبات، أو فعل فعلاً من شأنه أن تعاب به القبيلة، يجد الفرد نفسه بين أمرين أحلاهما مر، ولن يجد لهما ثالثاً، فأما أن يخلع نفسه من القبيلة، ويعلن خروجه من بين أفرادها، أو تخلعه القبيلة وتطرده بعيداً وتحرمه من كل الحقوق التي لأفراد القبيلة[1].

وعندئذٍ يجد الإنسان المخلوع نفسه في موقف حرج، وأمـر عسير، فكيف يعيش وحيداً في صحراء قاتلة لا يمكن لأي إنسان أن يعيش فيها وحيداً مهما كانت شهامته وشجاعته.

وعلى هذا الذي طردته قبيلته أن يختار لنفسه ليعيش أحد أمرين: الانضمام إلى قبيلة أخرى تحميه ويعيش في جوارها، أو اللجوء إلى قطع الطريق، ونهب القوافل معتمداً في ذلك على قوته الشخصية، ليكسب قوته، ويحمي نفسه.

حقوق أبناء القبيلة:

أول هذه الحقوق تمتعه بحماية القبيلة له، ووقوفها إلى جواره حياً وميتاً، ظالماً ومظلوماً، فعلى القبيلة لكي تحظى باحترام الأفراد المنتمين إليها أن تدافع عنهم ولا تمكن أحداً من النيل منهم، فالفرد يرتكب الجريمة من الجرائم والقبيلة تحميه ولا تمكن منه، وإذا اعتدى عليه أحد واستغاث فعلى القبيلة أن تهب ملبية استغاثته دون أن تسأله عما حدث حتى قال شاعرهم:

لا يسألون أخـاهم حين يندبهم   للنـائبات على مـا قال بـرهانـا

وإذا حدث وقتل فرد من أفراد القبيلة، فإن على القبيلة أن تثأر له، ولا

---

(١) ابن الأثير (١/٣٥٩).

تدع دمه يهدر، وتظل تطالب بدمه حتى تأخذ بثأره ولم تكن القبائل تقبل دية لمن قتل منها لأن ذلك عندهم دليل الضعف، وعدم القدرة على مواجهة الخصم.

ومن حق أي فرد في القبيلة كبيراً كان أم صغيراً، رجلاً أم امرأة، من حقه أن يجير من يشاء، وعلى القبيلة أن تفسح صدرها لمن أجار، فتعتبره فرداً من القبيلة فتسبغ عليه حمايتها، وتتحمل كل تبعاته، ويصبح لهذا الجار كل الحقوق التي لأفراد القبيلة، وعليه أيضاً كل الواجبات التي على أفرادها[1].

ومن حق الأفراد في القبيلة أن يتصرفوا في بعض أمورها، وعلى القبيلة أن تقر هذا التصرف ولا ترده على فاعله، كذلك كان من حق الأحرار في كل قبيلة أن يتركوا قبيلتهم، وينضموا إلى أي قبيلة يشاءون، وليس للقبيلة أن تعترض على ذلك.

واجبات أبناء القبيلة:

وكما أن الفرد في القبيلة كان يتمتع بهذه الحقوق، فإنه يتحتم عليه واجبات لا بدّ من التزامه بها وتقيده بشروطها، وأول واجب عليه أن يجعل نفسه وماله وأهله وولده في خدمة القبيلة، وألا يتصرف تصرفاً يضعف القبيلة أو يجعلها في موقف حرج، بل عليه أن يبتعد تماماً عن التصرفات الفردية التي تحمل القبيلة ما لا تطيق، وتورطها في أمور لا قبل لها بها، لأن أي تصرف فردي قد يعرض القبيلة لإراقة الدماء وسلب الأموال، وهتك الأعراض، ولهذا فإن الفرد إذا تصرف مثل هذا التصرف كان من حق القبيلة أن تقف منه الموقف السابق الذي أشرنا إليه.

والأخذ بالثأر من أهم واجبات أفراد القبيلة، فكل فرد فيها ينبغي له أن يشعر بأنه مسؤول عن القبيلة، ومتضامن مع بقية أفرادها في حفظ كيانها والعمل على تماسكها ووحدتها، وأهم ما يحفظ على القبيلة وحدتها،

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٢.

ويظهرها بمظهر القوي القادر على مواجهة أعدائها هو الأخذ بالثأر، ذلك لأن القبيلة إذا سكتت عن دماء أبنائها طمع فيها غيرها، وأصبحت هـزواً منها غيرها، ومن أجل هذا كانوا لا يقبلون الدية، ويعتبرونها كما قلت سابقاً دليلاً على ضعف القبيلة وهوانها.

فالأخذ بالثأر في نظام القبائل أمر لا يعدلـه أمر، وواجب لا يغني عنه واجب آخر مهما عظم لأن المجتمعات القبلية تعتمد في بقائها وهيبتها على قوة أفرادها وتماسك جماعاتها، فإذا فقدت ذلك لا تستطيع حماية نفسها، ولا تجد من يأخذ لها حقها.

وعلى الثائر أن يطلب ثأره أو يموت دونه، حتى إذا مات دون أن يدركه، انتقل الطلب به إلى أبنائه وأحفاده إرثاً يلزم أعناقهم ولا يستطيعون الفكاك عنه[1].

ويقضي العرف على الثائر ألا يقرب النساء، ولا يشرب الخمر، ولا يمس طيباً ولا دهناً، وأن يبتعد عن ملذات الحياة كلها حتى يدرك ثأره، فإذا أدركه حل له كل ما كان حرمه على نفسه[2] والعرب يعتقدون أن طائراً يعرف بالهامة يقف على قبر المقتول كل ليلة يطالب بالثأر، ويشكوا الظمأ لأنه لم يرو من دم القاتل، ولا يكف عن ذلك حتى يثأر للمقتول[3].

له هامة تدعـو إذا الليل جنهـا   بني عامر، هـل للهلالي ثـائر؟

وكثيراً ما كان الثائر يختار أشرف رجال القبيلة، ويقتله بقتيله، وإن لم يكن له يد في القتل ليثبت قدرته وقوته، ولما كان الثائر يعفـو عن القاتل، ولا يحصل ذلك إلا إذا كان الثائر معروفاً بقوته وبقدرته على الأخذ بثأره، أما الدية فكانوا يأنفون من قبولها لأنها في نظرهم علامة الذل والهوان.

وفي حين قِبولِ الدية يلاحظون منزلة المقتول وشرفه في قومه، ولهم في

---

(١) العقد الفريد (٦/٢٢ ـ ٢٥).
(٢) العقد الفريد (٦/٦١).
(٣) الأغاني (٣/١٠٥).

ذلك اصطلاحات يراعونها فالحر غير العبد، والمولى على النصف من الصريح، والدية في الغالب مائة من الإبل لأفراد القبيلة، أما سادتها فقد تبلغ خمسمائة أو ألفاً[1].

وهناك نوع من الدية كانوا يسمونه دية الخفارة (عدم الوفاء بالعهد) وذلك مثل أن يجير شخص شخصاً ثم يقتل في جواره دون أن يدافع عنه، فعليه في هذه الحال أن يدفع لأولياء الدم سبعين ناقة في الشهر العاشر من حملها، وتعرف عندهم بالعشراء[2].

وقد يحصل الاتفاق على قبول الدية من غير ضعف، وذلك في حالة تفاني القبائل وكثرة عدد القتلى من الطرفين، عندئذٍ يؤثرون السلام ويصطلحون على أن يحسب القتلى من الطرفين، وتدفع الدية لمن تكون الزيادة في قتلاه، وقد حدث ذلك في حرب الفجار[3].

٢ ـ طبقة الموالي

الموالي جمع مولى، والمولى هو: المالك والعبد، والمعتق ـ بكسر التاء ـ والمعتق بفتحها ـ والصاحب والقريب والجار والحليف[4] والمراد هنا: الجار والحليف والمعتق بفتح التاء.

وسميت هذه الطبقة بذلك لموالاتها لقبيلة ما، وعيشها إلى جوارها، ودخولها في حمايتها، والموالاة تتم بإحدى الطرق الثلاث المتقدمة، إذ بها يسمى الشخص مولى، ويكون له بالولاء حقوق، وعليه واجبات، وهذه الحقوق، وتلك الواجبات تختلف من حالة إلى حالة لأن لكل حالة من

(١) العقد الفريد (٦/٧، ١٣).
(٢) العقد (٦/١٥).
(٣) ابن الأثير (١/٣٦٣).
(٤) القاموس المحيط مادة (ولى).

حالات الولاء وضعاً خاصاً. فالولاء بالجوار مؤقت، والولاء بالحلف دائم، والولاء بالعتق يلي درجة الحلف وهكذا.

أ ـ الجوار:

والجوار كما يكون من الأفراد يكون من القبائل والبطون، والأسباب التي تلجىء الفرد أو القبيلة للدخول في الجوار تتلخص فيما يأتي:

١ ـ انخلاع الفرد من قبيلته بسبب تصرف سيء يعرض سمعة القبيلة للإهانة، فإنه حينئذٍ لا يستطيع العيش إلا في حمى قبيلة أخرى فيلجأ إليها مستجيراً بها.

٢ ـ الغربة التي يشعر معها الإنسان بالضعف وعدم القدرة على مقاومة ما ينتابه من الأمور فيلجأ إلى مجاورة إحدى القبائل.

٣ ـ الخروج في طلب الثأر. ثم يجد في نفسه ضعفاً عن بلوغ غايته فيضطر إلى مجاورة إحدى القبائل القوية لتحميه حتى يأخذ ثأره[1] والسبب الأول خاص بالأفراد وأما الأخيران فيشتركان بين الأفراد والقبائل.

عقد الجوار:

ويتم عقد الجوار بأن يطلب المستجير من الجار الجوار صراحة، ويجيبه الجار إلى ذلك وقد يتم بصور أخرى منها: أن يدخل المستجير خيمة جاره أو يلمسها أو يقعد إلى جوارها وكأن يأكل معه أو يشرب قهوته، وقد أشار الفرزدق إلى نوع آخر من المعاملة يوجب الجوار حيث يقول:

وما كان جار غير دلو تعلقت بحبلين في مستحصد القد مكرب[2]

فاعتبر تعلق الدلو بالدلو يوجب عقد الجوار، ونصب الخيمة إلى جوار الخيمة بحيث تلامس الطنب الطنب يوجب الجوار أيضاً. وكان بعض زعماء القبائل يفتخرون بالجوار، ويسمى بعضهم مجير الذئب، ومجير الجراد،

(١) الأغاني ١٣/٢.

(٢) الألوس (٢/١٣٣).

ومجير الغزال، ومجير الظعن، يتعززون بذلك إظهاراً لقوتهم ومروءتهم الإنسانية.

حقوق الجار:

وإذا تم عقد الجوار بأي طريقة مما سبق فإنه يترتب عليه للجار حقوق، وتلزمه به واجبات، فأما حقوق الجار فإنها تتلخص فيما يأتي:

حماية الجار للمستجير ومنعه مما يمنع منه نفسه وأهله وولده وماله، ما بقي من قرابته الأدنين أحد، ويذكر الأصفهاني أن النعمان بن المنذر لما استجار بهانىء بن مسعود الشيباني، أجاره هانىء، وقال له: (قد لزمني ذمامك، وأنا مانعك مما أمنع منه نفسي وأهلي وولدي، ما بقي من عشيرتي الأدنين رجل)[1].

وعلى المجير أن يعلن إجارته على الملأ حتى يكونوا على علم بالجوار، فلا يعتدي عليه أحد، ويصبح المستجير في حمى المجير، يتمتع بكافة ما يتمتع به ابن القبيلة الأصلي، ويتحاشى الناس الإساءة إليه رعاية لذمة المجير وحرمته، لأن الاعتداء عليه يصبح اعتداء على المجير نفسه، وعلى القبيلة رعاية لحرمة الجوار أن تطلب بثأر المستجير إذا اعتدي عليه كما تطلب بثأر أبنائها تماماً، حتى كانت تقيد من القاتل ولو كان من صرحاء أبنائها، بل كانت تدخل في معركة عنيفة مع غيرها من القبائل حماية لهذا الجوار وحفاظاً على كرامة الجار، وأكبر مثل على ذلك قتل وائل بن ربيعة سيد تغلب وفارسها المعروف (بكليب) لأنه قتل ناقة الجرمي جار البسوس وكانت عمة لجساس بن مرة البكري، فلم يصبر جساس على تلك الإهانة، وقتل كليباً ابن عمه وزوج اخته لاعتدائه على حرمة جاره[2].

وكما كان للجار هذه الحقوق فإن عليه أن يراعي حرمة مجيره فلا يزعجه بتصرف أرعن، ولا يحرجه بفعل سيء، حتى يقابل الجميل بما هو

(١) الأغاني (٢/١٢٦).

(٢) ابن الأثير (١/٣١٤).

أجمل، وحتى يستحق ذلك الإكرام، وتلك الحماية التي أسبغتها عليه القبيلة.

إلغاء الجوار:

ورابطة الجوار كما ذكرت رابطة مؤقتة تحل بإحدى الطرق الآتية:

١ ـ بخروج المستجير من أرض القبيلة التي أجارته.
٢ ـ يرد المستجير جوار من أجاره عليه علناً أمام الناس حتى تبرأ ذمته.
٣ ـ بارتكاب المستجير جريمة تسيء إلى سمعة القبيلة والاعتداء على حرمتها[١].

فإذا حصل هذا وأرادوا إلغاء الجوار. أمهلوا الجار ثلاثة أيام يخرج فيها من أرض القبيلة التي حلت جواره[٢] حتى يتمكن من العودة إلى قبيلته الأصلية أو يلجأ إلى جوار قبيلة أخرى.

ب ـ الحليف:

الحلف جوار دائم، ينزل به الحليف من حليفه منزلة أفراد القبيلة إلا في حالة الدية فإنها تكون على النصف من دية الصريح، والحليف كالجار، رجل حر انضم إلى قبيلة غير قبيلته الأصلية بما عقده مع هذه القبيلة من الحلف والمواثيق والعهود وهو لهذا يلي في المرتبة مركز الرجل الصريح من أبناء القبيلة، وعليه من التبعات مثل ما على أفراد القبيلة الصرحاء[٣].

وقد يكون التحالف بين قبيلة وقبيلة، وقد يكون بين فرد وفرد وقد يكون بين فرد وقبيلة فقد حالفت بعض بطون الأوس قبائل سليم ومزينة، وكذلك حالفت بعض بطون الخزرج جهينة وأشجع[٤] وقد حالف أبو بكر رجلاً فلما مات ورثه[٥].

---

(١) ابن الأثير (١/٣٤٣).
(٢) النويري (١٥/٣٥٨)، العقد (٦/١٦).
(٣) مكة والمدينة ص: ٤٣.
(٤) الأغاني (١٥/١٥٩) التقدم.
(٥) تفسير الطبري (٨/٢٧٥).

وإذا كان الحليفين فرد وفرد يصبح بذلك الحليف مولى لمن حالفه وله حقوق أفراد الأسرة والقبيلة بهذا الولاء وكثيراً ما كان يتبنى الرجل مولاه فينتسب إليه، وظل الأمر كذلك حتى حرمه القرآن الكريم: ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلك قولكم بأفواهكم، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾[1].

حقوق الحليف:

من حقوق الحليف الحماية ممن حالفه والتأثر له إذا اعتدى عليه أحد، والنصرة له على من ظلمه، والمشاركة في دفع ما يتحمله من الديات ـ وهو المعروف بالعقل ـ والولاء والنصيحة والمشورة والرفادة[2].

وكذلك كان من حق الحليف أن يرث حليفه إذا مات وهو على حلفه، ولما جاء الإسلام أقر ذلك، قال ـ تعالى ـ: ﴿ ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون، والذين عقدت إيمانكم، فآتوهم نصيبهم، إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾[3].

يقول الطبري في تفسير الآية: عن قتادة قال: كان الرجل يعاقد الرجل في الجاهلية، فيقول: (دمي دمك، وهدمي هدمك، وترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك) فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم[4]، فنسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾[5] وحق الميراث الذي كان قائماً بينهم إنما هو للحلف الفردي، أما حلف القبائل أو الفرد مع القبيلة فكانت له جميع هذه الحقوق ما عدا الميراث.

---

(١) الأحزاب: ٤ ـ ٥.
(٢) مكة والمدينة ص: ٤٤.
(٣) النساء: ٣٣.
(٤) تفسير الطبري (٢٧٥/٩).
(٥) الأنفال: ٧٥.

والحليف بين أبناء القبيلة كالصريح يجوز خلعه إذا عمل عملاً يستحق به ذلك كما بينت سابقاً، وإذا حالف فرد فرداً أو قبيلة، وإذا حالفت قبيلة قبيلة، كان على الحليف أن يقطع صلته بقبيلته الأولى، ويدخل في القبيلة الجديدة دخولاً شاملاً فيتحمل كل تبعات القبيلة الجديدة، ويشارك في كل أوضاعها من خير أو شر، وسلم أو حرب.

ومن حق الحليف أن يفسخ حلفه لينضم إلى حليف جديد يرى أنه يحقق له مصالحه، ولم يكن لأحد الطرفين أن يعترض على ذلك وهذا هو السبب في أن أحلافاً حلت، وأحلافاً أخرى قامت، وقد انتشرت الأحلاف بين القبائل حتى عمت الجميع، ما عدا بعض القبائل الكبيرة التي كانت تعتمد على قوتها وشجاعة أبنائها، ولكنها مهما بلغت قوتها، لم يكن لها مركز القبائل المتحالفة التي كانت القبائل تهابها وتخشى عاقبة الاعتداء عليها.

كيف يتم الحلف؟

للأحلاف في نفوس العرب مكانة عظيمة، فهم يقدسونها تقديسهم لأمور دينهم، ويعظمونها تعظيمهم لشعائرهم لهذا كانوا يهتمون جداً بها، وقد أضفوا عليها مسحة دينية تعظيماً لشأنها، وإرهاباً لمن حاول نقضها، وإظهاراً لعظم النتائج المترتبة عليها، ولدينا نماذج من هذه الأحلاف التي تمت في الجاهلية، وذكرها المؤرخون المسلمون، وفي ذكر شيء منها بيان لما كان يفعله العرب عند عقد الحلف، وتوضيح لمكانة الحلف في نفوسهم.

١ ـ حلف الطيبين:

تنازع بنو عبد مناف وبنو عبد الدار، وعزم بنو عبد مناف على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار من السقاية والرفادة والحجابة واللواء، ورأوا أنهم أولى بذلك من بني عبد الدار لشرفهم عليهم، وفضلهم في قومهم، فتفرقت قريش، وكان بعضهم مع بني عبد الدار وبعضهم مع بني عبد مناف.

وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا، ولا يسلم بعضهم بعضاً ما بل بحر صوفه، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً،

فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسموا المطيبين [1].

٢ ـ حلف الفضول:

تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبدالله ابن جدعان، لشرفه وسنّه، فكان حلفهم عنده، بنو هاشم، وبنوا المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب وتميم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول[2].

٣ ـ لعقة الدم:

اختلفت قريش عند بناء الكعبة، وقد بلغوا بالبنيان موضع الركن، فكانت كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوزوا ـ انحاز بعضهم لبعض ـ وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنوا عدي بن كعب على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ـ فسموا لعقة الدم[3].

وبهذا العرض لتلك الأحلاف نرى أنهم كانوا يصبغون الأحلاف بصبغة دينية فهم يتعاقدون ويتعاهدون، ويؤكدون ذلك بكلمات تقتضي الدوام والاستمرار (ما بل بحر صوفه)، ثم يخضبون أيديهم في الطيب أو في الدم رمزا لوحدتهم، وعدم تخلي بعضهم عن بعض، وكانوا في بعض الأحلاف يدعون على من ينكث بالحرمان من فوائد الأحلاف ويفعلون ذلك أمام النار المعروفة بنار الحلف[4].

---

(١) ابن هشام (١/١٣١ ـ ١٣٢).
(٢) نفسه: ١٣٣.
(٣) نفسه ١٩٦ ـ ١٩٧.
(٤) الحيوان (٤/٤٧٠).

أثر الأحلاف في المجتمع العربي:

أثرت هذه الأحلاف تأثيراً كبيراً في المجتمع، فقد كان مجتمعاً ممزقاً لا تلتقي فيه قبيلتان على كلمة، كل قبيلة تعتز بنفسها، ولا ترى لغيرها حقاً في القيام بأي عمل ينهض بالمجتمع، ويسهم في بنائه، وكان هذا الاعتزاز بالنفس، واعتقاد أن القبائل الأخرى لا أثر لها في واقع الحياة سبباً في تفريق الكلمة، وتشتيت الشمل، ولم تكن فكرة المجتمع الموحد تخطر لهم ببال.

فلما شاعت فكرة الأحلاف، واعتقد الناس أن في الاجتماع خيراً يعود عليهم وعلى غيرهم، كان هذا مبدأ وعي جديد وإحساساً بالواجب الذي تمليه المصلحة، فإن القبيلة الضعيفة في هذا المجتمع لم تعد ضعيفة تلتهمها بقية القبائل بل أصبحت قوية بحلفها، عزيزة بحلفائها، تمارس حق الحياة وهي آمنة كما تمارسه كل قبيلة.

ولم يكد هذا الوعي يستقر في نفوس الناس حتى أسرعت القبائل يحالف بعضها بعضاً، وكانت هذه الأحلاف أشبه بالمعاهدات السياسية في الوقت الحاضر(١) واندمجت القبائل الضعيفة في القبائل القوية اندماجاً أنسى القبائل المتحالفة مع مرور الزمن أسماءها وشخصياتها، وأصبحت كلها تنضوي تحت اسم واحد هو اسم القبيلة القوية في الحلف(٢).

كانت الأحلاف إذن نقطة تحول في المجتمع العربي، وبداية نهضة قامت على أساس التعاون والتناصر بين أفراده، ومحوراً ترتكز عليه الوحدة الشاملة التي تضم هذه القبائل المتناحرة، وتجمعها في صعيد واحد، لتحمل رسالة السماء إلى الأرض، وتنادي بوحدة عالمية مدعمة بالمحبة والإخاء.

جـ ـ العتق:

درجة الولاء بالعتق تلي درجة الحلف، فهي إذاً أقوى من درجة الجوار، ذلك لأن الجوار مؤقت كما بينت آنفاً والعتق صفة أسبغها المعتق

---

(١) مكة والمدينة ص: ٤٥.

(٢) فجر الإسلام ص: ٤.

على من أعتقه، وهي لازمة لا تنفك، ويظل الولاء بها قائماً ما دام العتيق موجوداً، وقد بلغ من عمق هذا الولاء أن المعتق كان يرث من يعتقه إذا لم يكن له وارث، والفرق بينه وبين الحلف، أن كل حليف كان يرث حليفه، أما العتق فالإرث كان في جهة واحدة، وهو المعتق فقط.

وبالعتق يصبح العبد حراً، وله كل حقوق الحر، وعليه كل واجباته، ومع ذلك فإن الصلة لا تنقطع بينه وبين من أعتقه بل تظل بينهما رابطة هي التي يُعبَّرُ عنها بالولاء وهذه الصلة نتيجة طبيعية للحرية التي حصل عليها العبد، فإنه لولا عتق سيده له، لظل يرزح تحت أعباء الرق الذي أصابه، فشكراً منه لهذه النعمة التي أنعم بها عليه سيده، أن يبقى على ولائه له وينتسب إليه فيقال، فلان مولى فلان، أو فلانة مولاة فلان، وقد بلغ هذا الولاء والانتساب حد التبني، حتى كانوا يقولون: فلان ابن فلان.

وظل الأمر كذلك بينهم حتى حرمه الإسلام كما قلت قبل، فقد كانوا يقولون: زيد بن محمد، فنزل النهي عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾[1].

أسباب الرق والعتق:

وهناك أسباب كان العرب يحصلون على العبيد عن طريقها، فقد كانوا يغيرون على بعضهم، فيسبـون النساء والذراري والرجال والأموال على حد سواء، وكانوا يسترقون النساء والرجال والذراري، ويستمتعون بالمال. وقد يكون ذلك نتيجة لمعركة تدور بين قبيلتين أو أكثر، ويأخذ كل فريق ما يقع تحت يده من الأسرى فيجعلهم عبيداً في خدمته، وقد يحصل ذلك عن طريق الشراء، حيث كانت تقام الأسواق لبيع الرقيق[2].

وهؤلاء الأرقاء يعتبرون ملكاً للسيد يتصرف فيهم كما يشاء بالبيع والهبة أو العتق، وإن كانت أمة جاز له أن يستمتع بها ويستولدها، وكان السادة أحرص

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) فجر الإسلام ص: ٨٨.

ما يكونون على استبقاء العبيد ليقوموا بخدمتهم، من رعي وجلب وحراسة وبيع وشراء، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكنهم القيام بها، زد على ذلك أنهم كانوا يتخذونهم دليلاً على قوتهم وثروتهم وعنواناً لعزتهم وشجاعتهم، لهذا كانوا يكثرون منهم، ويحرصون على بقائهم في حوزتهم.

ولهذا أيضاً كان العبد الذي يحصل على حريته منهم، لا بدّ أن يكون قد قدم لسيده خدمة جليلة، لا يرى السيد شيئاً يكافئها إلا الحرية، كأن ينقذ سيده من هلاك محقق، أو يرد غارة عن قبيلة سيده بشجاعة فائقة، أو يشتري نفسه من سيدة[1].

حقوق العتيق وواجباته:

وإذا حصل العبد على حريته من سيده، قامت بينهما حقوق وواجبات، فمن حقوق العتيق على سيده أن يحميه إذا اعتدى عليه أحد، وأن يساعده إذا نزلت به نازلة، كذلك كان من حقه أن يستعمل نسب سيده وينتمي إليه، حتى كان يقال: فلان مولى فلان، أو فلان مولى بني هاشم مثلاً أو الهاشمي بالولاء[2].

وقد يصل هذا الانتماء إلى حد التبني، وعندئذٍ يضاف إلى حقوق العتيق أنه لا يجوز لسيده أن يتزوج من زوجه إذا مات عنها أو طلقها، لأنه يصبح بالتبني ابنا للمعتق وله جميع حقوق الأبناء، وبهذه الطريقة يستطيع العتيق أن يصل إلى درجة اجتماعية في القبيلة لا يستطيع الوصول إليها بدون ذلك، مع ملاحظة أن التبني لم يكن يتم إلا في حالات يرى السيد أن العتيق أهل لأن يصل إلى هذه الدرجة.

ومن واجبات العتيق أن يقف إلى جوار من أعتقه في سرائه وضرائه، وأن ينصره إذا تعرض للعدوان فيقاتل معه، ويقدم له ما يستطيع تقديمه من العون والنصرة.

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٨.

(٢) فجر الإسلام ص: ٨٩.

أثر الولاء بالعتق في المجتمع:

إن العبد في فترة العبودية يفقد كثيراً من مقومات شخصيته، ويتخلى عن كثير من صفاته ومزاياه فإذا نشأ في الرق فإنه يعدم تماماً كل هذه المقومات، لأنه يوجد في ظروف لا تمكنه من إظهار ما يتمتع به من مواهب وبمرور الزمن يصبح إنساناً آلياً يقول ما يقول سيده، ويفعل ما يريده، ليس له في ذلك اختيار ولا إرادة.

وعندما يفقد الإنسان إرادته حتى في أموره الشخصية، وعندما يكون الإنسان لا يستطيع أن يفعل إلا ما يريده غيره، عندئذٍ لا يمكنه أن يسهم في بناء المجتمع الذي يعيش فيه، بل لا يمكنه أن يواجه النـاس في هذا المجتمع، ويتعامل معهم كفرد مستقل له شخصيته، وله مكانته.

وكذلك كان العبيد في المجتمعات التي عاشوا فيها، وإذا لاحظنا أنهم كانوا يبيعون ويشترون ويتصرفون تصرفات جيدة إنما كان ذلك في الحقيقة لسادتهم وباسم سادتهم. إن العبد كان يتعامل مع الناس وهو يحس إحساساً صادقاً بأنه في حمى سيده ولن يستطيع أحد الاعتداء عليه لذلك، فإذا أخرجنا هذا الإنسان وهو في هذه الظروف النفسية من تلك الحماية التي يشعر بها، وتركناه يواجه المجتمع من غير هذا الجوار، لا شك أنه سينهار، ويتحطم أمام العقبات التي تواجهه، لأنه لا يجد من نفسه القوة على مواجهتها وحده، وكيف وهو لم يتدرب على ذلك ولم يتعوده؟.

لهذا كان الولاء المترتب على العتق بين السيد ومن يعتقه، سنداً قوياً لهؤلاء العتقاء، إذ يشعرون وهم يواجهون المجتمع بأنهم في جوار حصين، فيتصرفون وهم يشعرون بحريتهم أولاً، وبولائهم لسيدهم ثانياً، فتبرز بذلك مواهبهم، وتظهر معالم شخصيتهم، ويتبوءون مركزهم الاجتماعي اللائق بهم، وبذلك يكون الولاء سبباً عظيماً من أسباب رقيهم الاجتماعي، وتقدمهم الحضاري.

٣ ـ طبقة العبيد

تكونت هذه الطبقة في المجتمع العربي نتيجة الغارات التي كانت تشنها القبائل على بعضها، والحروب الطاحنة التي لم تهدأ بينها، ولم يكن ذلك فقط هو السبب في وجود هذه الطبقة، بل كان العرب يجلبون العبيد من شواطىء إفريقيا المجاورة لهم ويبيعونهم في أسواق الرقيق[١].

وانضم إلى هذه الطبقة واعتبر منها أولاد السادة الذين كانوا نتيجة اتصال الأب بإحدى إمائه، ذلك لأن العربي كان شديد الحرص على أن تبقى سلالته بعيدة عن الهجنة، التي تسبب اختلاط الدم العربي بغيره مهما كان نوع هذا الدم، فإذا كان الولد عن هذا الطريق فإن الأب يرفض الاعتراف به، وإلحاقه بنسبه، وينضم إلى طبقة العبيد ويعامل معاملتهم، ويعرف عندهم بالهجين، وإذا كان الأبناء الذين يأتون نتيجة هذا الاتصال سوداً، أطلقوا عليهم اسم الأغربة، والأغربة في الجاهلية، عنترة ابن شداد، وخفاف ابن ندبة، وأبو عمير بن الحباب، وسليك بن المسلكة، وهشام بن عقبة ابن أبي معيط، وهو من المخضرمين[٢].

الوضع الاجتماعي لطبقة العبيد:

كان الوضع الاجتماعي لهذه الطبقة سواء كانوا من المخطوفين في الغارات، أو من المأسورين في المعارك، أو من المجلوبين إلى أسواق العرب، أو ممن شاب نسبهم هجنة، كانوا جميعاً في وضع اجتماعي سيء لا يدانيه وضع السوائم والعجماوات، فقد كان العربي يرى أن لبهائمه عليه حقاً، لا يصل إليه ذلك العبد، حتى كان ينتقل من مكان إلى مكان رجاء أن يجد لانعامه مرتعاً خصباً، في الوقت الذي كان يضرب فيه عنق عبده لأتفه الأسباب، فهو يسعى لإحياء بهائمه، ولا يهمه أن يموت ذلك الإنسان الذي حرم نعمة الحرية لسبب عارض لا دخل له فيه.

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٧.

(٢) القاموس مادة (غرب).

فالعربي لا يرى لهذا العبد حقاً ولو كان ابنه، ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن رابطة الدم هي التي تستوجب الحقوق، أما الذين لا صلة بينهم وبينهم بهذه الرابطة فلا حق لهم في الحياة ورغم سلب كل الحقوق من هذه الطبقة فقد كلفوهم بواجبات أثقلت عواتقهم، وأهدرت كرامتهم وسلبتهم إنسانيتهم وسدت في وجوههم أبواب الحياة التي هي حق لكل كائن.

فليس لهذه الطبقة حق التملك وإن استطاعته، ولا حق المقاضاة وإن كانت مظلومة، لأنها لا حق لها في الشعور بالظلم، ولا حق ممارسة الأحوال الشخصية إذ ليست لهم الشخصية التي يمارسون حقوقها، فكان العبد لا يستطيع أن يتزوج إلا إذا وافق سيده على الزواج وبشرط أن تكون الزوجة من الرقيق، وقد لا يوافق السيد، فيظل محروماً من حقه الطبيعي في الزواج، وقد تكون أمة فيجبرها سيدها على الزواج بمن لا رغبة لها فيه، أو يكرهها على البغاء ليستولي على ما تكسبه بفرجها[1].

وقد كانت هذه الطبقة تقوم بالخدمات العامة والمهن التي كانت العرب تأنف منها، وتأبى أن تمارسها كالخدمة في المنازل واحتراف الحدادة والحلاقة والحجامة والتجارة، وغيرهما من الحرف التي كان العربي الصميم يعتبر احترافها إهانة وذلاً.

العلاقات بين السكان

يتكون المجتمع في يثرب من العرب واليهود ومواليهم، فالمجتمع فيها مجتمع طبقي كما سبق توضيحه، وبناءً على هذا التقسيم قامت العلاقات بين السكان، وأصبحت هذه العلاقات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بظروف العشرة والمجاورة الحاصلة بينهم.

فالعلاقات بين العرب واليهود كانت في بداية أمرها حسنة ومطمئنة، حتى إذا بدأ اليهود يشعرون بأن العرب أصبحوا قوة، وأصبحوا يشاركونهم

(١) فتح القدير (٤/ ٣٠).

خيرات البلاد، وثمرات أرضها تجهموا لهم، وبادروهم بالعداء[١] وقابل العرب ذلك بالتسليم والسكوت حتى إذا زاد اليهود من سوء معاملاتهم استعان العرب بأبناء عمومتهم الغساسنة، وأنزلوا باليهود هزيمة منكرة، عاش اليهود بعدها حلفاء للعرب ورضوا بجوارهم صاغرين.

ولكننا نلاحظ أن هذا الحلف وذلك الجوار لم يتحققا بالمعنى الذي شرحناه آنفاً، لأن اليهود كانوا يكنون في نفوسهم عكس ما يعلنون بألسنتهم، ويخفون في قلوبهم ضد ما يظهرون بجوارحهم، فكانوا دائماً يتربصون الدوائر بالعرب، ويتحينون الفرص للوقيعة بهم.

وأحس العرب منهم ذلك فبادلوهم شراً بشر، وتربصاً بتربص، وأصبحت العلاقات بينهما قائمة على أساس التنافس بين الفريقين على السلطة، وعلى خيرات البلاد وثرواتها، وإذا كان هذا هو أساس العلاقات بين الناس، فإنها ستظل متوترة لا تهدأ، وسيظل الناس في تربص وحذر، وهذا هو ما كان بين سكان يثرب.

لم يستطع كل فريق أن يحافظ على وحدته الاجتماعية رغم العداء والبغضاء، فقد دبت الخصومة بين العرب، كما أوهنت من قبل قوى اليهود، ولم تستطع رابطة الدم أن تجمع شمل المتخاصمين، كما لم تستطع القرارابة القريبة أن تحول بين نشوب الحرب وسفك الدماء وإنما كانت تجمع كل فريق من الفريقين عصبية قبيلته، وخوف من انتهاز الآخر لفرص الخصام والانقضاض على عدوه.

ولم تصل حالة التوتر بين اليهود إلى حد الحرب إلا في حالات نادرة جداً عندما كان يحالف بعضهم الخزرج، ويحالف بعضهم الآخر الأوس، أما بين العرب فقد نشبت الحروب وسفكت الدماء، وأحرق الزرع وأهلك الضرع، واستمرت الحرب بينهم مائة وعشرين عاماً[٢]. أكلت فيها الأخضر واليابس، وقضت على الزعماء والقادة، حتى أحس المتنازعون بحاجتهم

(١) فجر الإسلام ص: ٢٤.

(٢) السمهودي (١/٢١٥).

الماسة إلى أمن يمسك عليهم حياتهم، وهدوء تتوفر فيه راحتهم وطمأنينتهم.

إن عوامل الأمن والهدوء في المجتمع لا تتوفر إلا إذا سادت المحبة أفراد هذا المجتمع، والعلاقات الحسنة لا توجد إلا إذا كانت الأخوة قائمة بين أبنائه وذلك ما لم يتحقق في يثرب ولهذا ظلت العلاقات بين السكان مصبوغة بلون الدم، تفوح منها رائحة العداوة والبغضاء.

إن أقل ما يجب أن يتوفر من مقومات المجتمع هو الأمن الذي يعيش السكان في ظله مطمئنين على أرواحهم وأموالهم وحتى هذا لم يتوفر في يثرب، فعاش الناس في خوف وفزع، يخيم عليهم شبح الحرب، وتسيطر عليهم القطيعة، حتى جاء الإسلام فجمع شملهم، ووحد كلمتهم، ونشر الأمن، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولم يشذ إلا اليهود، فكتب الله عليهم الجلاء فخرجوا منها صاغرين.

الحركة العلمية

لم يكن هناك حركة علمية منظمة بالمعنى الذي عرف بعد، وإن وجدت هناك فرص أمكن بعض الناس الاستفادة منها على أن هذه الفرص لم تكن عامة، يمكن لكل فرد أن يأخذ حظه منها، ولكنها كانت مقصورة على الذين تهيأت لهم ظروف الاستفادة.

كانت هناك مدارس يهودية يتعلم فيها أبناء اليهود، ويتدارسون أمور دينهم، وكان يتولى التدريس فيها الربيون والأحبار ولم يكتفِ اليهود بتعليم أبنائهم، بل حاولوا نشر تعاليم التوراة وما جاء فيها: من تاريخ خلق الدنيا، ومن بعث وحساب وميزان، ونشروا تفاسير المفسرين للتوراة، وما أحاط بها من أساطير وخرافات، وكذلك كان لليهود أثر كبير في اللغة العربية، فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب، ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم، مثل: جهنم والشيطان وإبليس ونحو ذلك[1].

يقول الأستاذ الشريف، وقد كان لهم في المدينة كيان طائفي وديني

(١) فجر الإسلام ص: ٢٤ ـ ٢٥.

وكان لهم معابد ومدارس وأحبار وربانيون، ويقول: وقد نشر اليهود عن أنفسهم ـ على ما يظهر ـ علماً واسعاً في الأديان والشرائع وأخبار الأمم وسنّن الكون، وكانوا يزهون على العرب بهذا وبالدين السماوي[1].

ويروي الطبري عن الشعبي عن عمر بن الخطاب قال: كنت أشهد اليهود يوم فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان، ومن الفرقان كيف يصدق التوراة[2].

من هذا نعلم أن اليهود كان لهم أثر كبير في الحركة العلمية في يثرب بنشر تعاليم دينهم، والعلوم التي كانوا يعرفونها، وأنهم بنشر هذه الثقافة قد رفعوا من شأن المجتمع ثقافياً ودينياً.

وكان للنصارى كذلك مبشرون ورهبان يردون أسواق العرب ويعظون ويبشرون، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار[3] وقد أجهد النصارى أنفسهم في نشر تعاليم دينهم بين العرب كما فعلت اليهودية، وكأنهما كانا يتنافسان للحصول على ذلك الحق البكر وقد تأثر كثير من العرب بالديانة النصرانية فلبسوا المسوح، وبنوا الأديرة، كما تأثروا بثقافتها وتعاليمها فبدت في شعرهم وخطبهم وإننا لنلمح ذلك في خطبة قس بن ساعدة: أيها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة.

إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ أم تركوا هناك فناموا؟ يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه أن لله ديناً هو راض له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه أنكم لتأتون من المر منكراً، ثم أنشأ.

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

---

(١) مكة والمدينة ص: ٣٠٣.

(٢) الطبري (٢/٣٨٢).

(٣) فجر الإسلام ص: ٢٧.

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إليّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر[1]

وإننا لنرى في الخطبة إثبات وجود الله عن طريق الأدلة العقلية، ثم إيماناً عميقاً باليوم الآخر، وتحريكاً لوجدان القوم أن يتأملوا مصيرهم المحتوم تلك الثقافة لم يكن للعرب بها عهد لولا الثقافة التي حملها القسس والرهبان إلى العرب.

وقد تأثر بهذه الثقافة النصرانية في يثرب أبو قيس معرمة بن أبي أنس من بني النجار، وأبو عامر عبد عمرو بن صيفي المشهور بالراهب والذي سماه الرسول ـ ﷺ ـ بعد الإسلام بالفاسق[2].

وكما كان لليهود والنصارى أثر في الحركة العلمية، كان للتجار العرب الذين كانوا يذهبون بالقوافل إلى بلاد الشام ويظلون بها حتى يبيعوا بضائعهم، وسواء كانت تلك القوافل من يثرب أو من مكة فإنها كانت تحط رحالها في يثرب وتقيم فيها فترة للراحة تنقل فيها الثقافة التي حملتها من بلاد الشام إلى أهل يثرب الذين يخالطونهم، كما تنقل لهم خيرات الشام وبضائعها، إذ ليس من المعقول أن يذهب هؤلاء التجار إلى تلك البلاد، ويعاشروا أهلها، ثم لا يتأثرون بثقافتهم وعلمهم ونظمهم[3].

على أن الحركة العلمية لم تأخذ صيغة عامة كما قلت من قبل بل كانت في طائفة محصورة، حتى يذكر البلاذري أن الذين كانوا يقرأون ويكتبون من الأنصار لما دخل الإسلام المدينة أحد عشر رجلاً وأن الذي كان يجمع الرمي والعوم مع الكتابة يسمى الكامل[4].

---

(١) الأوائل ص: ٥٢ ـ ٥٣.
(٢) مختصر سيرة الرسول ص: ٥٠ ـ ٥١.
(٣) فجر الإسلام ص: ١٥.
(٤) فتوح البلدان ص: ٤٥٩.

المصادر والمراجع

رتب هذا الثبت بترتيب أحرف الهجاء لأسماء المؤلفين
مع ذكر تاريخ الوفاة الهجري

أ ـ القرآن الكريم.

ب ـ كتب السنة الشريفة.

جـ ـ كتب التفسير.

١ ـ **البيضاوي**: أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد المتوفي عام ٧٩١ هـ، أنوار التنزيل ـ مطبعة دار الكتب العربية بمصر.

٢ ـ **ابن الجوزي**: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد المتوفي عام ٧٥٢ هـ، زاد المسير ـ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بدمشق.

٣ ـ **السيوطي**: جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفي عام ٩١١ هـ، تفسير الجلالين ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الإتقان في علوم القرآن ـ مطبعة البابي الحلبي بمصر، لباب النقول ـ مطبعة الملاح بدمشق.

٤ ـ **الشوكاني**: محمد بن علي المتوفي عام ١٢٥٠ هـ فتح القدير ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٥ ـ **الطبري**: أبو جعفر محمد بن جرير المتوفي عام ٣١٠ هـ جامع البيان عن تأويل القرآن ـ تحقيق محمود أحمد شاكر.

٦ ـ **الواحدي**: أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري المتوفي عام ٤٦٨ هـ أسباب النزول ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

د ـ كتب اللغة.

١ ـ لويس معلوف اليسوعي.

المنجد في اللغة والأدب والعلوم ـ المطبعة الكاثوليكية بيروت.

٢ ـ مجد الدين الفيروز آبادي المتوفي عام ٨١٧ هـ.

القاموس المحيط ـ مطبعة السعادة بمصر.

هـ ـ الدوريات.

١ ـ الخفجي ـ العدد الثامن المجلد السادس نوفمبر سنة ١٩٧٦ م ذو القعدة سنة ١٣٩٦ هـ.

٢ ـ مختارات من قافلة الزيت ـ شركة الزيت العربية الأمريكية.

و ـ السيرة والتاريخ.

١ ـ إبراهيم بن علي العياش.

المدينة بين الماضي والحاضر ـ المكتبة العلمية بالمدينة المنوّرة.

٢ ـ ابن الأثير.

أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الشيباني الجزري المتوفي عام ٦٣٠ هـ

الكامل في التاريخ ـ إدارة الطباعة المنيرية.

٣ ـ أحمد إبراهيم الشريف:

مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ـ دار الفكر العربي.

٤ ـ أحمد أمين:

فجر الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية.

٥ ـ أحمد شلبي:

مقارنة الأديان (النصرانية ـ اليهودية) مكتبة النهضة المصرية.

٦ ـ أحمد زيني الشهير بدحلان:

السيرة النبوية والآثار المحمدية ـ حاشية الحلبية مطبعة مصطفى محمد.

٧ ـ إسرائيل ولفنسون:

تاريخ اليهود في بلاد العرب ـ مطبعة الاعتماد مصر.

٨ ـ الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين المتوفي عام ٣٥٦ هـ.

الأغاني ـ مطبعة التقدم بمصر ونسخة أخرى لدار الكتب المصرية.

٩ ـ الألوسي: السيد محمود شكري البغدادي.

بلوغ الأرب ـ دار الكتاب العربي بمصر.

١٠ ـ **أبو الأعلى المودودي**:
الربا ـ دار الفكر بدمشق.
١١ ـ **البلاذري**: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر المتوفي عام **٢٧٩** هـ.
فتوح البلدان ـ المكتبة التجارية بمصر.
١٢ ـ **الجاحظ**: أبو عثمان عمرو بن بحر المتوفي عام **٢٥٥** هـ.
الحيوان ـ مطبعة الحلبي بمصر تحقيق عبد السلام هارون.
١٣ ـ **جواد علي (دكتور)**
المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ دار العلم للملايين بيروت.
١٤ ـ **ابن حزم**: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي المتوفي عام **٤٥٦** هـ.
جمهرة أنساب العرب ـ تحقيق عبد السلام هارون.
١٥ ـ **حسن إبراهيم حسن (دكتور)**:
تاريخ الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية.
١٦ ـ **ابن خلدون**: عبد الرحمن بن محمد المغربي المتوفي عام ٨٠٨ هـ.
المقدمة ـ المكتبة التجارية الكبرى مصر.
العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ دار البيان بيروت.
١٧ ـ **ابن الخوجة**:
محمد الحبيب (دكتور) يهود المغرب العربي مطبعة الجبلاوي مصر.
١٨ ـ **الديار البكري**: حسين بن محمد بن الحسن.
تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ـ مؤسسة سفيان بيروت.
١٩ ـ **سديو (ل. أ)**:
تاريخ العرب العام ـ ترجمة عادل زعيتر.
٢٠ ـ **ابن سعد**: أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري المتوفي عام **٢٣٠** هـ.
الطبقات الكبرى ـ دار التحرير القاهرة ـ دار صادر بيروت.
٢١ ـ **السمهودي**:
نور الدين علي بن جمال الدين أبو المحاسن بن شهاب الدين المتوفي عام ٩١١ هـ.
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد.

٢٢ ـ **السهيلي:**
أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخشعمي المتوفي عام ٥٨١ هـ.
الروض الأنف ـ تحقيق عبد الرحمن الوكيل.
٢٣ ـ **الطبري:**
أبو جعفر محمد بن جرير المتوفي عام ٣١٠ هـ.
تاريخ الأمم والملوك ـ مطبعة دار المعارف مصر، المطبعة التجارية الكبرى.
٢٤ ـ **العباسي:**
أحمد بن عبد الحميد المتوفي في القرن العاشر الهجري.
عمدة الأخبار ـ مطبعة المدني بالقاهرة.
٢٥ ـ **ابن عبد ربه:**
أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي المتوفي عام ٣٢٨ هـ.
العقد الفريد ـ المكتبة التجارية مصر تحقيق محمد سعيد العريان.
٢٦ ـ **عبد القدوس الأنصاري:**
بين التاريخ والآثار ـ الطبعة الأولى بيروت.
٢٧ ـ **عبد الله التل:**
خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ـ مطابع دار القلم بيروت.
٢٨ ـ **عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.**
مختصر سيرة الرسول ـ المطبعة السلفية ومكتبتها.
٢٩ ـ **عبد الملك بن حسين العصامي المتوفي عام ١١١١ هـ.**
سمط النجوم العوالي ـ المطبعة السلفية القاهرة.
٣٠ ـ **عدنان ترسيس:**
اليمن وحضارة العرب ـ دار مكتبة الحياة بيروت.
٣١ ـ **العسكري:**
أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل المتوفي عام ٣٩٥ هـ.
الأوائل ـ مطبعة دار أمل طنجة تحقيق محمد السيد الوكيل.
٣٢ ـ **فؤاد حمزة:**
قلب جزيرة العرب ـ مكتبة النصر الحديثة الرياض.

٣٣ ـ الفاسي:
السيد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الإدريسي.
الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الإدارية ـ دار إحياء التراث العربي بيروت.
٣٤ ـ ابن قتيبة:
أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري المتوفي عام ٢٧٦ هـ.
المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة.
٣٥ ـ القسطلاني:
أحمد بن محمد بن أبي بكر الخطيب المتوفي ٩٢٣ هـ.
المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ـ المطبعة الشرقية مصر.
٣٦ ـ الكلبي:
أبو المنذر هشام بن محمد بن الشائب المتوفي ٢٠٤ هـ.
الأصنام ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
٣٧ ـ ابن كثير:
أبو الفداء اسماعيل بن عمر المتوفي عام ٧٧٤ هـ.
البداية والنهاية في التاريخ ـ مطبعة السعادة مصر، مكتبة المعارف بيروت.
٣٨ ـ مجد الدين الفيروز آبادي.
المغانم المطابة في فضائل طابة ـ تحقيق أحمد الجاسر دار اليمامة الرياض.
٣٩ ـ محمد حسين هيكل (دكتور):
في منزل الوحي ـ مكتبة نهضة مصر.
٤٠ ـ محمد عزة دروزة:
تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ـ المكتبة العصرية بيروت.
٤١ ـ محمد بن محمود النجار:
أخبار مدينة الرسول المشهور بالدرة الثمينة ـ تحقيق صالح جمال.
٤٢ ـ ابن منظور:
محمد بن مكرم.
مختار الأغاني ـ المكتب الإسلامي الطبعة الأولى.
٤٣ ـ النويري:
شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفي عام ٣٧٣ هـ.

نهاية الأرب في فنون الأدب ـ دار الثقافة والإرشاد القومي مصر.

٤٤ ـ الواقدي:

محمد بن عمر بن واقد المتوفي عام ٢٠٧ هـ.

مغازي رسول الله ـ ﷺ ـ مطبعة جامعة أكسفورد.

٤٥ ـ ول ديورانت:

قصة الحضارة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ترجمة محمد بدران.

٤٦ ـ ياقوت:

شهاب الدين أبو عبد الله **ياقوت** بن عبد الله الحموي المتوفي عام ٦٣٦ هـ.

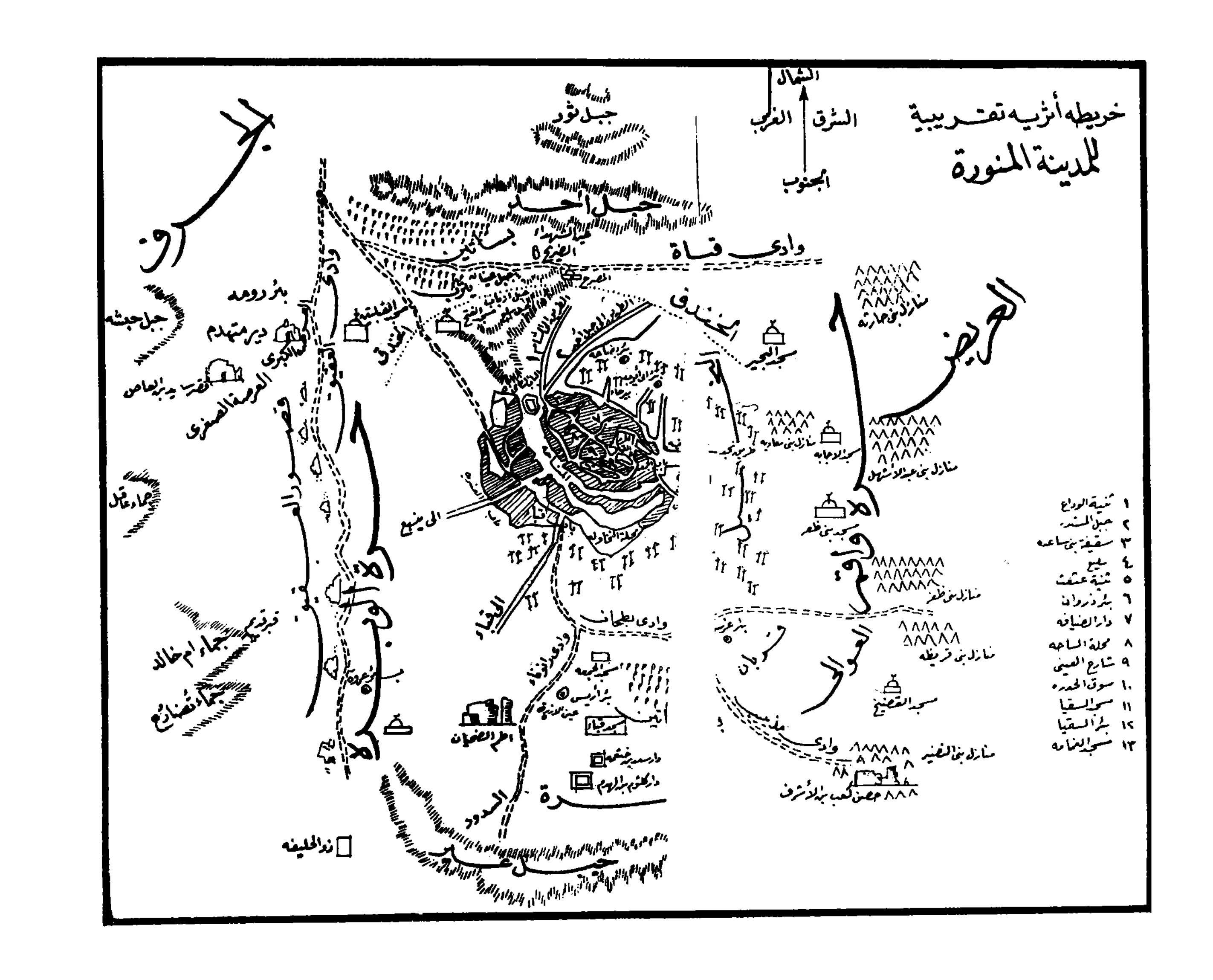
معجم البلدان ـ دار صادر دار بيروت.

٤٧ ـ اليعقوبي:

أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب المتوفي في النصف الثاني من القرن الثالث.

تاريخ اليعقوبي ـ دار صادر دار بيروت.

فهـــرس



خريطه أثريه تقريبية
للمدينة المنورة
الشمال
الشرق
الغرب
الجنوب
جبل ثور
جبل أحد
وادي قناة
الخندق
مسجد الفتح
العريض
حرة واقم
العوالي
منازل بني حارثة
منازل بني عبد الأشهل
مسجد الإجابة
مسجد بني ظفر
منازل بني ظفر
منازل بني قريظة
مسجد الفضيخ
منازل بني النضير
حصن كعب بن الأشرف
وادي بطحان
وادي رانوناء
مسجد الجمعة
مسجد قباء
بئر أريس
حرة الوبرة
وادي العقيق
قصور العقيق
العرصة الكبرى
العرصة الصغرى
دير متهدم
بئر رومه
جبل جثجثه
جماء عاقل
جماء أم خالد
جماء تضارع
ذو الحليفة
جبل عير
الحدود
البقاء
الى ينبع
١ ثنية الوداع
٢ جبل المشرد
٣ سقيفة بني ساعده
٤ سليع
٥ ثنية عثعث
٦ بئر ذروان
٧ دار الضيافه
٨ محلة الساحه
٩ شارع العيني
١٠ سوق الحدره
١١ مسجد السقيا
١٢ بئر السقيا
١٣ مسجد الغمامه

* ظل الربوة (تربية الأستاذ لتلميذه).
للدكتور عبد الله بن أحمد قادري.

* نظرات في معتقدات ابن عربي.
دكتور كمال محمد عيسى.

* وسائل الإعلام المطبوعة في دعوة الاخوان المسلمين.
(رسالة ماجستير من جامعة الإمام محمد بن سعود) بالرياض.
للأستاذ محمد فتحي شعير.

* دليل الزكاة.
للأستاذ عادل رشاد غنيم.

* إلى كل أب غيور. (الطبعة الثانية).
د. عبد الله علون.

* سبب الجريمـة
للدكتور عبد الله بن أحمد قادري.

* (مع عقيدة السلف).
العقيدة الواسطية.
للشيخ مصطفى العالم.

* دور الأم في تربية الطفل السليم.
(رسالة ماجستير من جامعة أم القرى).
للأستاذة خيرية حسين طه صابر.

* * * *

للدكتور محمد السيد الوكيل.

* جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين.
دراسة تحليلية لأحداث تلك الفترة.

* **موسوعة المدينة المنورة التاريخية.**

(رسالة دكتوراه من الجامعة الإسلامية).

تصدر تباعاً كل جزء في كتاب:

الجزء الأول: يثرب قبل الإسلام.

الجزء الثاني: المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى.

الجزء الثالث: الحركة العلمية في المدينة المنورة.

الجزء الرابع: المسجد النبوي عبر التاريخ.

الجزء الخامس: معالم المدينة المنورة.

* * * *

من منشورات
دار المجتمع للنشر والتوزيع

تحت الطبع (وتصدر قريباً) إن شاء الله

* **معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم.**

(جزءان) مجلدان.

(رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

للدكتور عبد الوهاب بن لطف الديلمي.

* * * *

من مؤلفات للدكتور محمد السيد الوكيل.

* **كبرى الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر.**

* **أسس الدعوة وآداب الدعاة** (الطبعة الثانية).

* * * *

* **حاضر العالم الإسلامي** (الطبعة الثانية).

للدكتور علي جريشه.

* **نساء في عصر الرسول ﷺ (خمسون صحابية).**

للأستاذة حليمة السعدية شيخ شرطي.